

خِصْرٌ قَدْ وَالْعَصْرُ الزُّيُوتِيُّ

رِوَايَةٌ

نَصِيفُ فَآكٍ

الى.. صديقي ثامر علي جواد الذي لا يزال يعزف بين جدران قلبي برغم الرصاص الذي سافر
به دون عودة.

هل ترون هذا المنفلت من زمانه ومكانه، وهو يشد (قيطان) حذانه في ساحة الميدان، يتلفت مثل أبطال الافلام الاسطوريين الذين ينقذون العالم في آخر لحظة، ويتطلع حوله والى السماء متخيلاً منات الكاميرات تلهث وراءه وهي تصوره لحظة بلحظة. هل ترون كيف يضم قبضته بشدة على مصيره لنلا يزوغ الى يد غيره، حتى نبتت اظافره في راحة يده. لكن مصيره الزئبقي راح ينسل من يده المدامة، وهو يحكم ازرار قميصه السمائي على حلمه الذي يخز من ميازيب جسده. إنه الطيف الباهت والصورة المتوارية لأحلام لم يعد لها صاحب، مجهولة المالك.

وها اني اسحل جثة سرّك في الفراغ القاحل الموحش، واترك صوتك المخنوق ينطلق، ليتحرر اخيراً من هذه البلاد الجحود. وسوء نوايانا، ومنى.. من ذاكرتي، فهل اودعك يا خضر قد؟

كريم كشكول، بغداد [مدينة الحسينية] خريف ١٩٩١

الفصل الأول

- ١ -

مرت بسلام أيام (طباقات الرطب) وانقشع آب اللهاب الذي أحال بغداد الى فرن يشوينا كما الصمون أو مثل خبز باب الأغا: حار ومكسب ورخيص. وانا افتح نوافذ جسدي لريح ودودة قد تحمل بين طياتها وعود مطر حيث قررت اخيراً الذهاب الى مبنى الاذاعة والتلفزيون. تعلق ملامحي تقطبية (مارلون براندو) في فلم (التاتكو الاخير في باريس) ، كنت بعمر النبي يوسف حين تحارشت به زليخة(هيت لك)، تبدو على ملامحي إمارات جدّ وصرامة مخيفة أو هكذا تخيلت نفسي. فتشني الحرس من حدائي حتى قبعتي التي وجدتها بين كواليس إحدى المسرحيات، فلبستها واثارت إعجاب اصدقائي، لم يخطر في بالي أنها ستأكل وتشرب معي طوال حياتي، أغوتني هذي القبة الايطالية بسحر ومفعول طاوية الإخفاء. دخلت مباشرة نحو موظف الاستعلامات، همست له:

- عندي سرّ خطير... لا أبوح به إلا للمدير العام.

حولوني من موظف الى آخر، وكل واحد منهم يبدي اهتمامه، يتحايل عليّ لكشف السر دون فائدة ترجى مني، بقيت مصراً وحرنتُ مثل صديقي الحمار حتى دخلت الى غرفة المدير العام. طبعاً كل الذين مررت بهم خمّنوا نوع سري ولونه: أما يتعلق بأمر خطير يستهدف أمن الدولة أو كشف قضية تتعلق بهجوم على مبنى الاذاعة والتلفزيون. أجلسني المدير قربه الى جهة اليسار. قال:

- تكلم... ما هو سرّك الخطير هذا؟

نهضتُ ودنوتُ من وجهه وقلت:

- انا ممثل بارع... لا تحرموا التلفزيون مني.

ضحك، نزع نظارته وهو يضحك، يتطاير من ضحكته شرر، ضيّع عليّ هندسة الغرفة وأثائها وكنت لحظتها طفلاً تائهاً نسي حتى اسمه. دخل شخصان وزفوني خارج مبنى الاذاعة والتلفزيون بالشتائم والدفع والبصاق مع جملة تكرر، كانت هي اللازمة لأغنية الطرد:

(قشمر... هذا هو سرّك) تناوشت الشارع وعبرت جسر الصالحية الى شارع الرشيد ثم النهضة ومنها ركبت سيارة لمدينتي الغبارية. نزلت امام مستشفى الجواد، أترنح سكراناً بفكرة: ان ما حدث غير حقيقي، إنه لقطة فلم رأيتة في واحد من سلسلة أوهام حياتي، صحيح أنا ذهبت لمبنى الاذاعة والتلفزيون، لكنه مجرد تمثيل في تمثيل، صحيح أنا المشتوم والمدفوع والمبصوق عليه، وبذات الوقت ليس هذا أنا بل شخص قريب مني جداً، توهم كونه أنا وفعل فعلته ومضى. لذلك فأن ما حدث لا يمت بصلة اليّ. وبقيت الحادثة مربوطة بين الوهم وبين الواقع. ما جرى ليس خارج منطقة وعيي ولا علاقة له بمرض الفصام العقلي أو أي نوع من الجنون، والدليل على صحتي العقلية والنفسية: مزاولتي الكتابة والمذكرات، انا أثبتُ لنفسي عدم جنوني بمواصلة الكتابة، رغم انها دليل لا يعلم به احد ولا يعرف مكان

أوراقى ودفاترى أى مخلوق، إذ صنعت منضدة طويلة (مىز) يشبه التابوت، جعلته على مقاسى بالضبط، لا زائد ولا ناقص، صمته كأى نجار محترف بطبقتى خفيتين من الخشب المتين يصعب تمييزها، أحشر ما بينهما كل أوراقى ودفاترى التى دونتها خلال سنين طويلة. لا أعبا بقيمتها الفنية، أو أنها جديرة بكل هذا الحرص أم لا، إنما هى كئزى الشخصى ومبرر وجودى. هنا تنطُ مفارقة عفرينية تنحش فى صدرى ولا سبيل الى كتمها أو طمرها: كيف تفرط بحياتك وتستهتر بمصيرك بينما تحرص أشد الحرص على دفاترك وأوراقك؟ وأعترف بكل فخر وإعزاز، أن هذا هو ما يحدث فعلا ولا أملك أى تفسير.

فى بدايات الحرب الأهلية اللبنانية، كتبت رسالة الى مديرية الامن العامة، فى سطورها أدين نفسى وأقول:

- إننى ضد الحزب والسلطة، وأشكل تهديداً خفياً ستظهر علاماته فى الأيام القادمة. وقعت وكتبت اسمى الرباعى وعنوانى، وألقيتها فى صندوق البريد. ربما سيقولون هذا واحد مجنون، أو أن شخصاً غيره كتب الرسالة باسمه، كومة احتمالات تتراكم فوق هذه الرسالة، وأكثرها معقولة: أنهم أهملوا الرسالة. ثم دفنت مع الكثير من الحوادث فى ذاكرتى لأن مصائب وكوارث تراكمت فوقها ومحتها، ولم أتذكرها إلا عندما سقطت سهواً جملة من سياق حديث طويل مع (أوميد) أحد أصدقائى الممثلين الذى أشترك فى مسرحيتى (الطاعون يعسكر فى المدينة) التى عرضتها فى ألن فترة وأسخف رعونة من حضرة جنابى الكسيف. كنا بعد التمارين (البروفات) نجلس فى الحديقة الكبيرة جنب مستشفى الجوارى نناقش ونتحاور عن كل شىء وأى شىء، حين طفرت من لسان (أوميد) تلك الجملة مثل ضفدعة سامة. تلقفت الجملة: إنه يتمرن يومياً - بروفه من نوع آخر - بالجلوس على (بطل ببسى كولا) حتى لا تتمزق مؤخرته ويتعذب طويلاً إذا ما وقع فى أيدي رجال الامن. وتذكرت الرسالة مرة ثانية عندما سقطت أنا بين أيديهم وشهد جسدى فنون التعذيب، ضحكت بعدها بمرارة من سذاجتى وقلة خبرتى ومن هذا الجنوح فى تهورى، أردد المثل الجائر: يردس حيل الما ضايكهه....

ولكن لا فائدة منى حيث لا نفعتنى التجارب ولا حصنتنى الخبرات. كنت دائماً وابدأ أنسى نفسى وأعود الى التهور والطيش كأنى أعيش بلا ماضٍ ولا تجارب ولا عبر. فى كل صباح احتفل بالحياة مع العصافير والأطفال، برىء، ممحو من قذارات الأمس، ما حدث ويحدث كله تمثيل فى تمثيل، حالما ينتهى دورى أعود لنفسى من جديد، وابدأ فلماً آخر أو حلماً جديداً أو وهماً له طعم الحياة. مشكلتى تتلخص: بان الواقع غسل يديه منى، عجز عن إرغامى على تصديقه وإيقاعى فى أسره والرضوخ لشروطه. حيث دائماً هناك مسافة من الغموض الفنى والحلمى ما بينى وبين ما يقع فعلاً. لا يمكننى التصديق بالكامل ولا النفى القاطع. مشكلتى أم رأسين لا علاقة لها بالشجاعة ولا بنجومية خالف تعرف، فحين عرضت مسرحيتى على قاعة ثانوية المصطفى، اندهش الجمهور خانفاً من جرأتها وخطورتها ولاننى الاصدقاء على وقاحتها بذلك التطابق المكهرب مع الذى يحدث فى البلد بوضوح ساخر متهمك واسمها المفضوح: الطاعون يعسكر فى المدينة، يعنى (كابله وبزه بعينه)، وهى قصة ملك يعدم أى حلاق يقصُّ له شعره، فلم يبقَ فى المملكة سوى الحلاق الاخير، يتخذهُ الملك حلاقه الخاص لا يغادر القصر بتاتاً بعد ان يكتشف سرَّ إعدام جميع الحلاقين: للملك أذنين كأذنى الماعز. كيف يبقى الحلاق حبس القصر وسرَّ الملك يحوص فى قلبه، إستأذن من الملك للنتزه فى حقل

القصر، وراح الحلاق ينبش أرض الحقل ويبوح بالسّر للأرض. راحت أيام وجاءت أيام ونما قصب كثيف في الحقل، جلبوا راعياً لقص أعواد القصب والتخلص منها. صنع الراعي من القصب نايات راح يبيعه للناس. كل من ينفخ في الناي يخرج لحن السّر: للملك أذنين كأذني الماعز. إنتشر السّر بليلة وضحاها في عموم المملكة وحيء بالحلاق مخفوراً أمام الملك واعترف: لم افش السّر لأي انسان ولكني بحثتُ به للأرض، فما أدراني ان الارض ضدك. أعدم الحلاق وطلع وزير الاعلام الملكي وأعلن للشعب: اننا فخورون أن للملك أذنين كأذني الماعز وعلى كل مواطن ان تكون له اذنا ماعز. وتنتهي المسرحية بهتاف شعبي: مع مع ميع ميع.. لكن المصيبة الرعاء تزامن عرضها مع حملة اعتقالات واعدامات طالت الشيوعيين والشيعية والاكراد، وطبعاً هؤلاء ليسوا حلاقين ولكنهم اكتشفوا أذني الماعز في رأس حزب البعث الذي يناضل من اجل إنبعث الأمة من سلالة التيس. بينما أخلق انا فوق الواقع وشباب قطاعنا(٣٣) يختفون واحداً تلو الاخر، وانا بمنأى عن الخطر، خارج حملة الصيد، محصن ضد الاختفاء واعتقالات رجال الأمن كمن يحمل حرز (عرج السواحل) أو خرزة (النجاة)، رأيتُ بعض الرجال يشدها على زنده بسير جلدي. كيف أكونُ خارج دائرة الخطر وأنا بلا(عرج السواحل) وبلا خرزة(النجاة). بعض الذين اختفوا كان زميل دراسة ومن الجيران، اسماؤهم ووجوههم تتبارق في ليل ذاكرتي مثل شظايا زمرد. فهل أفلتُ هذه المرة بادعائي الجنون، ربما سينظلي عليهم قناع الجنون رغم شكوكهم، فقد خضعتُ للمراقبة والتحقق من تماسك صلابة جنوني.

وكان آخر تحقيق معي في شعبة الثورة لحزب البعث، استجوبني فيه (رفيق) من قطاعنا اسمه (موحان)، وجه لي بعض التهم فأجبتته بحوار من مسرحية (أبو الطيب المتنبي): أن تتقدم للوراء أو تتراجع للأمام، ان تصعد للأسفل أو تنزل للأعلى، فجميعها خطوة واحدة.

تركوني رهن الرصد والتحري وأحالوا ملفي الى الجهات الأمنية. وأنا نصفي في ظل الحلم ونصفي الآخر تحت شمس الواقع. أنام على سرير الوهم ومُعطى بلحاف الحقيقة. القضية كلها تمثيل في تمثيل، وهناك دائماً المخرج اللامرئي الذي يتدخل في اللحظات الاخيرة، لكن متى ينتهي هذا الدور المرعب؟

رأيتُ وأنا اقتربُ من البوابة الجانبية لمستشفى الجوارد كوم نساء ملفعات بالعباءات السود، يتسربُ منهن نواح مكتوم جائر، وبين لحظة واخرى ينخرطن بجهشات مخنوقة. كما لاحظتُ بعض رجال قربهن يلفون وجوههم ببشماغات جنوبية كعادتهم حين تحل بهم مصيبة. أدركتُ على الفور انهم أهل وأقرباء ميت في المستشفى، بانتظار إستلامه من ثلاجات الجثث مع شهادة الوفاة. منظرهم يوحي بان الميت كومبارس، ميت مجهول ومنسي لا يحفل بفقدانه أحد سوى أهله وأقربائه. طبعاً لم أعرف سبب وفاته: بمرض، حادث سير، معتقل أطلق سراحه قبل أيام وودعه رجال الامن بالاعتذارات مع قدح شربت يحوي مادة (الثاليوم) بمناسبة خروجه، أم مات بسكتة قلبية، أو تبادل إطلاق نار حول ثأر عشائري قديم.

لا أعرف، هو ميت مغمور كما يبدو من مشهدهم، ميت يحمل بصمة كل الموتى المجهولين، الذين كان موتهم غير ملفت مثل حياتهم بالضبط، حياة نملة بهدونها وصمتها وعدم الاكتراث لها، حياة تدبُ بلا ضجيج لذلك موتهم هو الاخر بلا ضجيج، دفنوا وتلففتهم الارض بسكون

خلاب. حين يموت هؤلاء أشعر بخجل من وجودي ولكوني ما زلت حيّاً، أستحي من جسدي النابض بالعافية وأشعر بانّي مسؤول عن موتهم المنسي هذا ولي ضلع وذنب في موت كهذا، اني متواطئ مع الموت بشكل أو بآخر، لأن نبرة الحزن الخافتة هذه تقتل قلبي، رغم انه حزن غير استعراضي ولا حزن منافق، إلا إنه حزن منقوص: الميت مكشوف الجسد ممدداً فوق حصير فقير وحوله كتل سوداء تريده ان ينهض، ان يعود مثلما كان فقد تنقذهم الدموع المتوسلة لكي يغير ملك الموت رأيه ويعيده للحياة، لكن اليأس المفجوع يتراكم شيئاً فشيئاً، خاصة ان الميت غير عابئ وغير مبال بجسده، ولا يهمله ما يجري حوله.

إقتربت من أهل الميت واخذت زاوية معتمة بين أحد أركان باب المستشفى، وانخرطت ببكاء مكتوم، أहतز بنشيج كامد يرى أكثر مما يُسمع حتى سمعت من يخاطبني، رفعت رأسي فرأيت ممرضاً يرتدي صدرية بيضاء يقول:

- أنت أخو المتوفى؟

تلعثمت، (شوف حظي الاسود)، ترك جميع أهل الميت وانحدر اليّ مباشرة. أحنيت رأسي مرتبكاً لا أعرف ماذا أردت عليه، تخيلته مبلقاً بوجهي مذهولاً وأنا أنسل بهدوء ورأسي غطس بين كتفي أدوب في الظلام، أمسح وجهي من بلل الدموع، أدبٌ مثل نملة باتجاه البيت. ماذا أقول للممرض ، ماذا اردت عليه: لا... لا... أعرفه.

سجين وملح

طلع الرفيق موحان في منطقة قطاع (٣٣) مثلما يطلع الفطر السام، طلع في ٧ نيسان يرتدي أبهى ملابسه: بنطلون أخضر مع قميص مربعات لونه رملي وجوزي، يحمل بيده اليمنى دفترأ متسخاً مع كراريس، ويحمل وجهاً بشوشاً كأنه يعرف الجميع منذ زمن بعيد والجميع يعرفونه ، بينما لم يلحظه أو ينتبه الي شخصيته أحد. ربما أدخر وجوده وخبأه ليطلع على الناس في هذه الايام، بدا سلساً ناعم المعشر عكس أخيه (فرحان) الشبح، الذي كان معروفاً بدقة ذهابه وأيابه اثناء دوامه في وزارة الصحة بصفة معاون طبيب. (فرحان) الشبح لا يمشي بل يسيلُ على الارض مسكوباً، يدبُّ مثل دودة كبيرة تلبس عوينات سمكية(جعب إستكان) لا يسلم على أحد ولا يسلم عليه أحد، لكنه حين يمرُّ تتحرك أوراق شجيرات الخروع والسيسيبان وزهرة الشمس، وتتمايل أعواد القصب والبردي في الحدائق الكبيرة المنتشرة أمام البيوت، حين يمر يخرس الدجاج وينكمش البطُ خانساً، وتنسل الكلاب الي اقرب ملاذ تضع ذيولها بين ساقها. فرحان الشبح يمرُّ مثل النسيم المخيف في أفلام الرعب.

- سجين وملح... سجين وملح... سجين وملح.

إستغرب الناس من صيحات الأطفال(سجين وملح) هذه، فالوقت ليس وقت غروب ولا ليل، كذلك عدم وجود طائر (الطيطوي) في الجو ولم يسمعوا زعيقه المشووم، الذي يتطير منه

معظم الناس، إذ لا بد من حدوث مصيبة في البيت الذي يزعم فوقه طائر (الططيوي). تكررت صيحات الاطفال (سجين وملح) حين مرّ الرفيق موحان بملابس العيد من أمامهم. هذه الكلمة السحرية تبطل مفعول المصيبة المخبوءة في زعيق الططوة كما هو شائع في المدينة الغبارية، تلك المدينة التي إنبتقت بعكس جميع مدن العالم، إذ بدأت بظهور خرائب وأطلال من الطوف، كأنها مدينة أثرية مطمورة، إنزاح عنها التراب والغبار وبانت بعض معالمها المدفونة:

هنا كوخ طيني نبع حوله أطفال نصف عراة يلعبون (الغميضة)، وهناك طلع بيت طيني مسور بالننك والسعف والقصب، يعجّ بالثغاء والرغاء والنهيق، يخفق حوله البط ودجاج يتقافز من تحت اقدام رجال بدشاديش ويشماغ سومري يشبه شباك الصيد، يجلسون عصراً أمام الباب ودلة القهوة مثل راقصة وسط الجمر، يشربون الفنجان تلو الفنجان ويدخنون سجائر لف.

وبين سنة وضحاها تكشففت أكبر مدينة أثرية فوق سطح الارض، انقسمت عمودياً الى (الجوادر) و (الداخل) والى قطاعات بعدد خرز المسبحة السوداء، وسرعان ما إمتدت وتضخمت حبورة بنشوة الوجود الحي، ولولا قناة الجيش من أمامها والسدة الترابية من خلفها لاجتاحت بغداد بكرخها ورصافتها، ولكن طائر الططيوي يزعم فوقها دائماً.

يقول كشكول صاحب أقدم دكان في المدينة:

- كاع الثورة عطشانه للزرع... والعباس اذا تفلت وانت ماشي رأساً تخضر وراك نخلة.

ولأنها بلا مجاري تحت الارض فقد تكاثفت القصب والبردي والخروع والسيسبان وزهور الشمس أمام البيوت، إندلعت الحدائق من الماء المستعمل الخارج من البيوت.

في صباح اليوم التالي (٨) نيسان، إختفى ثلاثة شباب من منطقة دكان كشكول في قطاع (٣٣). يقول جيرانهم:

سمعنا زعيق الططوة فوق بيوت هولاء الشباب ولم نسمع صيحات (سجين وملح).

(سلامه) غبشت تزور الامام الكاظم بعد ان حاصرت أمها من جميع الجهات وأجبرتها على الإستسلام للزيارة، إذ بكت بدموع يخرُّ لها الشياطين ساجدين:

- يمه... يمه عندي حاجة ومرادها عند قاضي الحاجات ابو الجوادين.

وتطشر اخوتي هائمين يبحثون في المستشفيات ومراكز الشرطة: (مكي) توجه للحارثية حيث جملونات الموقوفين من قبل الانضباط العسكري. (زيدون) خفَّ قدميه صوب مركز شرطة الثورة ومركز شرطة التهذيب، ثم انسل يبحث في السينمات التي يعرفها كما يعرف راحة يده لعل إحدى الشاشات إبتلعتني بفلم طيرٍ عقلي ورماتي بعيداً خارج نفسي. و (عبودي) هبَّ الى صديق له عم يعرف أحد أقارب زوجته الذي له جار أخوه مفوض بالأمن. و(محمود) ذهب الى القرآن وخرج متفانلاً بعد الاستخارة:

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

بينما غبشت أمي الى كربلاء لتحتضن شباك ضريح الامام الحسين وتنوح:

- أريد (خضر) منك يا مظلوم كربلاء.

ثم تتجه صوب الامام العباس وتتشبث بمرقده:

- ها... أخو زينب ها.. ها يا قمر بني هاشم ها... أريد (خضر) منك ومن اخوك سيد شباب أهل الجنة.

يبدو أنني لست الوحيد المنفلت من سطوة برائن الواقع، فسلامه غير متدينة وتحفظ أغاني عبد الحليم حافظ وأغاني فيروز أكثر مما تحفظ آيات من القرآن وترتدي زياً هندياً بلا حجاب، لها شعر أسود لامع، طويل... طويل حتى ضياعي في متاهة عطرها، ذلك العطر الفاعم حولي طارداً كلَّ روائح الواقع: رائحة البعث ورفيق موحان، رائحة الفقر وإفلاسي المزمّن، رائحة مجاري شوارعنا المكشوفة، رائحة الفن العفن ورائع كواليس السياسة، رائحة الدسم البشري في المعتقلات وغرف التحقيق، رائحة الكذب والنفاق وهي تعطُّ من أباط المتنفذين. عطرُ سلامه إكتسح كل هذه العفونات واستحوذ على خشمي وعقلي، عطر فريد يشبه شخصها وجمالها وروحها، عطر يفيض عليّ كلما أراها وأدنو منها فلا أشمُّ سوى زهرة حلمي، عطرُ يقتحم أبواب وشبابيك جسدي ولا يترك مسامة فيّ إلا وأسكرها باريجه السحري.

حضور (سلامه) يشق فولاذ الواقع ونضيع في ازقة بغداد أيام كهرماتة والاربعين حرامي، تهبط علينا ألوان أقمشة من مقصورات الشناشيل، تداعب شعرنا، تتجادبنا ألحان موسيقى كأنها تنضح من الجدران، تشدنا من أطراف ثيابنا ونفلت الى ساحة كرنفالية، تعجُّ بأنواع حيوانات وطيور تجترح العجائب، رأينا غزالة فوق دكة مفروشة بالسندس تُعني أشعار زهير بن أبي سلمى، وقفت بقربنا نعامة تتطلع بعبوس الى غراب يفكُّ الحلبي من أعناق النساء ومن عمائم الرجال، لفتت نظري أوزة بيضاء تشوبها الزرقة، تبطبط بمنقارها لحناً يمزق القلب ويهدّ الحيل، وتتطاير من عينيها دموع لؤلؤية فباغتني صوت تاجر عبيد وجواري، لكزني

بخاصرتي، إلتفتت إليه، يغمز بعينه وكانت له ملامح الرفيق (موحان) لكن بأنف ضخم يتكلم منه بخنة:

(تراوس) هذه الجارية وأعطيك الإوزة المنكوبة التي تبيض فضة؟

الحقير يريد مقايضة (سلامه) بهذه الاوزة المسكينة، وقالها بصوت عالٍ جذب انتباه الاخرين فتحلقوا حولنا واشتعلت حمى المزايمة:

هذا يصرخ بألف دينار وذاك يهتف بألف ونصف، حتى صرت مع سلامه بؤرة إستقطاب هذا المهرجان وجمهور المتسوقين.

أمسكتها بقوة من كفها وهربنا مندسين بين خليط الناس والحيوانات والطيور والاقمشة وصناديق الحلوى والأواني. ركضنا من زقاق لزقاق وخلفنا تتلاهاث غوغاء حرامية وعصابات وتجار الجوارى والعبيد حتى اصطدمت بزقاق مسدود مكتوب على الحائط شعار: درب رذب. احتضنت (سلامه) وهي تختض وترتجف، والغوغاء يتقدمون ألينا شاهرين سلاح الشهوة، يريل من أشداقهم لعاب الشبق، يتلمضون بألسنتهم، وكل واحد منهم يهز وتد ذكره المنتعض، يتقادح من عيونهم شررُ المني، فتدخل مُخرج حلم يقظتي: وانهالت على عصابة الغوغاء من فوق السطوح والشناشيل سيولٌ وحل ومياه مراحيض وغسيل، وشأبيب طابوق وحجر وأحذية عتيقة وأحشاء حيوانات من مصارين وجرة وكروش تدلق الفضلات حتى فرغ الزقاق من عصابة الغوغاء.

خرج أصحاب البيوت ينظفون الارض من القاذورات والأوساخ بينما اصطحبتنا فتاة مزعنة ترتدي نفوف حورية البحر وأوصلتنا مشياً على الاقدام خلف السدة التي تحجب بيوت مدينة الثورة واختفت مع زعانفها الوردية، وكانت كفي بكف (سلامه) بعيداً عن كاميرات الفضوليين، مثل كاميرا ناصر نابت وميري وكريم كشكول، ، كاميراتهم التي رصدت (سلامه) قبلي وانحرفت صورتها الحلمية في حدقات عيونهم فما استطاعوا رؤية أي فتاة غيرها. لقد احتلت موق عيونهم وشغفت قلوبهم، وطردت نساء الدنيا من رؤوسهم فلا يبيها طيف امرأة غيرها. ضحكوا عليّ وسخروا مني:

- جيرانكم... حايط على حايط، ولم ترها لحد الان... أعمتك الكتب وركبك جنّ الفن وضيعك.

ظلوا واقفين خمسة أيام بلياليها أمام باب بيت (سلامه)، ينتظرون رؤيتها مرة أخرى. يقول كريم كشكول:

- لا يمكن السباحة في النهر مرتين كما يقول استاد (حمود) مدرس الادب والنحو، لذلك هيا لبيوتنا فلا يمكن رؤية هذه الفتاة مرتين.

تفرق الربع وذهبت لبيوتنا صاعداً فوق السطح للنوم، حيث الصيف يلفظ لفحاته الأخيرة. وجدت أهلي نياماً ما عدا أخي (محمود) بفراشه الخالي، ربما يسهر في مقهى جبار لمشاهدة فلم السهرة كعادته. وقبل أن أتمدد فوق فراشي فاح صوت أمي هامساً يشوبه الاجهاد والسهد: لا تنم جوعان... عشاؤك في المطبخ. وفعلاً كنت جائعاً، حاولت النهوض على ركبتني للنزول

وتناول العشاء لكنني جفلتُ وتجمدت لا رعباً ولا تطيراً، بل من سطوة طيف بجمال لا يطاق: صورة نصفية خلف زجاج نافذة (البيتونة) لبيت عمي الذين انتقلوا الى مدينة (الحرية) قبل ثلاثة أسابيع واستأجرته عائلة جاءت من مدينة العمارة قبل ثمانية أيام.

وراء الزجاج فتاة لا هي من الارض ولا من السماء، أتوجد في العمارة إسطورة كهذه، عافت وتركت أرض العراق بمدنه وبيوته لتحل هنا وتسكن لصق بيتنا، اي قدر شكسبيرى توهج وأضاء حياتي بهذا الحضور المشع، أي رحمة، أي معجزة تحققت الان ها.. الان توأ من النافذة. لا ألوم (ميري) عندما كفر، يجدف وهو يصف (سلامه) جارتى الجديدة:

- خرجت لتوها من بين يدي الله، حارة طازجة ندية، خلق الله الكون في سبعة أيام وخلقها لوحدها في سبعة أيام، جالساً على ركبتيه يحنبُ عليها، يشذب كل زائدة ويصقلها من أي عيب أو نقص، هذه الفتاة يا جماعة حلم الله.

هذا هو بالضبط ما أحسستُ به وهي تقف محاطة بظلمة منفلقة من شدة وجودها المشع، منورة بذلك الثوب الزمردي وشعر يسيل متلاصفاً فوق منحدر الرأس وانحناءات الكتفين، ولأنها صورة نصفية فلا أرى نهاية لهذا الشلال الأسود، كانت تنظرُ ساهية نحوي أو الى نقطة خلفي لأنها توارت حالما وقفتُ أعبُّ من فواح طيفها. يكفي العمارة فخراً انها انجبت (سلامه). سلامه قطفت روائع جمال قارات الارض، واصطفتها الطبيعة حسناء الدنيا وسرّها الأعظم. تحيرتُ أنا من سلوك فتياتنا ونساننا حين كنت اراقبهن وأفحصهن أثناء حضور (سلامه):

لم تنشب فيهن نيران الغيرة من (سلامه)، عكس المتوقع والشائع والأضرب من ذلك كن يتغلزن بـ(سلامه) حاضرة كانت أم غائبة، وأتذكر قولة بنت عمي المعلمة (جنة):

- سلامه تحفة نفيسة ونادرة لا يستحقها رجل.

كذلك الشباب والرجال الذين لمحوها، أخذتهم الغبطة وانشرحت صدورهم، كمن يرى بحيرة زرقاء تلبط فيها أسراب إوز، بعد سجن طويل. هؤلاء اندهشوا بجمال (سلامه) وهم ليسوا عشاقها ولا سقطوا صرعى مُتيمين في غرامها، إنبهروا بحياد ولم يتدخل العقل والقلب في سلطة العين مثلما يحدث للعشاق الولهين عندما يرون الحبيبة أجمل نساء الارض، لأن الغرام أعماهم وأحدث الحبُّ هلوسة في النظر، إذ تدخل العقل والقلب في سلطة العين، وهذا هو الفارق الساطع بين جمال (سلامه) وجمال المعشوقات والحبيبات.

الخنافس

نزع (مكي) بييرته ولطخها بالارض فورما دخل باب الدار وصفقه وراعه، راح يدوس بحدائه فوق البيرية ثم ركلها فتعلقت بأحد أعمدة الساباط الى يساره حيث تليه غرفة العائلة وغرفته مع زوجته بنت عمه، بعدها المطبخ فالحمام والمراحيض في نهاية البيت. (مكي) حبس أبخرة غضبه طوال مسافة الطريق من الحارثية وحتى لحظة دخوله البيت، أبخرة تحوص في صدره على وشك الانفجار. واستعر غضبه ليس لانه لم يجد أخاه فقط بل لانه رأى فظاعات داخل توقيف الحارثية حيث الهاربون والمتخلفون من الخدمة العسكرية. كان قد سمع كثيراً عن صيت الحارثية لكنه الان رأى بعينه تلك الوجوه الصفرة المخيفة والمذعورة، رأى كومة زنابير من الانضباط العسكري تنقض على جندي عنده سبع هروبوات، في البدء أخرجوه من الجمelon سحلاً ثم انهالوا عليه بالعصي والرفس وهو يصرخ ويتقي ضرباتهم حتى أغمي عليه.

رأى مجموعة شباب داخل بركة أسنة يزحفون. رأى طابور مرضى على وشك الانهيار أمام منضدة يجلس خلفها طبيب، يعطيهم حبة أسبرين أو حبتين من شيشة كبيرة لونها بني داكن، يبتلعون الحبة أمام الطبيب وينصرفون، كل واحد منهم يتحين فرصة للاقتراب من (مكي) ليعطيه قavanaugh ورقة تحمل عنوان أهله، لعلهم يراجعون أمرية الانضباط العسكري ويخرجوه من هذا المكان الشنيع، بعضهم بكى وهو يناوش (مكي) قavanaugh عنوان أهله حيث أقل واحد منهم لم يتناول الطعام منذ يومين، مع مشاهد كثيرة أخرى رأها وتكدست في صدر مكي، الذي دخل البيت مشتعلًا تحت ملابسه العسكرية وأنفجر حال انصفاق الباب وراعه:

- ازرب على الجيش وازرب على الأسس الجيش.

ماذا سيقول (مكي) لو رأى الحارثية بعد سنوات أثناء الحرب العراقية الايرانية، حيث أرض الجمونات مغمورة بالبول والغائط، فلا يستطيع الموقوفون الجلوس أو النوم طوال فترة التوقيف وسعيد الحظ من يحصل على تنكه أو طابوقة أو بلوكة. ينتظرون المحاكمة أو قرار العفو: الضابط يدخل بالهروب إذا غاب يوماً واحداً (٢٤ ساعة) والجندي ثلاثة أيام غياب ويعدُّ هارباً، عقوبة الهروب هي الإعدام.

وتعيس الحظ من لم يجد شيئاً يقيه الارض المغمورة ، فأما ينامون وقوفاً أو يستسلمون للتمدد فوق المياه الثقيلة من شدة الإعياء والنعاس والجوع والقهر، أقل واحد فيهم يخرج من الحارثية يكون مصاباً بالجرب.

في سوق باب الشرقي الذي لا يختلف كثيراً عن سوق عكاظ دحس (زيدون) جسده، حيث الجميع يصيح وينادي الى بضاعته. ويلعلع فوق أصواتهم صوت المطرب سعدي الحلي (روحي معلگه بيك). وصل الى باعة الملابس المستعملة (الننگات) ما بين سينما الرصافي وشهرزاد وبين سينما الحمراء وميامي، يتلاحم رنين الجرس المعلن عن بداية العرض مع رنين صوت سعدي الحلي (جوزي قميصه). (زيدون) اشترى قميصاً سمائياً وبججة ان يجرب قياسه لبسه بعدما نزع قميص وبيرية الشرطة ليتحرر من عيون إنضباط الشرطة والجيش. ها هو الان نصف مدني ونصف عسكري، يحمل كيس نايلون أسود أخفى بداخله نصفه

العسكري، ويهّمُ سريعاً للخروج من باب الشرقي الغاص بالشبهات وصيت بارات العرق الثملة بالمشاكل، بارات تثبت نفاطات السجائر بالمسامير فوق مناضد الشرب لإستفحال ظاهرة السرقة وتحاشياً من استعمالها كسلاح في العراق بعد نفاذ سلاح قتاني العرق والأقداح.

دخل شارع السعدون فاستقبله نواح عبد الحليم حافظ (معود معاي بالعذاب يا ألي) ، تنسكب أغنيته مع عصير البطيخ والمشمش والزبيب وقعقة زجاج الأقداح الطويلة الأعناق . تحسّر (زيدون) يرثي نفسه وهو يرى الشعر الطويل يهفهف فوق رؤوس الشباب (الخنفس)، وتلك (الزلوف) التي تشبه الفأس، شباب بقمصاتهم الضيقة وبنطلوناتهم (الجارلس) ذات الكم العريض، يراهم يتحارشون بالفتيات المحرجات من تنوراتهن القصيرة (ميني جوب) إذ لم تنفع العقوبات الفورية التي تمارسها الحكومة بمفارز تجوب شوارع بغداد: تحلق الشعر الطويل بما يسمونه (شوارع في الرأس) وتمزق بنطلونات (الجارلس) أو تقصها من القدم حتى الفخذ، وتصبغ سيقان الفتيات باللون الأسود.

(زيدون) يتحسر لأن إجازته ستنتهي بعد غد ولم يعثر على أخيه المفقود، سيلتحق بوحدته في (سوارتوكه) فوق الجبال، والرعب من هجمات (البيش مرگه) وقصص اختفاء الجنود والشرطة وأساطير الدببة. سيلتحق ويرى القرى المحروقة التي أشتعلت أمام عينيه، وهو ينظر إليها من فوق الجبل: يرى طائرة حربية تلقي براميل باتزين وطائرة أخرى تفجر البراميل. في كل إجازة يقرر زيدون الهروب وعدم الرجوع الى (سوار توكه)، لكنه يتذكر ما حصل للهاربين فيعود قبل انتهاء إجازته ويلتحق.

تحسر (زيدون) لأنه سيبقى شرطياً الى يوم القيامة، وها هو يتوغل في شارع السعدون وقد غابت الشمس فاشتعلت أضواء المحال المزركشة وتوهجت مصابيح أعمدة الانارة التي تحني بأدب جمّ الى المارة وهم يتمايلون بشعرهم وألوان ملابسهم الفاقعة، يتوقفون أمام محال تسجيلات الاغاني، يسمعون فرقة (البيتلز) وأفس برسلي، الذي تسميه أمه (أرفس برجلي)، تذكرها وتذكر اخاه الذي بحث عنه في مركز شرطة الثورة ومركز شرطة التهذيب وسينما غرناطة والخيام، فلم تبق إلا سينما سمير أميس التي تعرض فلماً لا يستهوي أخاه المفقود، لذلك تقدم الى شارع أبي نواس واندس في بار لا يعرف اسمه، كرع ربع عرق وعاد الى البيت ممواً رائحة الخمر بمضغ حبة هيل وأعواد كرفس، يتصنع الصحو لكنه ظل يتقياً حتى الصباح.

كما رجع (عبودي) منهاراً بعدما تقطعت قدماه من المشي وأنفاسه من اللهاث، إذ إخرق سبع قطاعات يواكبه غبار خيال يهتز بمصير أخيه المفقود، يفكر بهذا التشابه اللامعقول: تشابه القطاعات، تشابه البيوت، تشابه الشوارع، تشابه حدائق الخروع والسيبان وتشابه المصائر.

رجع من بيت صديقه الذي له عم يعرف أحد أقارب زوجته، وهذا القريب - اذا وافق - سيطلب من جاره أن يكلم أخاه مفوض الأمن بالبحث في مديريةية الامن العامة عن معتقل اسمه: خضر جابر عيسى صويلح، لكن صديق (عبودي) تلفت (٣٦٠) درجة وهمس بصوت مرتجف:

- مفوض الأمن معتقل لأنه أعطى أحد الموقوفين لباساً داخلياً.

بقيت (سلامه) مثل بلاع الموس، تفضح نفسها إذا بكت وحزنت، وهي لا تريد ان يشكّ بها أهلها، وتخنقها العبرة وتغصّ بدموعها إذا سكتت وتصرفت بشكل طبيعي لا أبالي. لذلك لجأت الى حيلة البصل حيث تخفي دموعها بتقشير البصل، حتى امتزج غياب حبيبها برائحة البصل، وابتعد عنها أفراد عائلتها وصديقاتها لتدفق دموعهم فور الاقتراب منها. (سلامه) تفوح برائحة البصل الذي جعلها تطمئن على حزنها وتعانق رائحة فقيدها الحريفة.

- ٣ -

من أي مصيبة شمطاء يتدفق هذا الحزن على أمي؟ أم تراها تتنبأ وتشمّ كوارث آتية، تتلمس طريقها ألينا؟

عندما أدخل البيت وأسمع نحيبها كأنها الخنساء ترثي أخاها صخراً، تدلني عليها زفرات النشيح فأجدها منزوية بين محمل ناطحات الفراش وبين دولاب يضم أشياءها ومواعين الفرغوري، أرى دموعها تتسابق في اولمبياد الكرب الاعظم وهي تنكش وتداعب بأناملها الأعشاب اليابسة: حرمل وسعد ومحلب وجذور بخور مع أعشاب أخرى لا أعرفها، أقول:

- ها يمه خير؟

ودائماً يبقى سؤالي المسكين معلقاً تحت رحمة سياط الدموع وسفع الاتين، فيسقط السؤال مغشياً عليه بلا جواب، وإذا أشفقت عليّ تقول، إنها تذكرت أباهها أو أمها أو أحد اخوتي الثلاثة الذين ماتوا قبل ولادتي. ألا إني لم اقتنع مرة واحدة بأجاباتها القليلة النادرة والمبتورة.

أعتقد أنني خبرتُ حزناً كهذا منذ نعومة دموعي: إنه حزن مجهول الهوية، تبدأ غيومه تتكاثف وتتجمع فوق رأسي ثم تزخها بأمطار حزن لا أعرف كيف تفاديها والفرار منها، أو تتكسد الأحزان مثل مياه جوفية في جسدي تسللت بغفلة مني، تظل محصورة تحوص وتبحث عن منفذ رخو فتنبثق من موقي عيني، تنقع لي خدي وصدغي وتبلل المخدة واللحاف.

الحزن دائماً شتائي لا علاقة له بالصيف، لأن الجسد في الصيف كله يبكي بدموع العرق. ربما أبكي على وجودي الغامض، الذي شعرت به دون علم وفهم وبلا إكتناه، من خلال حشد من الكائنات: أبي، عمومتي، إخوتي الكبار، الجيران، كلهم مدفونون في اجسادهم يعيشون بلا حياة حتى يطويهم التراب، أنا واحد منهم، كيف أشدّ عن ناموسهم وما الذي يميزني عنهم وأنفرد بوجود يخرق العدم والفناء فلا أفطس مثل كلب ممزق على حافة الطريق؟

هكذا أتلفع بحزن بهيمي ونكبة غريزية توحى الي: انني لا أعرف لماذا أنا موجود وما الذي سأوول اليه مثلما أرى بكاء الحمار والحصان والجمل، كائنات حزينة بغموض يفتّ القلب، خاصة الحمار فانا مشدود أليه بعاطفة أقرب الي الحبّ من الشفقة. لأنه حيوان منبوذ مهان

مزدري، وهو لا يعرف لماذا وأي خطيئة ارتكب؟ ما يحيرني أكثر في شخصية الحمار هو نهيقه، صوت ملتبس عليّ لا أفهمه: بوق نواح موغل برثاء نفسه والإشفاق على جنسه وأجناس الحيوانات ومخلوقات الكون، انه يبكي، كله يبكي من حوافره الى ذيله الى بوزه، يبكي بنواح كاريكتيري وبنشيج منفر، وصوت وقعه عجيب ومباغت، فالنهيق من ناحية: يلهج بأسى ولوعة قديمة خالصة البهيمية، طاغية الشقاء والاستفهام كأنه يتساءل: أهذه حياتنا فقط وذاك موتنا الذي اراه شاخصاً أمامي، وينتهي كل شيء؟ ومن ناحية اخرى: هو نهيق لجوج، يلحُ برغبة حمقاء في النكاح ونزوة مزعجة. ألم يكن من كلا الناحيتين محقاً؟

اعترف بأنني لم أفهم مطلقاً سرّ النهيق: هل هو نداء الغريزة أم جعير يختصر مأساة الوجود، فهل حزني وحزن أمي مثل حزن الحمار؟

إن مشكلة البشر الفاقعة والخائقة والطاعنة في القدم: انهم يتناسخون معرفتهم، تتناقل من جيل الى جيل فتصبح معلبة في ثلاجة التقديس، لا يجروا أحد على دحضها ومخالفتها، لذلك بقيت وصمة الحمار بالغباء والحمافة، سارية المفعول تتوارث أباً عن جد. بينما الحمار المسكين اذكى جميع الحيوانات ويعرف الطريق لمجرد مروره فيه مرة واحدة فقط، وتسير الحيوانات خلفه ايام زمان عندما كانت وسائل النقل مقتصرة عليها. والحمار مرهف الحس شديد الكبرياء، إذا أهين يحرن ولا يتزحزح ولو بالضرب الممضّ القاسي، لكن ضراوة ووحشية الضرب تجعل جسده يخونه فيمشي. مثلما يحدث في احتفالات التعذيب والاستجواب في أقبية وطوامير الأمن العامة والاستخبارات والمخابرات. إعتقلوا صديقي (أوميد) الذي كان يحدس مصيره بالتمارين على "بطل" الببسي كولا، استقبلوه في مديرية الامن بالعصي والكيبلات والتعليق في مروحة سقفية، لكنه قاوم هذه المقبلات لوجبة التعذيب، قلعوا أظافره ورشوا في مكانها الفاجر خلاً وملحاً ولم يعترف على نفسه وعلى أصدقائه، أجلسوه فوق بطل الببسي كولا المكسور الفوهة، فتمزق لحمه وشاغت روحه، بدأ جسده يضعف وتنهار قلاع صموده واحدة تلو الاخرى. وهنا لم يتدخل المخرج ولا أشار لهم بالتوقف، لأنه مخرج حياتي لا حياة غيري، ربما مخرج حياة (أوميد) سادي، يتمتع بدراما ورطة الجسد وينتظر ذروة الصراع بين الخيانة وبين وفاء الصلابة والجلد، أو ربما هو مخرج غير مكترث بمعجزة الفن. انهارت آخر قلعة في جسد (أوميد) حين جرحوا خصيته ودسوا سلك كهرباء في عمق الجرح، تتصاعد فولتية الكهرباء كلما يسكت وكلما يفيق من إغماءة حتى خانه الجسد وراح لسانه ينطق تلقائياً رغم أنف العقل، وذكر اسمي أثناء فيضان هذيانات اللسان. لقد تجاوز حدّ الاحتمال وعبر برزخ صدمة الموت، خانه جسده لينقذ نفسه فغريزة البقاء أهم وأعمق من أي معتقد وفكر. خانه ليحافظ على ما تبقى من جوهره الحي.

أضحكني (أوميد) عندما التقينا في المعتقل، بعد إنتهاء حفلات التعذيب واكتمال سقف التحقيق الذي يخرّ منه الدم. كان جسده مثخناً بجروح يفوق عددها أسماء الذين إعترف عليهم، ووجهه يتكسر الى شظايا ألم مكتوم وعينه اليسرى تدمع، وهو يهمس لي حكاية إعتقاله وتعذيبه، وأشار الى صبي عمره حوالي اربعة عشر عاماً كان يصلي، قال بزهو: اسمه كميل، هو أصغر وأصلب معتقل هنا في مديرية الامن، تصور في كل مرة يرجع فيها من غرفة التعذيب، وهم يسحلونه في الممرات، ينتقي قطف سيجارة لا يزال فيها نصف روح من الدخان، يجرها بقدمه والدماء تسيل منه حتى يوصلها هنا إلينا، رغم انه لا يدخن .

أضحكني (أوميد) حين قال: تشنُّ السلطة كما يقال حملة على الشيعة والاكراد والشيوعيين، فكيف بي وأنا شيوعي وكردني وشيوعي؟.

ثم تحامل على ضجيج آلامه وبالكد مسح بكفه عينه اليسرى، وهمس لي بأني سيطلق سراحي، لكنه لم يهمس لي بانه سيموت.

(أوميد) متعلق بأمه كجنين في رحمها، وهي متعلقة به كأنها حامل، يقول: كنت أنام في حضنها وأنا بهذا العمر، الحزن لي وحدي دون إخوتي وإخواتي، تداعب شعري باناملها حتى اغفو وأحلم، الان اكتشفت سرّ انجذابي اليك، أشمُّ فيك بعضاً من رائحة أُمي .

وأنا عكس أوميد تماماً، أنا الوحيد من إخوتي وإخواتي لا ألمس أُمي حين يصرعها الم الصداق النصفى وحين تنهشها مخالب الروماتيزم ، حتى أخزنتني أمام قلبي وأمام الجميع في واحدة من إحتضاراتها المزمنة، وهي تصارع أوجاعها، ونهرتني معربة عن شكها وريبتها من محبتي وعطفي عليها:

- ولك يمه أنا نكسه... تخاف تمد ايدك عليّ؟

بينما كنت أتحرق الى لمسها وتديك مفاصل قدميها ويديها، لكنني لا أجرو، وأتهيب من مسّها لقداستها عندي، أتملّخ من وجعها ومن رعونتي في عدم الارتماء في حضنها والصراخ بدموع طفل تائه: آخ يمه... أنا أخاف عليك من يدي النجسة، كفيّ لا تمس عزيزاً عليّ إلا وكسرتة.

هل في تصرفي هذا صلة بعدم تصديقي للواقع، أو علاقة بفقدان المعقولة به فلا أصدق

ما يجري ويدور أمامي تصديقاً خالصاً صافياً من كل لبس وخيال؟

ما حدث لصديقي (أوميد) وليّ هو لقطة سريعة وعابرة من حلم حياتي الطويل. إذن كيف سأخرج لو دخلت الى بحيرة ضيم أُمي، أُمي التي إذا مرّ يوم رائق، شفيف لا تعكره دمة ولا تعبته غيمة حزن، يوم متألّق، خالٍ من ندبة كرب أو لطخة مأساة ، تظلُّ أُمي متوجسة من هذا اليوم، تخاف وتمسك قلبها لئلا يكون بعد هذا اليوم أشرا لا يام طراً، وتبقى فريسة للقلق، متطيرة بهاجس منذر غادر من الغد، لا لشيء سوى انه يوم أفلت من طقس الفجيرة المعتاد؟

وأنا لا اتذكر اُمي بغير ملابس الحداد، كيف سأخرج لو ورثت عنها جينات الضيم هذه؟

سألني أوميد: هل تتخيل أن تلتقي أُمي وأمك، تمام الواحدة جنب الاخرى مثلما ننام انا وانت الان في هذه الزنزانة، وتتهامسان عني وعنك في حديث طويل يمتد حتى الفجر، ترى ما هو إنطباع امك عني وانطباع أُمي عنك، من ورط من؟

أجيب: نحن ورطنا أمهاتنا ألعن ورطة.

- أوميد انا مستغرب وحائر من هذا الضحك المتهور الذي يهجم علينا هنا ونحن في قعر جهنم الدنيا، ضحك يشبه ما يحدث في درس عصيب في المدرسة والمعلم صارم لا يتفاهم، ضحك

نخنقه ونكتمه فيزداد ضغطه وقوة احتباسه حتى نكاد نفشل في كتمه وأخاف ان نفجر ضاحكين كالمجانين، نحن نضحك هنا اكثر مما في الخارج.

سكت أوميد وغاب عما حوله غاطساً في بئرنفسه حتى خرج علي بصوت عذب ملتاح، ظل يهمس في اذني مثل دفق شلال بعيد حتى غفوت ونمت ولم أدري ، يتكلم عن حب هائل يشبه المعجزة، حب طوفاني مترامي الأشواق، كأنه يترجم حبي لسلامه قبل وبعد معرفتها:

(أوميد) قبل إعتقاله كان قد دخل عصر الحب، يعني بلوعة واحتضار الى حبيبة تركته مسجى فوق غيمة الفراق والهجران، وهو لم يعرف هذه الحبيبة بعد ولم يتخيل رشاقة قوامها وجسدها ولا لون بشرتها أو ملامح وجهها.

يبكي بصدق نظيف ناصع الطهارة، يحسده عليه مجنون ليلي ويشفق عليه روميو. أوميد متيم بحب لا أحد، يعشق كل فتيات الارض، كل الجنس الانثوي، لكنه هائم بحب لا أحد، حبيبته مفترضة، غائبة لم تخلق بعد. كل من يراه يشخص علته: مريض بالحب. ويتساءلون من هي حبيبته وأين، يا ترى من تستحق كل هذا الشوق الماوراني، كل هذا الحب البركاني. أوميد ذاته لا يعرف هي من وأين تسكن، ومتى شغف قلبه بها؟

أوميد غارق طامس في حب لا أحد. وأول أعراض الإصابة بمرض الحب هو الغناء وكان يعني حالما يتخلص من عقدة وجود الآخرين وخاصة في الحمام، إذ غالباً ما يدخل الحمام ليزيل وسخ الهموم المتكدسة على قلبه الغض أكثر مما يزيل أوساخ الجسد.

أوميد يحب لذات الحب، كذلك غناؤه يتفايض لذات الغناء.

استيقظت من النوم فوجدت (أوميد) نائماً حالماً يرفرف فوق وجهه طيف الحب. بينما تذكرت أمي، لا بد أنها الآن سوت بيننا أعراس ماتم وحياتنا جنة مناخة طوال ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً في مديرية الامن، متهماً بالشيوعية وحزب الدعوة ومناصرة الاكراد، متهماً في قضية ورد إسمي فيها سهواً أثناء هذيانات الجسد تحت التعذيب.

كرش الجيش

في منطقة دكان كشكول في قطاع (٣٣) لم يسمع أحد من الجيران زعيق الططوة فوق بيت شرطي المرور جابر حين اختفى إبنهم (خضر قد) أبو لسان المكسور، ولم تسمع (سلامه) تعويذة (سجين وملح) في أي مكان، رغم ان جسدها تشكّل على هيئة أذن تنتصت الكلال نامة في بيت جارهم. وبعد اختفاء حبيبها مدت مجسات لا مرئية تلتقط جميع الأصوات والآهات والأنات، جالسة مصغية تنتظر هسيس خبز قد يندلع في أية لحظة. جالسة تحفّ بها هالة البصل، ترثي نفسها داخل دوامة من الإشفاق على الذات: تركت دراستها الاعدادية في العمارة حين أرغمها أهلها (البنات للزواج حتى لو صارت دكتورة) بعد اسبوع فقط من إعلان الخطوبة لأبن عمها الذي لا تطيقه. انتقلوا من العمارة الى بغداد قريباً من بيت الزوج المقبل.

البنات عكس الاولاد المتذمرين من المدارس، فالدراسة عندهن الباب الوحيد المفتوح في سجن الواقع، المسكينات حتى في طفولتهن محرومات من اللعب مثل الصبيان، الذين جعلوا مراتع اللعب تبتلع الرحلات (مقاعد الدراسة)، لأن الرحلات فيها مسامير كثيرة تخز مؤخرات وأقنية الطلاب، مسامير تنطّ من الخشب برؤوس مدببة تدمي جلدوهم: مسامير الخوف الغامض والمتعدد الرؤوس، والخوف من عصا المعلم ومن الصفع والرفس. مسامير العبت والسخرية من المستقبل طالما الجيش يطاردهم حتى لو نالوا شهادة الدكتوراه، لا يفلت عراقي من البسطة والبيرية، مع مسامير الجدية الخائفة التي تجثم على صدر المدرسة، ومسامير كثيرة واخزة لا ترحم وليس لها أسماء.

وها هو (ميري) يقف قرب دكان كشكول يفكر في عذر جديد وحجة لم تخطر على بال، كيلا يداوم ويذهب الى سجن المدرسة، ما الفائدة من ذهابه بلا عقل وقلب إذ حالما ينطق مدرس القواعد (كان وأخواتها) يطفر قلب (ميري) الى حبيبته (لندن) وأخواتها، يتمثل (لندن) بسوادها اللامع، يتلمس بشرتها الأبنوسية، يغوص بليل جسدها واسرارها. (ميري) يحفظ كل أشعار ألف ليلة وليلة ويحفظ قصائد عنتر وعبله بينما لم يحفظ بيتاً شعرياً واحداً من كتاب النصوص المقرر للمنهاج الدراسي. انطلق (ميري) يتغنى بسواد حبيبته (لندن) في محافل العشاق وحفلات الأعراس حتى دوخ معظم شباب الثورة وارغمهم على حفظ وترديد هذا البيت الشعري: الناسُ تعشق من خال بوجنته/ فكيف بي وحبيبي كله خال.

وحده (كريم كشكول) من بين ربعة إجتاز مسامير الدراسة وظلّ اصدقاؤه راكسين يراوحن في وحل الرسوب سنة بعد سنة حتى تركوها بلا رجعة، وانفتحت أشداق عفريت الجيش، يبتلعهم واحداً تلو الآخر أما متطوعين رغم انوفهم هرباً من الخوف الى قلب الخوف، ومن وساوس الانتظار وإقتراب وحش الجيش منهم حال بلوغهم سن (١٨) عاماً، مع كومة أسباب أخرى أهمها مساعدة أهاليهم في لقمة العيش. ولأن الخدمة العسكرية طويلة والتسريح يشبه المعجزة. تطوع (ناصر نابت) الى صنف المخابرة واللاسلكي، وكان آخر المتطوعين في عائلة شرطي المرور جابر ابنهم (عبودي)، الذي تطوع الى صنف الهندسة العسكرية وأبلى بلاءحسناً وشجاعة لا يشق لها غبار في الحرب العراقية الايرانية، عندما كانوا يزرعون

الالغام و(عبودي) بصفته (لغام) الوحدة، كان يرفع الصاعق من اللغم فيبقى مجرد حديدة ميتة مدفونة بالارض. ولم يطلق رصاصة واحدة باتجاه العدو. ولم يفكر وقتها بالجوء الى ورش العوق التي انتشرت في شارع (مريدي) أحد كواليس الحرب، ورشة لبتن الأصابع خاصة إصبع السبابة والابهام من الكف اليمنى فيصير الجندي (غير مسلح) وينجو من الموت في جبهات القتال، ورشة لكسر اليد اليمنى، ورشة لكسر أحد الرجلين، ولكن أبشع هذه الورش هي ورشة قلع العين.

هنا خرجت سلامه من صفنتها وتفكيرها الغارق بالإشفاق الذاتي: الزواج بالنسبة للفتيات هو نوع من الخدمة العسكرية، لا تفلت أي بنت من هذا القدر، بعضهن يتطوعن للخدمة الزوجية والكثير منهن يجبرن على اداء عسكرية الزواج. الجندي ربما يتسرح بعد طول انتظار او يتقاعد أو يتعوق، لكن الفتاة لا تتسرح أبداً من الخدمة الزوجية إلا بالطلاق أو الموت، الجندي ربما يهرب اذا سئمت له فرصة ومكان يأوي إليه، فالى أين تأوي الفتاة اذا هربت من الخدمة الزوجية؟

- ٤ -

إعتقلوني وأنا على وشك تحرير فلسطين، كل فلسطين، من البحر الى النهر، إذ تمكنت من سكان تل أبيب وباقي المدن الاسرائيلية، جعلتهم يغطون في سابع نومهم، وكذلك نومت الفلسطينيين تحسباً من العملاء والجواسيس وتجار السياسة، وتحاشياً من إستحواذ راكبي موجة التحرير للاستفراد بالسلطة، وخوفاً من البطش الثأري بالاسرائيليين وحدوث مجازر أنا في غنى عنها . نومتهم بمستحضر عثرت على وصفته في (عگرگوف) بمحض الصدفة أثناء سفرة مدرسية للتعرف على شواخص الآثار، كنت جالسا تحت ظل (عگرگوف) وحدي بينما الطلبة يمرحون ويلعبون فوق الأعشاب، إنبتق جرد من أحد الثقوب يعض بين أسنانه سويق بردي أو قصب لا أدري: الجرد كأنه يضحك وهو يعضّ السويق فضحكت بوجهه لكنه نفخ عليّ وقذف صوبي ذلك السويق. إنتشلتته وعابنت ألوانه وكانت عليه خربشات قال عنها أستاذ التاريخ بعدما سلمته إياه، وبدوره سلمه الى (طه باقر) ثم رجع اليّ على شكل ورقة رسالة داخل مطروف وكيس منتفخ:

نشكرك على هذه اللقبة وعلى حبك لآثار بلادك، وهذه الترجمة الحرفية لوصفة النوم الطويل، ونهديك تقديراً وكل مواد الوصفة في هذا الكيس. صديقك الطاعن في السن... كوركا...

يقول استاذ التاريخ:

- هذه قطعة صغيرة من مدونة كيشية أخذها عالم الآثار الماني، ترجمها لك (طه باقر) وكلفني أن أوصلها لك مع هذا الكيس.

احتفظت بالكيس ليوم فاصل كهذا اليوم، حيث أعددت المستحضر المنوم والمغذي طوال فترة السبات، رششت المستحضر في خزانات مياه الشرب على امتداد فلسطين، كل فلسطين من البحر الى النهر، وأشعلت كل ما تبقى من المنوم كبخور في الشوارع والأزقة والساحات، ينام كل من يستنشقه خلال ربع ساعة. ولكن قبل عملية التنويم الشامل وبينما كنت أسير في مقبرة الشيخ عمر، بطريقي الى المسرح الجوال (مسرح الخيمة) حيث أمثل دور المركيز (دي صاد) في مسرحية (مارا صاد) لبيتر فايس، طلع من بين القبور رجل هو بين مجنون ومتسول ومتصوف، قال مُبتسماً ببراعة ماكرة:

- اعطني سيجارة وخذ مخلب القط فلا يراك أحد.

اعطيته سيجارة سومر ومضيت، فقبل ايام قلائل بدأت بالتدخين، لكنه لحقتي ووضع بكفي شيشة زرقاء بحجم قطرة العين، وشدّ على كفي بكلتا يديه ثم توارى بين القبور. عاينتها بفضول محايد ولم أتذكرها الا بعد رجوعي للبيت، نزعت البنطلون ورنّ سقوط الشيشة على الارض، تذكرت شخصية الشيخ الذي اعطانيها، وبذات الفضول المحايد، فتحت غطاء الشيشة وسكبت قطرة فوق ظاهر كفي، كان السائل أزرق بلون الشيشة، إنساحت القطرة منتشرة فوق كفي بسرعة مذهلة حتى غطت يدي وكتفي ورقبتي وصدري ورأسي. بدأت أنامل كفي تختفي وتتحسر يدي عن الرؤية والوجود، تغيب شيئاً فشيئاً من الرسغ الى الزند الى كتفي، والسائل الأزرق هبط منتشراً حتى قدمي، فلم أعد أراني تماماً وأنا مذهول مسحور، قلت فالأجرب إختفائي بين أهلي كي أصدق. دخلت غرفة العائلة، لم يلحظني أحد ولم تسألني أمي عن العشاء، حركت شمعة الملابس، لكن لم ينتبه أحد، شددت شعر (محمود) فالتفت الى (عبودي) الجالس قربه وضربه. عندها فطنت الى لعبتي الخطرة فقد يرتعبون وربما يتخبل واحد من عائلتي لو تماديت بلعبة مزاح الأشباح. أيقنت اني غير مرئي حين سألت عني أمي وأنا واقف أمامها:

- يمه خضر موهسه إجي... نام لو طلع؟

وفوراً تناوشت المستحضر المنوم والمغذي وسافرت الى فلسطين، وأصبح كل شيء تحت سيطرتي حتى الأسلحة النووية بينما سكان فلسطين وحيواناتهم وطيورهم نائمون، لكن رجال الامن إعتقلوني أمام مكتبة (العباس بن الاحنف) قرب سينما الرافدين في مدينة الثورة، الساعة السادسة مساءً، وانقطع حلم تحرير فلسطين من النهر الى البحر.

بعد ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً قذفوني من سيارة وأنا معصوب العينين بخرقه سوداء. من شدة هلعي لم اجرو على رفع العصابة من عيني إلا بعد مرور وقت طويل وسماعي نباح كلاب بعيد، وهواء طازج يلفح وجهي غير هواء زنازين الامن الراكد الفاسد المعاد، والمشبع بالدسم البشري، هواء تعط منه رائحة الفناء والسلخ. والآن أستنشق هواء الله وامتلأت رنتي ومساماتي بعري الفضاء، قفزت مذعوراً لسماع جلجلة تقترب، قطارٌ مرّ بقربي لطمتني ريحه فرفعت الخرقه، ورأيت قطاراً طويلاً... طويلاً بطول مصران حلمي الأعور.

فات القطارُ ونهضت أتلقتُ أين أنا، إستدرت وكان هناك من بعيد مصابيح سيارات تومض خطفاً. مشيت صوبها واكتشفتُ فيما بعد اسم هذا المكان (أبو دشير) وراء منطقة الدورة.

كنت الوحيد الذي أطلق سراحه في قضية صديقي الكوردي (أوميد)، ولم أفقد إصبعاً ولا عيناً سوى بعض الرضوض في ساقى وانخلاع في كتفي، كدمات وأورام في وجهي وجسدي وسقوط ثلاثة أضراس.

الوحيد كما كنت الوحيد الناجح في امتحانات البكلوريا للسادس اعدادي في ثانوية الوعي الثوري، كم هو قبيح هذا الاسم مع كومة أسماء بشعة ابتدعها قاموس حزب الطبر العربي الاشتراكي.

أمحفوظ أنا حقاً؟ الكثير من زملائي في الثانوية وفي المنطقة أhalوا قضية نجاتي من براثن الامن الى الحظ، وأي حظ، انه رباني نزل عليّ من السماء. فعلاً، لهم الحق في هكذا قول، فمن يدخل في حلق الأمن لا يخرج إلا ميتاً أو أcha الميت إذ يصيرُ خطراً وعالة على اهله: أما مجنوناً أو معاقاً جسدياً ونفسياً، وما يجره من ويلات المراقبة والاستدعاء لأهله.

قلة نادرة هم الناجون وأنا واحد منهم، وكذلك نجاحي في بكلوريا السادس رغم دراستي المسائية وهوسي بالمسرح والفن. أحاله اصدقائي الى مجرد حظ (شرفص) ، لكنهم لا يعرفون ماذا ينتظرنني من أهوال دعست الاخضر واليابس ورفست كل ميزان يقيس ويفرز المنطق من الخرافة. أهوال أرغمت الجنين على الارتداد الى رحم أمه مذعوراً حين يخرج رأسه ويرى الواقع، حيث الميت هو المحفوظ الوحيد، فكم غبطت وحسدت أصدقائي الموتى.

هناك سرّ صغير يلخص كل قضية إعتقالي، سرّ يجهله الجميع بما فيهم أهلي. سرّ لا علاقة له باعترافات صديقي (أوميد) وذكر إسمي، وليس له علاقة بمراقبة رجال الامن لي منذ إدعائي الجنون، ولا يمت بصلة الى الرفيق (موحان) وتحقيقه معي في شعبة الثورة، كذلك لا توجد علاقة له بأصدقائي الذين اختفوا بطوامير الامن، ولا لأنني مشاكس وأتعارض بالمحظور والممنوع. يكمنُ سرّ اعتقالي في قميصي الجوزي، الذي اشتريته مثل جميع ملابسني من بالات الملابس المستعملة في باب الشرقي، هذا القميص الجوزي اللعين يوم لبسته أول مرة، قَتَلَ صديقي (صباح) أمام باب دارهم إثر تبادل إطلاق رصاص بين رجلين. في المرة الثانية من لبسه أحترق بيتنا بسبب شرارةٍ افلتت من فتحة التهوية الصغيرة للتنور الطيني، بينما اهلي لا يعرفون: ان قميصي الجوزي هو السبب. وفي المرة الثالثة من لبسه ألقوا القبض عليّ أمام مكتبة (العباس بن الأحنف).

هل هناك مجال للصدفة في كل هذه الاحداث... آخ كم كرهت اللون الجوزي، والمصيبة البهلوانية حين اكتشفت بعد سنين طويلة في سجن ابي غريب/ قسم الخاصة، إن لون ملابس المساجين هو اللون الجوزي، يسمونه (كانه)، فأي قدر جوزي يطاردني؟

البقية في عياشك

(أوميد) لم تنفعه تمارين بطل الببسي كولا ، كلها ضاعت سدى، راحت بولة بشط كما يقول المثل ، كذلك ضاعت جهود أبيه والمعلمين القساة في اجتياز امتحانات بكلوريا الرعب. فمعظم الآباء والمعلمين والمدرسين كانوا يستشرفون ضراوة المستقبل ، ويحدسون ما تنطوي عليه الايام الآتية ، لذلك أدخلوا الابناء والتلاميذ في دورات تمهيدية لتحمل الألم والقهر والاهانة . الآباء يفتلون وايرات الكهرياء (سلك مضافور) وينهالون على أبنائهم حتى تتسلخ جلودهم .

وحين يدقُ الجرسُ في المدرسة يدخل التلاميذ الى الصفوف ، وتخرجُ ذنابُ المعلمين من غرفة الادارة ، يخرجون بوجوه صارمة جهمة ، تتراقص شواريهم المرعبة ، كل واحد منهم يحمل عصا تختلف عن عصا الاخر ، كل عصا تمثل شخصية المعلم . يدخلون الصفوف فتبدأ عمليات الاستجواب والعقاب، كم من تلميذ تبول على ملابسه من شدة الخوف وبعضهم بالغوا في خوفهم وفقدوا السيطرة على اجسادهم فتغوطوا داخل ملابسه .

هكذا دخل الابناء والتلاميذ دورة تأهيل نفسية وجسدية لمقاومة تعذيب أجهزة الامن والاستخبارات والمخابرات . كان الآباء والمعلمون متنبئين ، يسبرون القادم ويشقون بطون الايام الآتية ، وشكرهم جميع من دخل غرف التعذيب، شعروا بالامتنان والعرفان على تلك الدباغة الجسدية والنفسية منذ نعومة جلودهم ، شكرهم على الترييض واشباعهم بزيادة العذاب .

يعترف (أوميد) بفضل ابيه والمعلمين والمدرسين إذ لم يبخلوا باي طاقة وخبرة لكي يجتاز امتحانات بكلوريا التعذيب والرعب ولكن ألوان وفنون التعذيب في مديرية الامن لم تخطر على باله ولم يسمع بها ولا كانت من الدروس المقررة في المدارس والبيوت . أبوه والمعلمون يخافون على مستقبله فيضربونه ، يريدون أن ينفع نفسه وأهله وبلده بينما رجال الامن ينتهكونه ويجبرونه على خيانة نفسه وأهله وبلده، لذلك نجح في امتحانات بكلوريا دراسته وسقط في امتحانات بكلوريا مدارس الأمن.

أوميد لا يعرف لماذا عزلوه عن (أبناء دعوته) الذين إعترفوا عليه والذين اعترف هو عليهم أثناء هذيانات جسده ، عزلوه بعد شهر من إكمال سقف التحقيق وانتهاء ايام قيامات الاستجواب، بالضبط بعد خروج صديقه (خضر قد) الذي كان المتنفس الوحيد له بين الغازات الخائفة والسامة هنا. وضعوه في محجر إنفرادي ضيق يشبه الرحم فتفاقت عليه ضجة آلام جسده وصخب جروحه، كل عضلة راحت ترتجف وتعزف لحن وجعها منفردة حيناً، وتشارك مع بقية عضلات جسده بعزف جماعي حيناً آخر، تتصاعد كلها داخل اوركسترا الوجع العظيم. عينه اليسرى تهمل بدمع لا سيطرة له عليه، يسيل بغريزة طبيعية كأنه نبع في جبل (مطعون) في متاهات كوردستان. يغوص (أوميد) بين طيات كينونته في لحظات خفوت ضجيج الألم ، يتمنى ان يكون كلباً ضائعاً بين قرى ضائعة في شعاب وديان ضائعة لا يستأهل حجراً يرمى عليه . تمنى آلاف الأمنيات وكان اعزها واقربها لنفسه ان يكون حصوة غائصة مع ملايين الحصى ، مكتفية بذاتها ومنطوية منكورة على نفسها لا يدخل اليها شيء ولا يخرج منها شيء، حصاة مستقلة بتفرداها مندغمة مع ملايين الحصى بنفس الوقت، حصوة لا تعرف

ماهيتها وليس هناك من يحاول كشف سر وجودها من عدمها. راح أوميد يتخيل رحمه الاول ويقارنه بمحجره الأخير هذا، الرحم الاول الذي انطوى فيه (أوميد) كان بلا ابواب ولا نوافذ تقريباً، عديم الظلمة والضوء، سجن أليف لم يشعر فيه بالوحدة وغصة المهانة عكس بقية السجون التي جربها جسده، سجون تتكرر فيها وحدته، وحدة مسننة تخترق جسده وروحه، وحدة مثل حشرة عملاقة بآلاف الارجل، نفذت وتسلفت الى داخل جلده، تدب وتنهش ما يصادفها في شبكات أنفاقه الداخلية، حشرة انبعثت الان وجاءت اليه هو بالذات من عصور الماموث والوبر والبهضم. وحدة تُكرّر نفسها باشكال مختلفة في المحاجر الانفرادية ذات الوحشة السرابية:

وحشة الطوامير بمجساتها الاخطبوطية التي تمتص رحيق روح الحياة. وهي وحشة مستغلقة وسرابية لا مخرج لها، يفقد فيها (أوميد) نفسه بموت حي، يتنفس ويأكل ويشرب ويغفو، انما يفقد نفسه بسهولة قدرية مثل المستغني عنها وبذات الوقت هو يستحيل أن يحيا بدونها:

هي وحشة فقدان المعنى بين كلمة يحيا وكلمة يعيش، فتأتيه أشباح المعزين يصافحونه: البقية في عياشك. ولم يقولوا البقية في حياتك. هولاء المعزون هم أيضاً فقدوا انفسهم من قبل وظلوا أشباحاً بلا راحة تحمل عطر الحياة، يدخلون من اللاشيء، ويقفون برتل طويل يصافحونه بكف باردة سرابية، ثم يخرجون الى كوة اللاشيء مثل دخان ميت.

سجن (اوميد) الأول جنة قياساً بجحيم حياته، جنة عدم لا تبرزها اي سعادة متخيلة، هو سجن يتكوّر فيه مربوطاً بحبل أخوي، حبل ودود لا يفارقه ابداً ولا يستطيع الحياة بدونه، لذلك أطلق (أوميد) صرخة ألم الفراق، ألم انتزاعه من سجنه الاول وألم قطع حبل العدم. وكان الذي كان.

- ٥ -

يا لعظمة الحياة، حين يكون الدليل الوحيد على وجودك هو الضرطة.

هذا ما حصل بالضبط وبشهادة الأحياء والأموات في مشرحة الطب العدلي، حيث الثلجات العملاقة لخزن الجثث والحفاظ عليها طازجة الموت لحين تسليمها لذويهم، بعدما يسجل أسماءهم معاون الطبيب (فرحان عاصي) ويثبت التاريخ والرقم وسبب الوفاة. وعادة ما تتم الاجراءات كيفما اتفق خاصة في مواسم إزدحام الجثث بعد هجوم كبير في جبهات القتال. وفرحان عاصي هو الاخ الاكبر للرفيق (موحان) الذي حقق معي في شعبة الثورة. (فرحان) مصاب بعدوى الموت، تشمع وجهه وجلده، قوام ذابل ومحني الظهر، صموت بسبب معاشرة الأموات أكثر من الأحياء، إعتاد على الجثث مثلما إعتاد على التدخين، يمرّ امامنا مثل شبح بلا سلام ولا كلام، كأنه يسيل لا يمشي. (فرحان) يكبرنا باكثر من عشرين سنة إذ تجاوز عمره الاربعين، وربما هو لا يعرفني رغم اننا في قطاع واحد ومنطقة واحدة، كما انني وكعادتي قد نسيت الرفيق (موحان) ونسيت أيام الاعتقال في مديرية الأمن لأنه مجرد فلم قصير، فلم دفنته في إرشيف أفلام حياتي، أفلام تهرأت مبعثرة تحت غبار اللامبالاة والاهمال،

إندثرت مع حيوات ذاتي القديمة لذلك الوجود الذي كنته، ونسيتها بعد أشهر قليلة من اطلاق سراحي. وها أنا اعيش حياة أخرى من ذاتي، ببشرة جديدة بلا ماضٍ ولا خبرة، لانه التفسير الوحيد لحماقتي وعودتي دائماً الى الصفر.

ها انا أمارس ذات الطيش والتحرش بالاطار، أشاكس وأنتف شوارب الممنوع والمحظور، من أعطاني الحق للاستهتار بحياتي، فكل أصدقائي الماشين على أرض الواقع: يس...يم ، يرون بأمهات أعينهم فوهات الخطر المسددة نحوهم، إلتحقوا بدون تأخير الى الخدمة العسكرية منذ بداية حرب الكلاب، ليس أمامهم خيار آخر: أما الاعدام بالرصاص وتغريم الأهل سعر الرصاص مع وصمة عار الهروب، وأما مراوغة الموت في جبهات القتال...

أنا لم التحق لأن قديمي بعيدتان عن أرض الواقع وأمقت الـ (يس... يم) وعيني لا تريان ما يرون حتى اني في ساحة (الميدان) قرب وزارة الدفاع، كنت مع (كريم كشكول) نتناول الفلافل في إحد المطاعم الصغيرة وارتجت الارض، تطايرت شظايا الزجاج واشتعل الفضاء بالصواريخ والمقاومات الارضية للطائرات. إمتد من في المطعم على بطونهم وكريم معهم وامتد كذلك جميع المارة في (الميدان)، وانا اركض خلف الطائرة المغيرة مبهوراً بها، فقد كانت واطنة جداً ولسرعتها لم ألمح منها سوى الذيل.

رجعت للمطعم وكريم كشكول يوبخني على فعلي المتهور هذا، لكنه لا يدرك طبعاً أي فيلم حياتي أعيش، مأخوذاً بشريط الحلم أو الوهم اكثر مما تشدني وتجربي الحقيقة الواقعة فعلاً، وما حدث توأ لم يكن سوى تمثيل في تمثيل.

بعد ستة أشهر من التخلف عن الخدمة العسكرية طوقني أبي برعبه من قسوة وشراسة الحكومة حيث الرصاص يلعلع خلف الفارين والمتخلفين، والتفافز من سطح لسطح والمطاردات من شارع لشارع، ثم ان (مكي) اخي الاكبر وهو نقيب في الجيش، يخاف من تهمة التستر على متخاذل جبان لم يهب ويلبي إستغاثة (الماجدات العراقيات!) و(الدفاع عن حرمت الوطن!) و(مقاتلة الفرس المجوس!). وأقنعني (مكي) واعدأ بان يسوي القضية بلا إعدام ولا سجن ولا عقوبة.

وهكذا وجدت نفسي أرتدي اقبح بزة في تاريخ الخلق منذ ورقة التوت وحتى بدلة رواد الفضاء، بزة حقيرة بلون خراء الكلب، وتنافس قبح اللون الجوزي الذي اورثني الصدا، بزة ارتديها قبل شروق الشمس في مطار سري وسط أرض بياب، ليست ارض قصيدة أليوت بل تفوقها خراباً، تقع في صحراء فوق اللطيفية، والمفارقة الحولاء هي وجود موقف سيارات صغيرة، سواقها يصرخون طوال النهار: مطار... مطار. هذه اسرارنا ترفرف دائماً فوق حبل غسيل نشرات الاخبار. لكنني تأرت لنفسي بقراءة الاخوة كراموزوف ولعبة الكريات الزجاجية وموبي ديك وصورة الفنان في شبابه ولحن كرويترز، ولم اقرأ رواية البعث، كرهتها من عنوانها، ولأن الجنود وضباط الصف لا يحبون أمثالي من القراء المنطوين، القراءة إهانة لهم: كيف افضل الكتب على مجالستهم والاختلاط معهم، وكنت على وشك الانتهاء من مسرحية (كاليجولا) حين انتزعني من الكتاب نائب ضابط لا أعرف اسمه، قال:

ملازم أول نجم يريدك.

وهنا بدأ فلم حربي إكتسح طاقم مخيلتي وجبروتها الموغل بالشطط والإسراف، فلم ليس من بطولتي بل أنا في دور ثانوي أخرق، فقد اصطحبني ملازم اول (نجم) معه في رحلة الى قلب الجحيم، طبعاً لا اعرف الى اين وجهتنا ولا اعرف لماذا أختارني انا بالذات ولا اعرف نوع المهمة الذاهبين اليها.

تجاوزنا مدينة العمارة ورف قلبى صوب (سلامه) وأنا أرى بعيني اغنية: مثل روجات المشرح/ ترف ضحكاتك الحلوة/ وألذ من الهوى العذري/ واعز من العمر وأغلى.

كم غاب عني وجه (سلامه) فلا استطع إمساكه، لقد استعصى على خيالي وذاکرتي وأفلت من قبضة عيني وقد أعيناني إستحضاره، وجه (سلامه) زبقي ينسل من بين أصابع ذاکرتي، وفشلت في أنتزاعه واضحاً جلياً من بين تزامم وجوه كثيرة تتدفق متداخلة، وتخّر في شلال وجوه الى سحيق النسيان. كم أحتاج أن ألوذ بعينها فلا أرى ما أرى:

مدافع عملاقة وادداس قنابل وحفر كبيرة في كل مكان تخفي أشكالاً قبيحة لسيارات واسلحة، وارى للمرة الاولى كل محافل الشر هنا، هل كل الحرب هنا وكل الجيش يدب هنا، اسمع رعداً بعيداً متواصلاً، الى اي جيثوم يقودني هذا الضابط الارعن وهو يمد رأسه بين الحين والآخر من شباك سيارة (الواز)، يسأل عن اسم ورقم وحدة عسكرية حتى وصلنا الى خنادق يتراكم فيها جنود بلا ملامح. أوقف سيارة الواز ونزلنا. دنا مني وصرخ بأذني ملازم اول (نجم) لأن اصوات القصف بمختلف انواع الاسلحة تتكسر فوق الهامات، قال: روح اسأل اي واحد تصادفه. ويضيع صراخه بين شدهي من جهة وبين فهقهات الحرب: إسأل عن جندي إحتياط اسمه عبد الواحد... ويضيع الصراخ المتبقي بانفجار مدو خلفنا، ثم توالى أمطار النار وانا مشطور نصفين: الاول يجذبني للإحتماء في جوف الواقع بينما النصف الاخر مذهول غائب عن المكان والزمان وجهنم، حتى عتني للأسفل جندي يعضّ شفته السفلى، سجدت على ركبتي خلف كومة متراس قرب هذا الجندي، ورأيت ما كنت اخشاه وتفرّ منه مخيلتي فزعاً: نافورات رمل تنبثق فجأة وتهمد مع كتل مشوهة وأشلاء تنفض دماً، ضاق عليّ جلدي، وتكزّ صريراً دوامة حصى تلتف صاحبة داخل رأسي. آخر شيء رأيت: ملازم اول (نجم) يركض بلا رأس ويتكوم مثل خرقة مبلولة. إنقطع شريط الفلم وسطعت أضواء كاوية حرقت عيني وخرقت جمجمتي .

صحوت على سرير وسخ داخل بناية المشرحة أو الطب العذلي، ويجلس أمامي معاون الطبيب (فرحان عاصي) على سرير مجاور، يغالبه الابتسام وراح يسرد عليّ الحكاية وأنا أرسم سيناريو المشهد:

كنت أنا الخفر ليلة البارحة، والجثث تحيطني من كل مكان لم تستوعبها الثلجات وكدسوا الفائض فوق النقالات ومناضد التشريح وفوق الارض، جثة فوق جثة، آخ.. رأسي متروس جثث، رأسي مكتظ بالجثث ... لا بل ما تحت جلدي لا شيء سوى الجثث.

وانا منكبّ فوق دفتر سجلي العملاق، أدونّ المعلومات المتعلقة بكل جثة . كنت وحدي وعفونة صمت تملأ رنة المكان، صمت أقبح من أي لغط، ودخان سيجارتي هو الحي الوحيد إذ يتحرك صاعداً متسللاً، هيباً من هذا السكون القاحل، فسمعت ضرطة أفزعنتي، أي نعم نعم ضرطة...

ضربة من طيز بشري حي، أصغيت بخوف مرح لعلها تتكرر، طبعاً أعرف نفسي: لست انا الضارط... ثم شممت سخونة رائحتها التي تختلف عن روائح الجثث. لدي خشم خبير في فرز الروائح وخاصة الروائح الحرارية، رميت قلبي فوق مقبرة السجل، ورحت أتحمس بكفي برودة الموت في الجثث وصوت الضربة يطن في اذني رنينها، رأيت جثة مغموسة بالدماء فلم أتعب نفسي في مسها وتفحصها، ولا داعي أصلاً لأختبارها.

كانت الجثة ملقاة تحت طاولة أدوات التشريح على جنبها الأيمن كأنها في حركة رقص حلمية، كفاها نصف مفتوحتين، قلت لنفسي: خسران شيء انا؟ ومددت كفي نحو البطن غير الملطخة بالدماء، سرت في كفي دفء حرارة فاتصعقت، جسست نبض الرسغ ثم الرقبة.

نسيت نفسي وركضت متلعثماً: هذا عدل... حي حي. رجعت بصحبة طبيب وممرضيين، فحصك وأكد لي بأنك حي تغط في إغماء طويلة، غسلك الممرضان من الدماء، وتبين انك لم تصب بأي خدش سوى هذه الكدمة الزرقاء في جبهتك، وكل الدماء التي تلطخت بها كانت من غيرك، فحملوك الى هنا فوق هذا السرير حتى تصحو، وأنا رجعت الى عنبار الجثث فرحاً مبتسماً، ساخراً من نفسي ومن عملي ومن الوطن والعالم والكون، ساخراً من كل شيء وأردد:

يا لحماقة الواقع وسخافة الوجود حين تكون الضربة هي دليل الحياة الوحيد.

رجعت الى قلبي وسجل الموت غارقاً بالجثث، ولكن ابتسامة هشمت تقطبية وجهي، وراحت تكبر وتكبر حتى ملأت كل وجهي، ولساني ينطق بصوت مسموع:

- يسويها البخت وأسمع ضربة أخرى.

حرب الكلاب

تفجرت الحرب في قلب (ساعة) أم ميري مثل فقاعة سامة وانتشر زعافها على العراق وايران، وتطافر رذاذ الفقاعة على دول الشرق الاوسط والعالم، والتي وسوف يسمونها (الحرب المنسية) لطول سنواتها وعبثيتها، لكنهم طوقوا نيرانها داخل حدود البلدين المتحاربين. (ميري) خدع امه (ساعة) خوفاً عليها من الجنون وعلى قلبها من التلف، جعلها تصدق وتطمئن انه في مدينة (مندلي) متخم بالفواكه وليس في قاطع (قصر شيرين). لكن قلبها لا يخدعها اذ بقي يرفرف مرتاباً، ظل يتقفى ويتلمس خطأ وحيدها (ميري) يمشي وراءه من مكان لمكان، يتشمم رائحة ابنها، ظل قلبها يتقلب مثل طفل مسموم انقض عليه الألم بكل قوته ولمرة واحدة والى الابد برغم أن (ساعة) اخفت فقاعة السم عن ابنها.

يجلس (ميري) الآن امام مقود سيارته الـ(ايڤا) يسير في طريق ترابي بسرعة حذرة وهو يصغي الى جندي الإعاشة صديقه، ينقلون مؤن الطعام الى سرايا الجنود في الوحدات الامامية من (قصر شيرين)، يسمع قصة حدثت هنا في قاطعهم خلال الاسبوع الاول من الحرب، وانتشرت القصة بسرعة انتشار أخبار خفايا الجنس واخبار هسيس الاعتقالات، تسربت من جندي الى جندي ومن بيت الى بيت حتى غطت سماء البلد بأقل من شهر: يقولون ان جندياً عراقياً هرب الى جهة العدو بلا سلاح ولا بيريّة، وأثناء نزوله في جدول يابس معشوشب، رأى جندياً إيرانياً ينزل الى الجدول من الجهة الاخرى مقابله بالضبط، إلتقيا وجهاً لوجه مضطربين خائفين، أحدهما يحدق بوجه الاخر، لا يعرفان ماذا يقولان. هذا تكلم باللهجة العراقية:

- أريد اسلم نفسي للقوات الايرانية.

وذاك تكلم باللغة الفارسية:

- اريد التسليم للقوات العراقية.

هذا يريد أن يقوده الى الجيش الايراني، وذاك يريد ان يقوده الى الجيش العراقي. وبعد جهد عصب متلثم خائف ورسم إشارات وإيماءات وغمغمات وحوارات غير مترجمة اكتشفاً أنهما يجيدان اللغة الانجليزية، فاتفقا ان يذهب كل واحد في مغامرته، هذا يسلم نفسه لايران وذاك يسلم نفسه للعراق، تصافحا يودع احدهما الاخر وتعاهدا ان لا يبوح أي منهما بسر الآخر. فمن خان من وانتشرت القصة؟

الجندي الايراني لا يخاف على عائلته من السلطة الايرانية اذا اكتشفت هروبه، ولكن المصيبة هنا لو اكتشفت وحدته العسكرية هروبه الى جهة العدو، سوف تندمر هذه العائلة وتعامل أفرادها كخونة جنباء بينما العائلة المنكوبة تجهل تمام الجهل هروب ابنهم. فمن خان من وفضح السرّ؟

هل رأهما أحد الجنود من بعيد بواسطة الناظور وكشف الامر؟

هل العملاء والجواسيس من كشفوا هوية هذين الجنديين وكيف تصافح الاعداء؟

سمع (ناصر نابت) هذه القصة وهو في قاطع (المحمرة) التي يسميها الإيرانيون (خرم شهر)، التي احتلها الجيش العراقي خلال ساعات مع بعض المدن والقرى والقصبات الحدودية، ودخل (ناصر نابت) مع طلائع المحتلين لمدينة خرم شهر ورأى معظم البيوت التي داسها بسطال الجيش، رأى: قوري الشاي لا يزال ينفخ البخار فوق الطباخ، وحنفية مفتوحة يسيل الماء منها فوق مغسلة على مسنדהا فرشاة أسنان يغطيها المعجون الابيض، وحقائب مدرسية مسنودة على حائط يغصّ بصور الخميني، وعلى ارض الغرفة احذية صغيرة وجوارب لم يتمكن التلاميذ من لبسها ومن حمل الحقائب ، فلم يخطر في بال أحد ان هذا الصباح سيكون محتلاً.

الإذاعات العالمية تسمي هذه الحرب العراقية الايرانية وحرب الخليج والحرب المنسية وتسميها إذاعات العراق (قادسية بهضام) يلعلع فيها مطرب الحرب والحزب (داود القيسي) باناشيد القادسية التي حوّرها الاطفال والطلبة والجنود الى:

القادسية مدرسة بصدر القناة/ علمتنا انبوگ ونصچم بنات.

لم تغلت أغنية وانشودة للحرب وللحزب ولبهضام من فئاني التحوير وقلب المعاني. بينما إحتدم الجدل بين ابناء شرطي المرور جابر، الذين قلما يلتقون ويجتمعون في البيت ايام الحرب، وكان معهم (كريم كشكول) وما تيسر من الاصدقاء. تغدوا بوجبة (زوري) شهية وحافلة مع بصل أخضر، وهامم يشربون الشاي مع تصاعد ابخرة النقاش حول اسم (حرب الكلاب) الذي اطلقه (خضر قد) رابطاً هذا الاسم مع حملة السلطة على قتل الكلاب والقطط قبل سنوات قليلة، بحجة انها تسبب أمراضاً وبائية خطيرة، وسعرت ثمن الكلب الواحد بنصف دينار والقطة بربع دينار، وكانت تسمع في الليل أثناء سريان هذه الحملة طلقات نارية وعواء كلاب موجه يفت الصخر، واليوم تذكرها الناس أثناء مطاردة الهاربين من الجيش ومن الحرب. يقول خضر قد:

- باع قسم من المواطنين كلابهم وقططهم، بل ان بعضهم راح يطارد الكلاب من شارع لشارع، وينصب لها الكمان والفخاخ ليقبض عليها حية ويبيعها للسلطة التي كانت تمتحن ضمير المواطن وتختبر أخلاقه.

وانغمس (خضر قد) في تحليل ظاهرة بيع الكلاب والبزازين، ويصرُّ على الربط بين بيع الكلاب وبيع (الشهيد) مقابل قطعة ارض وسيارة أو عشرة آلاف دينار فيقول:

- لم يفظن هذا المواطن ولم يتوقع أن يكون الكلب المبيوع هو أبنهم (الشهيد)، فسقط المواطن بذات الفخ الذي نصبه للكلب. لذلك أسمىها حرب الكلاب.

أخوه (عبودي) يوافق على التسمية ولكن من وجهة نظر أخرى ، من خلال مشاهداته الحية أثناء عمليات إخلاء الجرحى ونقل الجثث. قال وهو ينظر الى (كريم كشكول) والى اخيه (محمود)، لأنهما لم يشاهدا معركة حية ولا جثة سوى في صور من المعركة في التلفزيون، قال:

- رأيت انواع الجثث بعدما تعودت على منظرها، الجثة الاولى صدمت روحي وبقيت يومين أتقيأ وأزوع الطعام، فروة رأسي ظلت مشدودة وممطوطة مثل طبل، أحسُ فوق لساني وسقف حلقي دسم دماغ بشري مشوي، وجهي خدران أقرصه فلا أشعر به. ثم تعودتُ مثل بقية الجنود. رأيت جثة تنتفخ وتنتفخ... ها...ها راح تنفجر تنفجر فادرت وجهي عنها، وفجأة فُششش، فشت وخرج صفير هواء يمكن هو روح الموت، صفير منفر لا يطاق. رأيت قريبا جثة لها دوي مقرز جعلني أكز أسناني، دوي ذباب لامع كبير وانواع حشرات ودود لم أرها من قبل، وسمعت خلفي جثة تبقيق، إلتفت إليها كانت سوداء تصاعد منها بخار بلون... بلون، لا اعرف لونه، ولكنه بلون الخسة والنذالة ولون الجريمة.

بابه وحق الحسين أبو عبد الله، رأيتُ وجوه الجثث غير المحروقة من الجنود العراقيين والاييرانيين ، رأيت وجوههم تذوب في التراب، أنمحت من أشكالها ملامح الشك وأنمحت رعونة البطولة والنصر والزهو، وجوه خالية من الخوف ومن رعب المسؤولية، وجوه مستسلمة للتراب بحنان وشوق مثل من رجعوا الى اصلهم الى اهلهم لا بل الى أهل أهلهم، وجوه متعانقة مع بعضها البعض في اخوة الموت ، لا هذا الميت يعرف انه ايراني ولا هذا الميت يعرف انه عراقي، متحاضنين كأن الواحد يعتذر للآخر في أسف فات وقته، وجوه فيها غصة ندم لم يتحقق. ورأيت الكلاب كيف تأكل جثث الجنود، هزرت يدي ساخرأ من إدعاء كلا الطرفين: بان الكلاب لا تأكل جثث شهدائهم، وانا ها أنا رأيت الكلاب بعيني التي سوف يأكلها الدود، رأيت الكلاب لا تفرق بين جثة العراقي وجثة الايراني. الكلاب وحدها، وحدها المنتصرة. وهذه فعلاً حرب الكلاب.

قاطعته أخوه (محمود) الذي تملص من كرش الجيش باعجوبة إذ يغصّ دفتر خدمته العسكرية بتأجيل تلو تأجيل وشهادات برقود في مستشفيات الأمراض النفسية وإحالات الى (الشماعية)، أضخم مجمع للمجانين في البلاد. قاطعه:

- دول العالم معظمها اصطفت مع بهضام ودعته في الحرب عدا كم دولة التزمت الحياد ودولة أو اثنتين كانت مع ايران. دول العالم ترش النفط على نار الحرب، فهي حرب كلاب من هذا الباب ، إذ لا يعقل ان الكلاب تفكر بالانتقام لأبائها وأجدادها الذين باعهم المواطن للحكومة فتأكل أبناءهم الجنود ثأراً وتشفياً.

هكذا اتفق ابناء شرطي المرور جابر على تسمية الحرب بـ (حرب الكلاب) ولكن من وجهات نظر مختلفة وأهمهم جالسة قرب محل الافرشة والأغطية المزين بصورة (بت المعيدي) التي أمتص ألقها الزمن والغبار والعيون الحاملة بها. جالسة تدق بالهاون اعشاب الحرمل والسعد والقرنفل، تخفي نشوتها الأمومية بوجود أولادها مجتمعين معاً، لأول مرة منذ وقت طويل، وتذرف حسرات لوعة على ابنها الاكبر (مكي) الذي غادر البيت مع زوجته وطفله الرضيع، استأجر بيتاً صغيراً في منطقة (نواب الضباط) في مدينة الحرية، وتتحسر على أبنها (زيدون) الشرطي اللاسلكي، الذي ترك البيت بعد زواجه مباشرة، أنتقل الى أقصى الجنوب في مدينة البصرة، هارباً من ذكرى إشتعال براميل البانزين فوق القرى الكوردية في (سوار توكه).

وكانت مرحلة العصر الزيتوني قد بدأت بمرور الرفيق (موحان) أمام دكان كشكول دون أن تُسمع صيحات: (سجين وملح) ، مرّ لا يبادر بالتحية بل يدع الآخرين هم يسعون الى السلام عليه. مرّ بوجه معوج رافعاً خشمه الكبير لعنان السماء، يرتدي بدلة زيتونية مكوية بخطوط حادة مثل شفرة الموس، وبخاصرته قراب ماروني يبرز منه كعب المسدس. لقد غادره بلا رجعة وجهه البشوش ولصق مكانه وجه متقرّز متضايق، وجه يمتعض من رائحة نتنة مثل وجه من شمّ الخراء تواءً فظل معوجاً هكذا، وكأنه لا ينفك عن شمّ الخراء أبداً.

انتقلت عدوى شمّ الخراء الى جميع الرفاق الحزبيين ، لذلك يمكن تمييزهم بسهولة ودون فحص وإستقصاء حتى لو تخفوا بملابس مدنية، وشاعت سمة شمّامي الخراء على خطوط الطول والعرض في جغرافيا وجه الرفيق البعثي في العراق.

وقد حسمت الحرب والبدلة الزيتونية إشكالية (موحان) الحزبية في (نفذ ثم ناقش)، بعدما سقط في فخّ الفلاسفة العتيق (البيضة ام الدجاجة) ودوخته هواجس عقله: إذا مروني بقتل أخي(فرحان) ونفذت الأمر فما جدوى المناقشة وأخي لن يعود حياً مهما ناقشت؟

زين... ، إذا مروني بالانتحار، وفعلاً نفذت عملية قتل نفسي، كيف أناقشهم بعد موتي؟ وينتبه لنفسه يوبخها:

كيف أناقش الأمر الحزبي الصارم (نفذ ثم ناقش) وأنا لم انفذه. إنه أمر لا يقبل النقاش لأن جملة (نفذ ثم ناقش) لا تخضع للمناقشة أصلاً ، عليّ أولاً تقبل وتنفيذ جملة (نفذ ثم ناقش) بلا مسائلة ولا شكوك لتكون جاهزة للتنفيذ...

لكن نشوب الحرب وارتداء البدلة الزيتونية انقذته من لعنة الفلاسفة ، وخرت عقله، إذ لا وقت لديه لحك خشمه الكبير من كثرة المسؤوليات الجسام وزحمة المهمات، خاصة مطاردة الجبناء المتخاذلين الفارين من الحرب، ومهمات ترصد الخونة عملاء إيران وقتلهم كما تقتل الكلاب.

- ٦ -

أحرق (سلامه) بمنقلة الشاي ساقها، وكأنه حادث عرضي، في آخر جمعة من رمضان، بعد ان إستنفدت كل الحجج والاعذار لتأخير يوم زفافها الى ابن عمها، ولكن الشاي الفائز سلخ قلبي كذلك وأرداني مريضاً بالحيرة: ماذا سأفعل أنا الهارب من الحرب ثلاث سنين، دشنت فيها بيوت الاقرباء والاصدقاء بالمبيت ليلة أو اكثر، وكنت كعادتي حالماً ساهياً، بلا عبء ولا خبرة، أصحو طازجاً من أتون الواقع، ودائماً أرجع أحياناً من الصفر، لذلك عندي كنز من الاصفار، بحيث لم أدرك، ولم يخطر ببالي أن معظم أهل البيت الذي اقضي فيه ليلتي، يتناوبون على الحراسة هلعاً من الدهم المباحث، الذي تشنه زنابير الانضباطية أو رجال الامن او الرفاق الحزبيين. أهل البيت يخافون ويدخلون في حالة طوارئ وإنذار لأنهم يؤون هارباً ويتسترون عليه، حتى واجهني عمي (هاني) ومدّ سبابته في عيني يقول، وقد جرحني بلسان باشط:

- التحق... حالك حال الجنود... وتره، كل واحد يموت بيومه.

وانهال علي بتوبيخ شائظ: ان أرى حال أهلي وانقذهم من دوامة الرعب - إجاك الذيب إجاك الواوي - وأخجل من توريط الناس الذين أبيت في بيوتهم.

واسترسل بكلام دامغ مزق شخصيتي شذر مذر، أمام أهلي و(سلامه) تسمع، إذ لا يفصلنا عنهم سوى سياج يخفي الهامات فقط. عندها قررت هجر كل البيوت، بعد أن ألقيت كل جمر المنقلة من ساقى (سلامه) ومن قلبي فوق الرؤوس مثل (الواهليه). جمر يتقاذف من فمي:

- لن ارجع للجيش ولو اعدموني أمام باب الدار ويدفع أبي سعر الرصاص. لن ارجع للجبهة كأي جبان يبيع دمه مقابل سيارة وقطعة أرض. لن أكون شهيد خيانة نفسي في حرب الكلاب هذي.

تطافر من لساني جمر لسع الجميع لكنهم تعجبوا فقط من سلامة نطقي فلم أتلثم ولم أتأني، كأني أحفظ دوري في مسرحية جديدة. رغم أنني بلغت بعض الجمر ولم أقل: لن أشارك في الحرب ولو هددوني بإغتصاب وقتل (سلامه)، لن أرجع ولو ذبحوا أمي. لا لن أعود بعد الذي خضته في فلم موتي الثاني، ثم إنبعاثي من برزخ الضرطة، وأصرخ:

- أنا بشر لا اريد ان اقتل بشراً ولن انتجس في حرب لا نعجة لي فيها ولا سخل.

لكن آخر ما قلته:

- لن تروني بعد اليوم.

وخرجت بلا وداع، سمعت ورائي نواح أمي:

- يمه خضر... ولك يمه خضر.....

لم ألتفت للوراء بغضب مثل عنوان مسرحية فاتنتي قراءتها، لم ألتفت بل حرنت كصديقي الحمار ليس في التوقف والاتصاق في الارض بصمغ العناد وعدم الترحح، إنما في مشية أقرب الى الهرولة وبخط مستقيم، ملتهب كل ما تحت جلدي خاصة صدغي، ولا تطفنني إلا (سلامه) بضعها ودموعها. كيف حالك الآن وقد ينست من رؤيتي للمرة الاخير؟ تباطأت في خطواتي، تعرج وتمايل خطي المستقيم لما وصلت: هل تفعلها وتنتحر؟ هل تموت من غصة الظلم بزواجها الوشيك وفقداني؟ أي أمل ترتجى مني:

مجنون لا تلامس قدميه الأرض، هارب من الجيش ومطرود من الاحبة. إن عمي (هاني) على حق، وهو لا يتكلم عن نفسه بل عن شكوى أهل البيوت التي آوي إليها.

تجاوزت مدينة الثورة والقناة و(سلامه) تبتعد، أي قدر لنيم جمعنا لا لشيء سوى ليفرقنا، يريني الجنة ويلقيني في النار، يكشف لي معنى وجودي ويدفعني في حقل ألغام العبت، (سلامه) أين أبيت الليلة، أهيم في مناخ عدائي، وشوارع كل خطوة فيها حكم بالاعدام حال اكتشاف هويتي المزورة، يطاردني عواء:

احنا مشينا... مشينا للحرب/ عاشك يدافع من اجل محبوبته محبوتة/ احنا مشينا للحرب. وصلت شارع الرشيد، لم يصادفني سوى قلة من العراقيين ، بينما أصطدم بالمصريين والفلبينيين والبنغلادشيين وجنسيات اخرى لشعوب جائعة، هاجرت للعمل هنا بعدما فرغت شوارعنا ومدننا من الشباب.

رأسي لا يزال يفور مثل مرجل بداخله كل العراق، فانعطفت عن خطي المستقيم ودخلت (حي المربعة) لأشرب الشاي، وكان هذا الحي قد انقلب بين ليلة وضحاها الى حارة مصرية، طلبت إستانك شاي وإذا بشاب كان يجلس أمامي يلتفت إلي ويدقق النظر، وإن هي إلا ثواني حتى نهض صائحاً. رمى قدح الشاي على الارض، إرتمى عليّ يحتضنني ويقبلني:

- خويه عراقي

ارتبكتُ وضحكتُ خجلاً، حيث أنتبه ألينا معظم المصريين الواقفين وهم يحدقون، والشاب وضع رأسه على صدري ينتحب ويذرف كلماته الباكية:

- منذ زمن بعيد بعيد وأنا لم ألتق عراقياً.

رزته ولم أتبين بالضبط:

هل هو جاد أم يمثل عليّ ساخراً، وبعد ان سحب نفسه من احضاني اصر على دفع ثمن الشاي مع خسارة الإستانك والصحن اللذين تهشما فوق أرض الوطن. ودعت الشاب المغترب في وطنه وعدت الى مسيرة خطي المستقيم مع سيجارة سومر، أفلحت في إخماد جمرات رأسي ، وكان الليل قد فتح ستارة مسرحه لبطولة القمر مع كومبارس حاشد من النجوم، يؤدون ادوارهم في تمثيل صامت مشع.

دخلتُ شارع ابي نواس الذي لم يمنع الدخول الى حدائقه بعد، واخترتُ أخطر الاماكن للمبيت. جلست وسط حديقة أمام وكالة الانباء العراقية (واع)، كلما أسمع كلمة (واع) اتذكر التقيؤ.

ولم يتجرأ احد على مساءلتي: ماذا تفعل هنا، ولماذا تنام في العراء، واعطيني هويتك. بينما الشارع خاوٍ وكذلك الحدائق والبارات والكازينوهات لأن القصر الجمهوري وملحقاته يقابل الشارع من ضفة دجلة الاخرى.

الليلة الثانية قضيتها في مكان أخطر وكالعادة لم يتجرأ أحد على سؤالي ايضاً، نمت في منزله (١٤) تموز قبالة الشعبة الخامسة للاستخبارات في الكاظمية، الذي أغلق بعد أيام قليلة من مبيتي فيه. وهكذا سلخت ثلاث سنين هروباً من عمر الحرب بالتمام والكمال ولم يسألني أحد على الهوية إلا مرة واحدة، وكان بسبب خطأ تقني : جلستُ في مقهى خلف ساحة (الميدان)، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً، فجأة أقفل باب المقهى من قبل ثلاثة ملثمين بيشماغ أحمر - هذا البيشماغ علامة فارقة للبعثيين وجلاوزة بهضام - كنت أمام التلفزيون مباشرة، ماذا افعل وحياتي الآن في كف عفريت بعين واحدة. كالعادة أتجاهلهم بحركة المسيطر الواثق.. وفعلاً لم ألتفت إليهم ولم اعبا بهم، كائي بمنأى عن هستيريا الاعتقالات والاعدامات بالجملة. سمعت صوتاً منفراً منندراً:

- الكل يبرز هويته.

انا هادئ، يدي تمسك هويتي المزورة من فوق كتفي دون أن ألتفت، وعيناي مسمرة على التلفزيون. أخذوا هويتي ويدي باقية على نفس الحركة تنتظر ردّ الهوية الى أصابعها، وفعلاً تلمست الأصابع الهوية فأرجعتها الى جيبي. فتشوا بقية رواد المقهى وخرجوا دون ضحية. الخطأ التقني هنا: أني لم أكن أعرف أن اسم المقهى (كهوة الفرارية) مقهى الهاربين من الحرب. وقضيت بقية ليالي السنين الثلاث في الاقسام الداخلية لطلبة الجامعة المستنصرية وأكاديمية الفنون الجميلة، الى ان صارت بغداد أحد وأرهف من موس الحلاقة، أزحف.. أزحف فوقه يومياً.

في الساعة الثامنة مساءً وقد يئست من مجيء (كريم كشكول) الذي يزودني بالنقود بين حين وآخر، ومتعهداً بعدم ذكر أي شيء عني لأهلي وأقربائي. كنت جالساً في مقهى مغمورة الاسم مقابل مقهى (حسن عجمي)، بعدما هجرت مقهى (الفرارية) سيء الصيت. أذاع (رشدي عبد الصاحب) المذيع المخضرم بشواربه الكوارثية مثل الفرشاة التي تلمع المصاب، في أخبار الساعة الثامنة نبأ عفو عام وشامل عن الهاربين والمتخلفين لمدة شهر واحد فقط.

آخ (سلامه)، كيف أراك ولو لآخر مرة. شهر يكفي لوضع خطة للقاء والذوبان في عينيك، عينيك التين انتقتنا أجمل ألوان عيون نساء الارض، اختزلت سحر كل العيون، أيباخ، حين ألتقت عيني بعينك أول مرة، أختليت والتفت بي الدنيا سبع لفات، فقدت التوازن شدها وانبهاراً، غبت عن نفسي وغامت من حولي الاشياء والكاننات:

- طرگاعه إلفت عینج الحلوة.

هكذا تتغزل بها أمي وتحير في وصف جبروت حسنها:

- بت المعيدي تروح الحج فدوة.

(سلامه) ضمني في عينيك التي لا أقف فيهما على لون، في عينيك أنسى وجودي ومحنة الهروب والعسكرية والحرب والامن والمخابرات والسلطة والفن ودمعة أمي، أيباخ... أي حلم انت وهبتي إياه الطبيعة واختبرني الله به، فهل أفضل وأخسر حلم الطبيعة؟

تأخرت يا كريم، فات على الموعد ساعة. انتبهت الى نفسي والى ساعة المقهى العثمانية التي أكلت الدهر وبلعت أجيالاً من الساعات.

أينك يا كريم فقد بدأت المقهى تفرغ، ما الذي أحرّك عني، قرار العفو أم شحة النقود، هل تسلل الخوف الى قلبك... لانك تساعد هارباً بالمال ولم تبلغ عنه، لا، هذا مستبعد فانت من طينة أخرى كما جلتك لي التجارب ولمع جوهرك النفيس، ولكنني احسدك من كل قلبي على رسوبك وإعادة سنة في أكاديمية الفنون الجميلة، تشبث بسقوطك ولا تنجح أبداً، ضاعف كل سنة باثنتين، أربع سنوات الدراسة أسقط فيها لتكون ثمانية وأكثر حتى تسقط الحرب وتنتهي. ولكنك بالغت في التأخير وبقيت وحدي جالساً في المقهى، عيني صوب الباب، حتى ينست نافضاً رأسي من أي أمل في مجيء (كريم كشكول). دفعت ثمن ثلاث إستكانات شاي وخرجت

باتجاه (الميدان) ثم (باب المعظم) لأحدد وجهتي في المبيت أين، وإذا بصوت (كريم) ينادي من ورائي: خضر... خضرقد. وضح لي سبب تأخره: فقد رأى خمسة رجال أمن في سيارة (لانديروز) قرب المقهى، يتناوبون على ذرع الشارع بانتظار فريسة. وكم هلع وارتعب لنلا اكون انا المقصود، بقي حائراً بين مراقبة رجال الامن وبين الدخول الى المقهى فيغلفوننا معاً... .. أباخ، هل قلت (يغلفوننا)؟ مع الاسف يا خضر قد، كيف تسللت أليّ مثل هذه المفردات الصلغة الجلفة القبيحة؟ أرجوك أحرص وانتبه على ألفاظك، خاصة وقد طفحت على سطح اللغة الكثير من (المصطلحات) البعثية مثل: غلفوه، طكوه بالدهن، إنعلس مع مفردات اخرى بشعة كلها تشير الى طمس الروح الأدمية وسحقها في لغة دفن الاحياء. فتمخض عن الواقع المسلخ قاموس ضخم لمفردات عامية تصدم وتفزع من شدة سخريتها واستهتارها بالحياة.

هيمنت هذه القسوة الرمزية على اللغة المتداولة في الشارع فضاعت وانسحقت اللغة الودودة تحت البساطيل خاصة لغة الحب.

- كريم، هل لفت انتباهك تزايد نسبة الزواج واختفاء قصص الحب، مرة يتحايل الاهل على تزويج ابنهم الجندي، ومرة يتحايل الجندي على أهله لتزويجه، يأتي في أجازته الشهرية التي يحسب لها ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم ليغرق (٧) أيام في طقس المضاجعة وكأنه يثار من الحرب؟ يجيب كريم كشكول:

- طبعاً، (ناصر نابت) تزوج فتاة سمينية (متروسة) تفصل منها ثلاث فتيات، والكثير الكثير من جنود قطاعنا تزوجوا . وكل هذا الزواج خطأ في خطأ، الجندي يتزوج للذة الجنسية ولكي يؤكد وجوده الحي رغم سطوة الموت العملاقة. والأهل يغلفون هذا الزواج بقشور الرجولة والانجاب ونصف الدين، ويخافون من ذكر السبب الحقيقي والواضح الذي يقف وراء فكرة الزواج: تقف سيارة قبيحة أمام البيت تحمل تابوتاً ملفوفاً بالعلم العراقي، علم الجثث ورمز الموت الحكومي، علم فقدان العزيز . لكن لو تزوج ابنهم - صاحب هذا النعش - لن تندثر ذكراه وتختفي رائحته اذا حملت منه زوجته، وسيبقى اسمه يتردد ولا يموت. لكنه زواج حرب وسينجب كوارث.

الملاحم والفتن بين الشوارب واللقى

(ميري) وحيد أهله أول الصبيان في منطقة دكان كشكول نبت له شارب، بعد محاولات جلت خفية استمرت ثلاث سنوات للزغب الناعم فوق شفته العليا. مثل الحرامي يخرج أدوات الحلاقة من صندوق أبيه (الفاتيه) حين يفرغ البيت، ويبدأ بجلط الزغب ثم يعيد العلبة مثلما كانت بالضبط، لكن الأب اكتشف الأمر وسكت خافياً فرحته بشوارب ابنه - رجل البيت بعده - سكت وكان شيئاً لم يكن. تدخل فقط بعد اكتمال سوادها وخشونتها لاجراء بعض التشذيب، وألح عليه ابنه: أن تكون مثل شوارب (جابر) شرطي المرور لا مثل شوارب (مكي) و(زيدون) ولديه، التي تشبه خيط دخان، ولا مثل شوارب الرفيق موحان (٨ شباط). التي يسميها البعثيون عروس الثورات وهي الانقلاب العسكري الذي قتلوا فيه الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي ظلت صورته في القمر سنين طويلة يراها الناس ويشيرون اليها بوثوق وقداسة - شوارب (٨ شباط) تغطي الشفة العليا تماماً، شوارب قومية تأكل وتشرب معه، بينما شوارب شرطي المرور (جابر) تشبه شوارب عبد الكريم قاسم التي كانت تزام وتنافس شوارب البعثيين و(الحرس القومي سابقاً). هناك الكثير من الشوارب تحدها الاحداث السياسية وأمزجة العشيقاات والزوجاات وشخصياات سياسياة مثل ستالين وهتلر - رغم قلتها - وشوارب نيتشه وسلفادور دالي وممثلين سينمائيين عالميين ومصريين، إلا أن الشوارب البعثية صارت هوية لأنها تحاكي شوارب بهضام، طبعاً مع بقية الطاقم القومي:

بدلة زيتونية أو بدلة القطعتين (سفاري) ومسدس مع وجه يحمل سيماء شمامي الخراء.

لكن (ميري) في نفسه أن تكون شواربه مثل شوارب مطربه المفضل الحبيب (سلمان المنكوب)، والذي يقلده بصوته وطور غنائه بحيث لا يمكن التفريق بينهما لولا أن سلمان المنكوب طعن (ميري) في قلب حبه عندما سمعه في أغنيته العنصرية الاخيرة حين هجا المطرب عبادي العماري (الزنجي) : لا تشتري العبد إلا والعصا معه. طعن حبه للزنجية(لندن) لذلك غير (ميري) خط غنائه وكف عن تقليد (سلمان المنكوب) متحولاً الى تقليد طور (سيد محمد).

ظل (ميري) مع شواربه الرجولية يلعب الدعبل والطائرات الورقية والمراصع مع (خضر قد) ومحمود وكريم كشكول، الذين كرهوا الشوارب من وجهات نظر مختلفة: (خضر قد) أحتقرها لأن أحد الشاذين جنسياً ضايقه في سينما السندباد، يسميه العراقيون (فرخجي)، بقي هذا (الفرخجي) يتابع (خضر قد) بالنظرات والخطوات، كانت شواربه (٨ شباط) غليظة تميل للاصفرار، فقرر الفرار من السينما ومن الشوارب، لا يدري بأنها سوف تطارده في الصحو والنوم، يفر من كابوس الى جيثوم.

وكره (محمود) الشوارب لأنها خطفت أعز أصدقائه في المنطقة وفي المدرسة، رآها شوارب ترتجف مع عيون تتجادح بسيماء شمامي الخراء.

بينما كره (كريم كشكول) الشوارب وكره حديقة الامة في باب الشرقي، إذ جلس بقربه رجل مهيب بشوارب غليظة تختل بظلها عشيرة مطلوبة دم. الرجل يتلامض ويفتل شواربه بالسبابة والإبهام، دخل معه في حوار محفوف بالمخاطر الجنسية، وأخيراً كشف مراده حين

راح يصف فتاة لها (شكل يخبل وجسم يهيم ولا تشبع من النيك) وهي موجودة تنتظر الآن إذا اراد (كريم) ان يقضي ليلة حمراء معها.

هكذا أحتقر (كريم) الشوارب رغم أنه أحبَّ شوارب أبيه (كشكول) التي هي وحدها عصية على التقليد لأنها تتقلب وتتموج مع ألحان السماء عندما يرتل القرآن في الغيش وبعد الغروب، إذ أراد أبوه ان يعوض اللحية الممنوعة بهذا الشارب، فاللحية كفر بعقيدة البعث والحاد للنهج القومي، اللحية خيانة للوطن وعمالة لإيران، لذلك يسارع الجميع الى حلقتها لنلا تتحاشك وتزدحم تقارير وكلاء الأمن والرفاق الحزبيين، فيحلقوا اللحية قبل كتابة التقارير التي تنفتح سطورها على السجون والمهاجر والطوامير وربما الإعدام، فقط المجانين وحدهم ملتحنون وبعض الفنانين المنفلتين وأنصاف المجانين ومع ذلك هم موضع شبهة وريبة تطاردهم سياط علامات الاستفهام.

اما من كان بلا شوارب فهو مخنث (ولا تقبل شهادته في المحاكم) ويكون عرضة للاستهجان والسخرية بين العشيرة والبعثيين، يوضع في خانة النساء وتقليد الغرب.

أخيراً أكتشف عبودي وميري وهما يمسدان شواربهما أثناء حديث ملتو ودام عن جبهات القتال والمعارك والجثث، فجثة الشارب ملتصقة مع جثة اللحية، انه مجرد شعر ينبت حتى في العانة والظيز فلماذا كل هذا التقديس الارعن، قال عبودي:

- كل من يحترم الشوارب ويحترم اللحية محلوقة العقل نمرة صفر و....

قاطع ميري:

- لا ... المصيبة ان الذين بلا لحية ولا شوارب هم يقودون قطار العالم بأقصى سرعة، ونحن أصحاب الشوارب واللحي نتعارك ونتقاتل في آخر محطة عافها القطار، (يا به) والعباس قمر بني هاشم: فورما تنتهي الحرب أزرى على كل شارب ولحية.... وأولها شاربي

- ٧ -

ها أنا اقشر أغلفة سرّي بحذر كمن ينزع فتيل قنبلة موقوتة، دُست تحت (كاروك) طفله الرضيع. كلي هلع لنلا ينفجر السرُّ بوجهي ناسفاً جدار البرزخ الجدار الرابع في العرض المسرحي - فيختلط الأحياء مع الاموات - الجمهور مع الممثلين.

أقشر رأس بصل سرّي بتكتم وحذر لسببين واحد ينطح الآخر، السبب الأول لخطورته عليّ وعلى أهلي وأقربائي وأصدقائي ومعارفي وجيراني، لأن سقوط بهضام والبعث متعلق بي وحدي، هو قدرتي الذي لا فكاك منه ولا مهرب منه. لكن مخرج فلمي ينوي إبعادي عن العراق موطن سرّي ، ويحاول طردي من الدور التاريخي الذي سوف أعبه. فكيف سأهرب من العراق مبتعداً عن قدرتي واطرك وطني ينخر به عثّ البعث؟

السبب الثاني: رعبى من السخرية الحنظل والإستهجان المنقطع النظير لو عثر أحد على قشرة واحدة من بصل سرّي حريف الخطورة والسخرية، وأنا المعروف بالتحليق فوق ألسنة نيران الواقع.

وانا بالكاد أحدد موطن قدم في واقع الرمال المتحركة. نزعت حذائي وجواربي، وبدأت أتسلق هماليا بيت (سلامه) .

فات إسبوعان على قرار العفو عن الهاربين - ما أسرع إحتراق أيام العفو وما أبطأ جمر شواء يوم واحد من الهروب - حيث انحسرت في أيام العفو تجمعات زنابير الإنضباطية، وقلت المفارز والمطاردات في الشوارع وفوق أسطح المنازل المتصلة مع بعضها البعض في عناق الفقر والضيم، إلا بيت (سلامه)، فمن جهة بيتنا لا يتصل سطحنا مع سطحهم، يفصلنا عنهم سياج يخفي الرؤوس ثم يرتفع شاهقاً بطابوق مكشّر حتى ستارة السطح. جازفتُ ودخلتُ بيت (ميري)، الذي يرجع بعد منتصف الليل مبدداً إجازته الشهرية: أما يعني في حفلات الأعراس أو يتسلل الى بيت محبوبته الزنجية (لندن). لذلك تحرص أمه (ساعة) على إبقاء باب الدار موارباً. صعدت الى سطحهم فأبو (ميري) وأمّه ينامان مبكراً، نوم الدجاج، مثل أغلب الآباء والامهات. فالنوم هو الباب الوحيد في قلعة حياتهم المحاصرة، وأنا اتقافز من سطح لسطح مثل حرامي حتى تناوشت سطح بيتنا. نزلت من الدرج لأتسلق هماليا بيت (سلامه)، أتحسس شقوق الطابوق بأصابع يدي وأصابع قدمي الى ان وصلتُ شباك البيتونة، شباك يكتنز صورتها النصفية الساحرة حين رأيتها أول مرة. دفعت بهدوء فردة الشباك وكأني سأدخل في طيفها الاسطوري. ووقت هناك متربصاً أنصتُ لإنفاسها، لخفقة ثوبها الهندي، واتشمم نثارات عطرها في هواء البيتونة ودرجات السلم، أصغي لخطوتها وعيناى تنبشان في الظلمة عن بريق سطوعها. الدقائق تلبط في أحشائي، تخبط وتعكر لهفتي واشواقي. ساعة، ساعتان، ثلاث، والبيت هامد، يغط في موت خلاب لا ينغصه سوى نخرات وحشرجات متقطعة، تصدر من حنجرة وأنف أبيها. هل (سلامه) مريضة، هَذَا الفراق؟

هل تقيحت حروق ساقها ونقلوها الى المستشفى و(كريم كشكول) هو الآخر لا يعرف أو يسمع شيئاً عنها؟

ساعات بطول عريدة الانفجارات في مسرح الرأس حيث التعذيب الصيني المستورد، هم لا يستوردون لنا سوى أحدث موديلات التعذيب مع أدواتها وخبراتها، إضافة الى نبش أقدام الموروث البشري في التعذيب لعصور مظلمة انقرضت: يخلقون دائرة من الشعر فوق اليافوخ، حيث الرأس مثبت محكم القيد بالكاد ترمش العين وينخر الأنف، وكذلك الجسد متجمد الحركة من شدة إحكام القيود. تنزل قطرة ماء حارة فوق دائرة اليافوخ الحليقة، تعقبها قطرة ماء باردة بوقت صعب التكهن به ولا يستطيع الرأس تخمين نوع القطرة حارة أم باردة - هل يعلم الماء أنهم يستعملونه بالتعذيب قطرة باردة ستنزل الان، آخ هذه قطرة حارة، لماذا حارة وراء حارة، الآن حتماً باردة لكن الوقت يمتد حتى يشارف على الانقطاع فتسقط قطرة حارة، عجيب لماذا عكس المتوقع دائماً.

وشيناً فشيناً تكبر القطرة ويتضخم صوت إرتطامها على طبل دائرة اليافوخ. تكبر لتغدو بحجم
صخرة سيزيف تدوي في تجاويف وإروقة الرأس، تدوي بسلسلة انفجارات نووية، فكيف لا
يعترف الرأس؟

وبيت (سلامه) هامد في سكون أحرق غابة صبري، وسيندلع رقص الجنون. عجيب، ألم تمتلأ
مئانة واحد منهم ويفز للتبول، بينما هذا السكون والصمت المحصور المتضايق، طفحت مئانته
فتبول فوق رأسي بلا صوت وشيش وبلا شخيخ.

أيباخ، ما أفدح هذا السكون وعقم هذا الصمت... إفلت خضر، نشبت معركة (بزازين وعتاوي)
ضارية فوق سطحهم خارج البيتونة. مواء قتال مزق السكون وذرة وذرة، ورعب الصمت
فتناثر زعيق وصخب يفرز أهل القبور، حتى انت يا بروتس؟

برمشة عين إندلقت من شبك البيتونة ونزلت عبر شقوق الحائط الى بيتنا، لم أشعر وقتها
بالخدوش وانسلاخ جلدي إلا في الصباح. ما أغبى هذه الجدية في حديثي؟ طيح الله حظك يا
(خضر قد)، غبي... غبي، أخ كم غبية هذه الجدية، جدتي القبيحة والمكابرة الجوفاء، لماذا
كل هذا التعقيد وهذه الحدية، لماذا حدي لدرجة الصفاقة يا عقلي المصفح؟ بدل المجازفة
ولصوية تسلق الحيطان أذهب وأعتذر وصالح أهلك. لماذا هذا الشقاء الأرعن وتعبر من
سطح لسطح؟ احتضن أمك وقبل رأسها ويدها، أمك المسكينة التي تتحرق شوقاً اليك وقلبت
الدنيا بنواح يفت الكبد الى رؤيتك. ثم قبل أباك وخذ يده معتذراً نادماً عن العقوق والصلف.
زين.. أخوتك، ما ذنب أخوتك لا تراهم ولا يرونك؟ ولكن أمك خاصة أمك، نحبها يجلب التائه،
ماذا فعلت، ما ذنبها يا طايح الحظ.

كم أنا مدجج بالغباء لا يقف بوجهي أحد فعقلي مقفل والمفتاح ضاع في بحر الظلمات.

لا بل عقلي (قندرة) قديمة مرقعة، وقلبي جلف صخر جلمود. تسللتَ مثل حرامي من أمام
الأبواب - إشبك تتختل - تسمع انفاسهم وشخيرهم وأنين كوابيسهم مع شذرات جمل مبتورة
من حوارات احلامهم. أيباخ... ألم يفتك بك الحنين الى البيت ورائحة جو العائلة، فوطة أمك
تفوح بعنبر الهور، ألم تشم الوسائد والمخدات و(اللؤل) المحشوة بريش طيور المسكه
والخضيري... طيور الماي، ورائحة اللحاف المبلل بدموعك حين كنت تبكي كل ليلة، على
ماذا؟ لا تعرف.

ألم تشتق لدفع أخوتك المساكين وقد دوختهم الدنيا البعثية والحرب؟

سلامه... وسلامه أين تفر من لعنة حبها. قف انتظر انتظر لا تفتح باب الدار خلسة، وتترك
أهلك ورائعك يتشاغبون عليك... طيح الله حظك.

انتظر - ولك او كف - انتظر لا ترد الباب خلفك بهدوء لص، تواريه وكأنه مسدود.

انتظر لا تطع... لا تخرج وتبتعد عن البيت... لا لا تهرب، لا تكن حدياً أعمى وجدياً أرعن، لا
تركب رأسك.. لا لا تهرب... طيح الله حظك يوم ولدت ويوم تموت ويوم تُبعث حياً.

أنا الآن أخطو في الشارع مبتعداً عن البيت وعن دكان كشكول، يتكسد عليّ ظلام حندس يتلاحم مع حندس عقلي وقلبي. حائر أين أقضي ما تبقى من الليلة، ربما الشمس على وشك الطلوع.

اخترقتُ الظلام ونباح الكلاب، خلفتُ ورائي قطاع (٣٣) باتجاه الحديقة الكبيرة ومستشفى الجوارر، عازماً مصمماً بكل جوارحي على الهرب خارج العراق. شبعْتُ من مرارة هروب الداخل، ثلاث سنين وأنا اتقياً موتي من تخمة المرارة.

إطمئن يا عمي (هاني) سألتحق بالجيش - لا جاك الذيب ولا جاك الواوي.

سأعود يا أبي الى العسكرية فلا ترتعب من إقتحام البيت من قبل المسعورين الراكضين وراء الهاربين... سألتحق بلا رجعة، لن تروني بعد يا أمي.

آخ يا (سلامه) ... هل تهربين معي؟

الى أين تهرب معي وأنا لا أعرف أين سيقودني مزاج القدر: الى صحراء أقطعها وأعبرها؟ الى أمواج شط العرب وكواسجه؟ الى جبال كردستان ومناهاها؟

سأهرب وحدي أم بواسطة مهرب يطلب نقوداً لا أعرف مقدارها؟

أم سيودعني رصاص يرشق ظهري وافوز بالموت، رغم أنني أعرف حظي الخراء، دائماً يُورطني بفخاخ الموت دون موت؟

إذن كيف أهرب (سلامه) معي خارج الحدود المظلومة بالعسكر ومشتقات الموت؟

الانسان الكنتور

ظل مصير (أوميد) مفتوحاً على كل الاحتمالات عند أمه التي تركض وراء عجاج القيل والقال، تركض وراء عطر أسمه، مرة تسمع أنه في (الشماعية) فتركض وتدخل في عنابر المجانين عبر شبكة معقدة من الوساطات والرشوة ودموع التوسل . لا تشم أثراً لرائحة (أوميد) حتى في المحاجر الانفرادية، واسمه غير مدون في سجلات المرضى القداماء منهم والجدد. ومرة تركض الى منطقة (الدبس) في كركوك بعد ساعة تقول:

أخذوا بعض المعتقلين من مديرية الامن الى (الدبس) فترجع يطاردها البصاق وسبّ وشتائم مع كلمات (إفشار) بذينة لم تسمع بها من قبل هي التي ولدت في خانقين وترعرعت في محلة (الفضل) ببغداد، لأنها سألت عن معتقل خان (الحزب والقائد). وتركض مرة أخرى الى السماوة فقد سمعت أن كل الاكراد يجمعونهم هناك، لكنها تعود وارمة القدمين، تحزُّ من جسدها وثيابها شأبيب رمل الصحراء، حتى سقطت بالضربة القاضية لمرض السكر وارتفاع

ضغظ الدم بعد لقائها العاصف بـ(خضر قد) صديق ابنها الذي كان معه في المعتقل، عثرت عليه بعد حملة بحث واستقصاء يفشل فيها أحلك رجال الأمن والاستخبارات.

لكن ماذا سيخبرها (خضر قد) وكيف يجعلها تطمئن على مصير أبنها. إرتبك وانعقد لسانه في البدء، ثم تذكر كيف كانا يحبان ضحكهما وكيف يتهاसान حتى الصباح داخل الزنزانة، يتذكر ضاحكاً ما قال له (أوميد): يعيرونني مذ كنت طفلاً وحتّى الآن (كردي ابو چينه) وكنْتُ أعتاظ وأزعج وأسبّ وأشتم رغم أنني لا اعرف معنى (الچينه) الى اليوم، هل تعرفها أنت؟

ويضحك (خضر قد) مع (أوميد) لأنه هو الاخر لا يعرف ما هي (الچينه)، ثم يقول (أوميد):

- أنا محصور بين ثلاث ورطات واحدة أخطر من الأخرى، أولاً تورطت وولدت كردياً ولا ذنب لي في ذلك. ثانياً تورطت وخرجت الى الدنيا شيعياً ولا ذنب لي في ذلك أيضاً. ثالثاً تورطت ببارادتي واختياري وانتميت للحزب الشيوعي ولهم الحق في معاقبتي ومحاسبتي عليه لأنه اختياري وذنبي أنا وحدي.

التفت (خضر قد) الى أم (أوميد) وقال:

- تركت أوميد قوياً معافى وبكامل صحته - يضحك ويطلق النكات والتعليقات الساخرة، أوصاني أن (أبوس) يدك.

أحنى (خضر قد) على يد أم (أوميد) وقبلها. شمّت الأم رائحة أبنها في جسد (خضر قد) كما شمّت مصير أبنها كذلك حين سبرت واستغورت وجهه وكلمات (خضر قد) ، غاصت في عمق تضاريس وجهه ورنين كلماته المدبوغّة بالخسارة والفقدان. ورغم ذلك ظلت تصارع جميع الاحتمالات المفتوحة على مصير أبنها أوميد، ولم تغلق نوافذ قلبها عن أمل رجوعه أليها. طبعاً لم يحك (خضر قد) كيف تخيل نفسه كائناً بعشرات المجارير و(أوميد) يضحك بصوت مكتوم. قال (خضر قد):

- هنيئاً لك على ثلاث جارورات فقط، متورط بها، يا (معود) عندك العشرات وأنا مثلك، فكل جارورة ورطة: جارورة لون البشرة، جارورة اللغة ورطة، جارورة القومية أخبت ورطة، جارورة الدين والمذهب والطائفة أعوص ورطة، جارورة القبيلة والعشيرة أظلم ورطة، جارورة الحزب ورطة عمياء، جارورة (ولايتي) وابن ولايتي، جارورة المهنة والنقابة، جارورة الثقافة. والمصيبة أم سبع رؤوس كل جارور يأمرك أن تفتحه وتغلق بقية المجارير . كل جارور يتعارك مع بقية المجارير وأنت في وسط ميدان حروب خرافية، حائر مرتبك لا تعرف الى اي جارور تميل وكيف ترضي هذا الجارور مع بقية الجوارير. أنت كنتور وأنا كنتور، والجوارير تتقاتل فيما بينها وتتقاتل مع الآخر كذلك. الجارورة مثل المرأة تريدك لها وحدها ولا تعشق غيرها، ويا ويلك ان فتحت جارورة أخرى لترى ما بها وماذا تحوي. كما توجد عندنا جوارير لم نكتشفها بعد ولم يأت دورها في الحرب والمطالبة بحقها.

يقول أوميد وهو يهزّ برأسه:

- الورطة التي ما بعدها ورطة، هي أن كل جارورة مقلقة بوهم القداسة، ترى نفسها منزلة من السماء لا يأتيها الباطل من فوقها او من تحتها، من أمامها ومن خلفها، وليس لديها استعداد للنقاش والجدل مثل جارورة حزب البعث...

يقاطعه (خضر قد) هامساً:

- ألا تخاف من وجود لاقطات صوت مزروعة بحيطان الزنازين؟

يهمس أوميد ضاحكاً:

- المبلل لا يخاف من المطر ، أنخاف ان يسجنونا؟

تشعبُ حوارهما الى كل شيء واي شيء، أيام الحديقة الكبيرة قرب مستشفى الجوارر وفورة النقاشات عن الفن ورجال الامن.

تذكر (خضر) الآن سؤال (أوميد) عندما كانا في المعتقل:

- نحن الآن في أي جارورة معتقلين: جارورة القومية أم الطائفية أم جارورة الحزب؟

صعد (خضر قد) الى سيارة كبيرة يسمونها (منشأة)، ولمح مقعداً خالياً في عمق السيارة، جلس يدخن فورما تحركت خارجة من كراج (العلاوي). رأى نفسه محشوراً في سيارة الحرب، تغصُّ بالجنود النائمين بشتى الوضعيات الذبيحة التي فرضتها آخر شهقة على الجسد.

بعضهم يثرثر بلغة الموتى، لغة لا يفهمها أحد من الأحياء، والبعض الآخر ساهمون عبر زجاج الشبابيك ، يحدقون في الظلام حيث تعرض شاشات تفكيرهم أفلام الميمات الفريدة والمتنوعة لكل واحد منهم، هي أحلام أموات.

السائق هو الوحيد حي لا يلبس بيرية ولا بدلة عسكرية، رغم ان الكثير من الجنود قد سقطت بيريائهم عن جماجمهم الناشفة البياض، وبقية الجنود لا تزال البيرية تغطي صلعات الجماجم. كل الجنود يوحدهم تعبير واحد في الوجوه، تعبير في أقصى التنافر والغموض: عيونهم حفر سود جاهمة، هي ثقوب سوداء تشرب كل الظلمات ولا ترتوي ، مع ابتسامة موحدة، ملطوشة على الفكين من الأذن الى الأذن ، ليست ابتسامة بل تكشيرة محايدة تقع بين بحر الرعب وبين صحراء الذهول، تكشيرة واحدة مستنسخة فوق وجوه جنود مرغمين على أدائها مثل قدر لا بد منه كصرخة الولادة.

قرر (خضر قد) ان ينزل هنا في هذا المكان المهجور حيث لا اثر لحياة ولا نور على إمتداد البصر، ينزل من سيارة الحرب في هذا الظلام المخيف، ليغير طريق موته، الموت الذي اختاروه له، الى طريق موت آخر هو يختاره ، وصاح:

- نازل... عيني... نازل.

ونزل مثل (كنتور) نزع عن نفسه جميع المجارير.

الفصل الثاني

- ١ -

انفتح باب السيارة (المنشأة) ونزلت في المجهول لا اشعر بالبرد ولا بالخوف، أحمل حقيبة صغيرة فيها ملابس مدنية وسجائر وروايتين: الطاعون ورواية ليلة القدر. أخترق الظلام وأنا أهمس لنفسي بصوت يدوي في أعماقي وأسمع صداه يتموج في وديان الظلام:

- مصير مجهول أجمل من حتف معلوم.

نزلت بعد ثلاث سنوات هروب من الجيش، ضاقت بي بغداد، يوم يخنق يوماً، تنبح عليَّ الشوارع بكلابها الزيتونية. في كل خطوة أدوس لغم الحكم بالاعدام.

ضاقت بغداد وصارت (بطل ببسي كولا) أجلس فوقه عارياً حتى يدخل كله الى الحجاب الحاجز. ثلاث سنين ذات هلع متعدد الفوهات، ومحنة المبيت جعلت قمري أعور ونجمي تعوي، حيث ينبُّ صوت قديم يطوف في ازقة القلب: شعر بنات/ وين أولي/ وين أبات....

فاتذكر شعر (سلامه) اللامع ، يهفهف طارداً وحشة الليل، أتوسده وأنام حالماً أن لا أصحو أبداً.

أنا الآن في وحدة الرصد الجوي في الموصل قرب حمام العليل، إلتحقت لأهرب للخارج بعد ان زاعنتي بغداد من هروب الداخل. إلتحقت قبل انتهاء موعد العفو العام عن الهاربين بيومين:

- عفو بطيز عفو والهاربين أكثر من الدود.

قالها سمير (مراسل) أمر الوحدة وهو يقدم (بطل) بييرة لي . إرتبكت معتذراً عن الشرب وأنا أكتم إندلاع ضحكة من هذه المفارقة الشمطاء: هارب من الحرب ولا أزال بملابسي المدنية، أجلس الآن مع جندي في خيمة دافنة وطعام وقناني بييرة، وبالأمس كنت بلا مأوى وجائع، أرتعد من سؤال مراتب: هويتك أخي؟

ويكتشفون هويتي المزورة ، يقيدونني على عامود أمام فرقة الاعدام، يطلقون (٣٠) رصاصة ويسلمون جثتي الى أهلي مع وصل غرامة لثمن الرصاص الذي خسرتة الحكومة على جبان هارب متخاذل.

وهكذا وضعني أمر الوحدة بين الدفاء والطعام والبييرة وبين نزق رصاص الحرب. إذ قدمني رئيس عرفاء الوحدة الى الأمر فقال:

- ابني ابقى هنا... ساعد اخوك سمير (المراسل) في الخدمة.

لكنني قد اتخذت قراراً سماوياً، قلت ببرود محايد وكأنني أشرح عملية النتح في النباتات:

- إشهر مسدسك الانيق هذا، واسحب رصاصة، وسدد نحو جبيني، ثم اضغط على الزناد... بعدها لن اكون مراسلاً بل مرسل الى العالم الاخر.

إحتقن وجه الامر وسدد بعينيه رصاص الحقن:

- ينقل الى شيروان مازن فوراً. إطلع بره قشمر.

لم أفرح لنلا أكشف عن مخطط لعبتي، لبست قناع اللامبالاة، وصممت قبضتي على مصيري، فهو مثل الزئبق، قد ينسل في اية لحظة ويزوغ الى يد غيري.

هنا لعب مخرج القدر بمفارقة أخرى حين وبخني رئيس عرفاء الوحدة:

- أنت أكبر مخبل بالعالم، الجنود يسوون واسطات حتى يحصلون على (المراسليه)، الجنود ينهزمون من الموت وانت تريده، رايح له، ليش تريد تنتحر؟

هز رأسه اسفاً كمن يريد لشخص أن لا يموت بينما يصر هذا على الانتحار:

- شيروان مازن درب الصد ما رد، ألي يروح ما يرجع منه، السيد الامر وصلته أخبار عنك... انت تحب الفن وشاف انت مو مال حرب.

استمر رئيس العرفاء ينضح نصائح بلا طائل، فهو يطرق على باب قبر، لا يسمع جواباً ولا صدى. ولأنني ملقح بمضادات حيوية للوقاية من رؤساء العرفاء، فهل يعقل ان يكون هذا نشازاً عن فصيلتهم، الفصيلة ذات المهارة فائقة الخبث، وفائقة التدريب الكهنوتي على النفاق، إنهم الفصيلة الوحيدة غير القابلة للانقراض بفضل دهاء وفن غريزة البقاء.

وأخيراً قال جملته الملغزة:

- مناه لباجر الله كريم.

تركني ومضى يبيئ لي أمراً يحوص في رأسه المسلكي من خلال جملته الملغزة، فذهبت الى قاعة الجنود الباردة اذ لا توجد فيها مدفأة ولا (صوبه)، كانت خالية من أي جندي لأن وقت الغداء قد حان، جربت القراءة في رواية الطاعون فلم استطع، كنت افكر بجنس رئيس عرفاء الوحدة وتوغلت الى فصيلتي أنا وكيف تنحدر الى هاوية الانقراض، ربما اكون آخر من يمثل نوعي، إذا مت سيندر جنسي وتنعدم سلالتي، وسيحدث خلل في توازن الطبيعة ، كما ان وجود بهضام وفصيلة حزبه سينتج عنه خلل مريع في توازن الطبيعة، بل هو كارثة طبيعية لا علاج لها، فاما بقاء نوعه وفصيلته وأما بقاء نوعي وسلالتي، أذن هو صراع البقاء.... تخيلت اني أحمل تحت جلدي أجناس أجدادي منذ العصور السحيقة وقبل اكتشاف النار عندما كان الانسان نباتياً ثم راح يفقد الحيوانات الضارية في تمزيق ومضغ اللحم النيئ. ان اكتشاف النار أعظم من اختراع اديسون للمصباح الكهربائي. قبل اكتشاف النار اثناء النهار كان جدي لا يستطيع ان يغفل لحظة واحدة عن الخطر المحيق به، يبقى مشدود الحواس دائماً، في منتهى الحذر، كل شيء في جسد جدي يدافع عنه بين محافل وحوش واجناس مخلوقات لا

نهائية العدد والتنوع، وجميع آكلات اللحوم تتربص بجدي لأنه أذ واشهى هذه اللحوم، مُقشر سهل الهضم. يقضي نهاره منذ شروق الشمس العظيمة وحتى غروبها في دوامة قتال شرس بين أشداق تنفتح عليه من كل مكان، يتصارع مع كل ما في الوجود من أجل الشهيق والزفير وملء الكرش للحفاظ على نوعه، ومن أجل شهوة الحياة الطافحة بالأسرار، وكل غايته ان يبقى رغم انه لا يفقه: لماذا يجب ان يبقى؟

انه مقذوف من المجهول الى المجهول، وفوق كل هذا كان أعزل بلا مخالب ولا انياب ولا قرون، دون أي سلاح سوى غريزة عقل تتحدى الإقراض. المحنة حين يداهمه الليل بوحوشه واشباحه، لا مأمّن ولا استرخاء له حتى في الغار والكهف، بين أنواع واشكال الافاعي والحيات والعقارب وحشرات بلا أسماء.

هل انا خارج مدار هذا الصراع، وكيف أتملص من الفناء وتكرار العدم؟ أين ملايين البشر، مليارات البشر؟ لقد ضاعوا، ضاعوا في صراع واحد ومصير واحد، إذن كيف أفلت وأنفرد من هذا الصراع وهذا المصير، كيف انتشل وجودي من هذا العدم؟

مرات كثيرة اتخيل اني عشت قبل آدم بعمر سرمدي طويل، هو عمر البشرية بحيث تغطي تجاعيد وجهي سطح الكرة الارضية، وجه أكهب ذو إحتضار مزمّن حتى مللت من التنفس وتعبت من الأكل ، تسكن في كرشي قطعان حيوانات منحورة، فأنا لم أصبح نباتياً وأمتنع عن أكل اللحم إلا في طهران، في (كوچه مروي) حينما كنت وصديقي (لازم) من اهالي الموصل، نبيع (المعلاگ)، لازم يذهب يوماً قبل شروق الشمس الى القصاب، الذي يذبح الخراف في حوش بيته، يشترى لازم منه (المعاليك) والقلوب والكلى فقط. صديقي لازم كان يعفيني من هذه المهمة ويراعي اشمنزازي وقرفي من ذبح الحيوانات، لكنه ذات يوم مرض بزكام حاد فاصطحبني معه لحمل كيس (المسواق). وصلنا بيت القصاب وكانت عشرة خراف تنتظر حتفها على ارضية الحوش المصبوبة بالاسمنت. تناوش القصاب الخروف الاول، وبألية وخبرة، ذبحه وسط الحوش. رأيت بقية الخراف تتحاشك، الواحد يختل خلف الآخر، البعض يلوذ بالبعض في كومة صوف متداخلة لا منفذ لها بالفرار من هذا المصير المائل أمام أعينها. تناوش الخروف الثاني والثالث والرابع، ذبحهم والبقية تتدافع في الزاوية البعيدة للحوش حتى ذبح الخروف التاسع . لم يبق سوى الخروف الاخير، أين يلوذ، بمن يحتمي؟ فرأيت المنظر الذي حفر في ذاكرتي عميقاً، وانفجرتُ غيضاً ومقتاً للبشر: تقدم الخروف الاخير بهدوء واستسلام أذهل القصاب ، هذا القصاب غليظ القلب والخبير المتمرس في الذبح. إنطرح الخروف وتمدد على الارض في مكان الذبح وسط الحوش. أسبل قوائمه ، رفع رأسه ليظهر ويبرز رقبتة، جاهزة للذبح. فتقدم القصاب يهز رأسه بغموض، لكن بلا رجفة ولا رافة تقدم نحوه وذبحه. من يومها وحتى الآن لم انق طعم اللحم. وصورة ذلك الخروف في تفردّه ومصيره عاش في الذاكرة يرفس الى الابد.

أقبل عليّ رئيس عرفاء الوحدة صباحاً، تلقاني يتبختر بكرشه الصغير ويغمز بعينه فرحاً كمن وجد علاجاً لمرض السرطان وصاح مستبشراً:

- الجومان... نقلتك الجومان، خلصتك من عقوبة (شيروان مازن) حضر نفسك وأغراضك وتعال لغرفتي.

لكنني سأكتشف من خلال حديث الجنود في ربيثة العقق: ان الراقصة (رياحين) هي التي نقلتني الى المرصد الجوي في مدينة (جومان)، بعد زيارتها للسيد الأمر قبل إلتحافي بيوم واحد، ورجته ان ينقل ابنها الجندي من (جومان) الى بغداد أو الموصل، فتم استبداله بي حين لمح رئيس عرفاء الوحدة للأمر بأنه لم يجد بديلاً للجندي ابن الراقصة رياحين (لماذا لا نستبدله بهذا الجندي الذي التحق قبل يومين وعاقبته بالنقل الى شيروان مازن).

انطلقت سيارة ال(إيفا) بنا - السائق ورئيس عرفاء الوحدة وانا بينهما - راحت تتغير ملامح الارض شيئاً فشيئاً كلما توغلنا صعوداً وكذلك الجو فمرة غوص في قاع الارض ولبها الدافئ، ومرة نسبح بين السماء والارض في موج غيوم متلازمة، كنت مسحوراً بالجبال المنعزلة تتحلق فوق قممها غلالات مخمل، رأيت شلالات فضة مصهورة تنداح الى وديان بلا قرار. أنا لم أشاهد كوردستان الا من خلال الصور والتلفزيون، اما وقد توغلت فيها الى هذا الحد الخلاب الفاتن فذلك حلم مستورد، خاصة منظر الثلج الناصع المتكوم فوق حافات الطرق والذي اراه للمرة الاولى. فجأة دخلنا في هذيان مطر لا أمل في انقطاعه، جعل الرؤية مضطربة وأربك الوقت إذ اختلط الفجر مع النهار والمساء وسيارة الـ (إيفا) مدفونة بشبابيب المطر، يصعب عليها السير متراً واحداً لولا طيش الجندي السائق وخبرته في تلمس الطريق مثل الأعمى. كنا صامتين متسرّنين ننطلق داخل إسطورة أيام الطوفان السبعة، لكن هذيان المطر بدأ يتحول الى ندف قطن ينهمر بكثافة وماسحة الزجاج قد تعبت وتراخت. تزداد ضراوة الوفر كلما توغلت السيارة اكثر ولم تتوقف الا بقلب العاصفة الثلجية. كيف امتص الصدمة وأنا أنطُ بفقرة قدريّة من غبار مدينة الثورة الى عاصفة ثلجية في مدينة (جومان). أرى الوفر لأول مرة وتطمس قدمي في رغبة الثلج لحدّ خصيتي، أنفوس هواءً جارحاً من شدة نفاوته، هواء لم تصادفه رنتي ولا مرّ على خشمي. أخوضُ بالثلج بين رئيس عرفاء الوحدة والجندي السائق وقد غطاني الوفر بالكامل، بدأت قدمي تخدر وتتثلج والوفر يلسعني أينما وليت وجهي. كل واحد منا يحمل كيساً أملح وبنديقية نصعد الى آخر ربيّة على حافات مدينة (جومان) وليست شيروان مازن كما هددني الأمر حين رفضتُ بذخ حياة (المراسل) وعفونتها النفسية. لم أعد أحتمل هذا الطقس الناعم الشرس، أكابُرُ على سقوطي الوشيك واشعر بدمي يتبخّر. بركت على ركبتني وطمست بالثلج الهش الى الخاصرة لا انوي النهوض حتى لو جاءتني الدبّة تسرقني فحلاً لها وتلحس باطن كفيّ وقدمي إن فكرت بالهروب من كهف الزوجية وأنا بلحية أطول من لحية بابا نويل. لن اقوم حتى لو جاءت (سلامه) حبواً على الجليد، تتوسل بي ان الحبّ يجترح المستحيلات. رأيتُ أبخرة أنفاسي مثل لون الفولاذ، كما رأيتُ الجندي السائق ورئيس عرفاء الوحدة وهما يبتعدان عني مثل شبحين من اللبن، يبتعدان بلا كلام ولا حس ولا حركة، في غموض قاتل ولا مبالاة كابوسية، يبتعدان حتى غابا واختفيا داخل عاصفة من الريش الأبيض. إستسلمتُ الى لذة الخدر وتعوي في دمي ذكريات عن المستقبل، مستقبل ضبابي أنزلق عليه حيث بدأت أحسُّ بالخفة وبالارتياح من عبء جسدي وحاجاته التي لا تشبع ولا تقنع، أرتاح من الخوف والخطر وهما يخرجان من منخري، استمر في الانزلاق وأنا أشف وأخف متحولاً الى روح صافية لا اثر لحبة تراب واحدة فيها، تحيطني غلالة زرقاء زرقاء... سمعت أصواتاً تأتيني من مجرة بعيدة من عالم آخر، أصوات تنده مع لكزات ووخزات حتى فززت من رحلة سحابية في زورق نسيان خلاب، صحوّت وكنت جاثياً على ركبتني، عن يميني ويساري منكر ونكير يلبسان بدلة عسكرية، يفضان الثلج عني ثم يسحلاني صعوداً الى ربيّة

العقّق، أحدهما يحمل بندقيتي والآخر الكيس الأملح، أشعر بأني مسحول تغادرني أطياف
غفوتي وبقايا لذة الخدر.

دخلت الى مكان دافئ ورموني فوق سرير، خلعوا لي البسّطال ونمت نوماً إسمنتياً ولولا
إمتلاء مثانتي بالبول لما صحت أبدأ. بدأت الوقت من ضيقي وحصره البولة أيقظوني للعشاء
فأنا لم أتناول لقمة واحدة منذ الصباح . خرجت للتبول بعيداً عن المكان الدافئ وكان الظلام
يسترنني ويخفيني والعاصفة الثلجية تلاشت نهائياً، إرتعدت بقشعريرة وأنا أخرج عضوي
للتبول، انصعقت: كانت النجوم تحتي، فلم تنزل قطرة بول واحدة ، ورجعت الى المكان الدافئ
بسرعة مذهولاً، تلعثت خجلاً وحيرة حين سألوني مستغربين:

- هل تبولت؟

اجبتهم مرتبكا:

- لا.. النجوم... النجوم تحتي.

ضجوا بضحك صاخب زاد إرتباكي فابتسمت بتكشيرة حصان، قال احدهم وهو يسخن
الصمون:

- إنها بلدة جومان، فلم تنقلب الدنيا بعد.

الميز

الريح الحمراء تتدافع مع كريم كشكول الذي يحمل كيساً صغيراً فيه صمون وعلبة لحم. الريح
تدفعه للوراء وهو يدفعها للأمام حالما نزل من السيارة، يهّم للوصول الى بيت أخته الذي كان
فارغاً قبل أن يسكنه ويبيت فيه بين فترة وأخرى بعدما اتفق معها، لكنه فكر بـ(خضر قد) حين
فكر بهذا البيت ليأوي إليه ولو في أيامه الأخيرة هنا ببغداد قبل ألتحاقه بالجيش. كانت الريح
عصبية تشبه مناخ العالم السفلي الذي تخيله السومريون على هيئة تجويف في أعماق
الارض، تهيم فيه (الأطمو) روح الميت على شكل طائر تبعثره الريح الغبارية.

لكن كريم لم يرَ (نمتار) وزير العالم السفلي بل رأى شخصاً أمامه يجرّ شيئاً طويلاً مثل القنفة،
رآه حائراً لا يعرف كيف يحمل أو يسحل هذا الشيء الطويل، تتعارك معه هذه الريح العصبية
المحملة بذرات غبار تخر الوجه واليدين، كأن الصحراء كلها انقضت على بغداد وضواحيها
في هذا الغروب المشوي، تبعثره الريح الى كل الاتجاهات فيجلس فوق هذا الشيء الذي يشبه
القنفة بعدما يملّ من الحيرة، ثم يعود ليسحله خطوة ويتوقف متطلعاً حوله كمن يريد أن
يساعده أحد لكن الطريق مقفرة وكريم وحده يتقدم راکضاً ليتناوش البيت هرباً من هذا الجو
المسعور. إقترب منه وهو يدور حول هذا الشيء، أخ... هذا (خضر قد) بقبعته التي لا تطير
ولا تسقط عن رأسه رغم هذا العصف المجنون. تصافحا وكريم كشكول مندهش يعاين هذا

الشيء المتورط به: إنه (ميز) طويل واطى، سواه نجار غشيم لا يستحق هذه الحيرة وهذا الغناء، و (خضر قد) مصرّ على حملته وسحلته، فسأله فوراً:

- ما هذا وماذا تفعل به في هذا الجو الخرائي؟ من يراك من بعيد يظن أنك شبح نبع من زمان دقناووس. لم أر هذا الميز من قبل ثم إنه ثقيل؟

ردّ (خضر قد) بين الجد والهزل:

- ألا تراه... إنه ميز، ميز حياتي، وأنا كفيل به. الليلة سأفكّ لغزه.

ضحك كريم كشكول وحملا الميز معاً كل واحد من طرف بمشقة حتى وصلا البيت. فتح (خضر قد) الباب الخارجي وأدخلا الميز الى الغرفة الوحيدة المستخدمة للنوم وللطبخ والاستحمام إضافةً الى مراحيض جنب الباب الخارجي للبيت قرب حنفية الماء الوحيدة. غسل كريم وجهه وفرك عينيه من الغبار والحصى الناعم بعد ان كفت الريح عن صفعه ورفسه، بينما ملأ (خضر قد) قوري الشاي بالماء ووضع فوق (الصوبه) بعدما أشعلها.

أنير هذا البيت الذي قرب مقبرة (محمد سكران) في الراشدية مع بيوتات متفرقة هنا وهناك في منطقة جديدة تسمى (الحسينية) في ضواحي بغداد من الشمال الشرقي. شربا إستكاني شاي بعد العشاء، واشعل (خضر قد) سيجارة سومر وقال:

- هذا الميز آخر أعبائي عليك، وكما يقول أهلنا: أمانة الله ورسوله عندك، الميز أمانة في عنقك، فيه دفاتر وأوراق كتبتها منذ سنين وحتى يوم أمس. لا تهمني قيمتها لكنها إرشييف حياتي ومنطقتي وارشييف العراق وهذا العصر. هنا الفتحة السرية لإدخال الدفاتر والأوراق. اذا لديك رغبة لزيادة رصيد هذا الميز، أكتب كل يوم ورقة أو ورقتين لما يحدث لك وما يحدث في المنطقة وفي العراق، مثل اليوميات، أكتب أي شيء كل ما يخطر على بالك. ولكن: لا تفتح الميز إلا بإشارة مني.

سأل كريم كشكول متوجساً:

- هل الأوراق والدفاتر فيها خطورة؟

ردّ (خضر قد) بسرعة متهكماً:

- هل يوجد في العراق شيء يخلو من الخطورة؟ حتى الاطفال خطر، إطفالنا خطر علينا، كم من طفل صغير أعدم أباه ببراءة، أعدمه وهو لا يدري ماذا فعل:

بابا يتفل على بهضام كلما يطلع بالتلفزيون. بابا ضرب صورة بهضام بالنعال. بابا يطرنا كلما يفتح الراديو، ينبش على إذاعات بعيدة.

كريم انت تعرف كل هذا وتعرف كيف نتحاشى الأطفال عندما نذكر بهضام ورجال الأمن، تصوّر نكاء الاطفال وصل الى أي حدّ، تصوّر طفلة عمرها ست سنوات، انت تعرفها (إخلاص) أخت ناصر نابت الصغيرة، كنت أمزح معها وأسألها بهذه الحزورات المعروفة والتقليدية، قلت لها:

- ما هو الشيء الذي يتبعك أينما تذهبين؟

انه الظل كما هو معروف لكنها أجابتنى جواباً مذهلاً فقالت:

- الأمن. (تعني رجال الامن والمخابرات والرفاق الحزبيين)

ضحكنا انا وناصر من جوابها لكنني سألتها بحزورة أخرى فربما تكون أجابتها تلك مصادفة وضربة حظ، وقد كانت الحرب العراقية الايرانية في أوج ضراوتها، قلت:

- ما الشيء الذي نذبحه ونبكي عليه؟

الجميع يعرف انه البصل لكن... تصوّر بماذا أجابت:

- الشهيد.

تلك الليلة شهدت آخر لقاء بين كريم كشكول وصديقه (خضر قد) بقيا ساهرين مع حديث طويل تأخر الى أذان الفجر وناما.

استيقظ كريم فلم يجد خضر، هو متعود على شطحات ونزوات صديقه فلم يهتم لخروجه المبكر، تذكر ضاحكاً أجوبة (إخلاص) اخت ناصر على الحزورات وأسترسل مبتسماً يتمشى في دروب ذاكرته حتى وصل الى الحديقة الكبيرة وهو لا يزال ممدداً على الفراش حتى انفجر ضاحكاً من لقب (قد) الذي التصق باسم (خضر) إثر الحادثة التي تشبه مشهداً مسرحياً. عندما كان خضر يدعي الجنون: في الحديقة الكبيرة جنب مستشفى الجوارر وقد امتلأت بناس من كل الاعمار، شباب يلعبون كرة القدم ويلعبون مصارعة ومنهم من يقرأ ومن يتناقش على شكل حلقات حلقات تضحّ بالأطفال والصبيان والشباب، حلقات الشيوخ في مقدمة الحديقة قريباً من الشارع العام، وفجأة سمعوا شخصاً يثغب، ينوح ويولول:

- يا بويه... يا خويه... يا جواد سليم يا خويه... يا نصب الحرية يا بويه...

ثغيب يجذب التائه، وجدوا (خضر) يجلس فوق كومة حصى في مؤخرة الحديقة قريباً من سياج مدرسة ذي قار، وجدوه ينوح وهو يحدق بصورة نصب الحرية في الباب الشرقي منشورة في إحدى المجلات، وجدوه يبكي بحرقة من مات أخوه توأ: يا جواد سليم يا خويه يا نصب الحرية يا بويه...

وكان بين من حضروا رفيق (موحان) الذي تقدم يخاطب (خضر):

- انت شاب لطيف ومثقف... شببك مخبل نفسك وصاير مضحكه ونصبه؟ تواعدني تبطل هذا الخبال؟

وخضر يجيب:

- قد.

يعاود رفيق (موحان) حديثه بنفس النغمة:

- إذا انت تعبان نفسياً... تعال وياي لمستشفى ابن النفيس لو نروح الطبيب اختصاص... تجي؟

وخضر يجيب:

- قد.

- يا أخي حرامات اتروح بالرجلين وتضيع شبابك، انت تدري بنفسك لولا؟ أخاف يغلفونك لو ايطكوك بالدهن، والناس ما تدري انت صحيح مخبل لو عاقل؟ انت تضحك على الناس لو الناس تضحك عليك؟ خضر عيني لا تخلي الناس تضحك عليك، ولا تضحك انت على نفسك؟

- قد.

واستمر الحوار هكذا، رفيق(موحان) يتكلم بالعامية القح، مرة يخاطبه بلين موارب، ومرة بتهديد ووعيد، بينما (خضر) لا يجيب إلا ب(قد) الفصحى الملتوية حتى ضجّ الحاضرون بضحك متهتك لا يستر عورة ولا يلبس عليه ثوب.

ومنذ تلك الحادثة إلتصقت (قد) بخضر أينما حلّ وارتحل . كما أن (قد) تعني بالمفهوم الشعبي (الجديد)، الجديد الذي لم يمس ولم يلبس مثل البيضة المسلوقة الخارجة توأً من قشرتها، تغير معنى (قد) الى معان أخرى لا تمت بصلة للحادثة في الحديقة الكبيرة، فصار اسمه غير معروف ولا مألوف بدون لقب (خضر قد).

- ٢ -

تعودت على مزاج الثلج خلال الايام الاولى في ربية العقق - لا أعرف من أين جاءها اسم العقق وكذلك بقية الجنود، الذين يقولون وجدنا اسمها هكذا قبل مجيئنا - بقيت شهراً وانا أتقمص شخصية بطل فلم (درسو أزولا) للمخرج كيرا ساو، وبدأتُ التدرّب على ترويض الجبال لخطواتي، عرفتُ شخصيتي الى تضاريس المنطقة: أصافحُ الجبل المدخن والفارد جناحيه على أبنائه وأحفاده الصغار، أصافحه وأقول:

أنا خضر قد، وانت ما هو اسمك الحقيقي فالجنود يسمونك جبل سكران، لم أقتنع بهذا الأسم المعرب كما لم أقتنع بأسم جبل (دايخ) صديقي الذي يقابلك. رجاءاً إكشفوا لي أسماءكم الحقيقية مثلما أعطاني جبل (حصار روست) اسمه الحقيقي. لأن فلسفتي في التعارف على الآخرين، وعلى شخصيات الطبيعة والمدن والدروب غير معقدة ولا صعبة، أقول لنفسي: أن أعرف الطريق، لا يعني أنني وصلت ، ما لم أعرفه بخطواتي. أن أكتشف الجمال، لا يعني أنني جميل، ما لم أتزين به. لذلك انتم الآن أهلي أيتها الجبال والوديان والتلال والوهاد، أنتم أبي وأمي، انتم أخوتي وأقربائي واصدقائي، انتم دروب وجودي وخلصي.

حسبني الجنود مخبولاً وأنا أصعد الى جبل وأنزل الى وادٍ، أهمس للصخور وأكشف اسرار هروبي للثلج كما فعل الحلاق في مسرحية (الطاعون يعسكر في المدينة) وهو ينبش الارض

ويبوح لها بسر الملك. ثم حددت مكان شروق الشمس لأنني أجهل طريق الهروب الى إيران خلال شعاب الجبال والوديان جهلاً ساحقاً مثل أعمى في قارة جديدة. لكنني اكتشفت نفسي عندما هبطت الى مركز مدينة (جومان) وكيف رأيت أخوتي أبناء جلدتي أهل (جومان) يتحاشونني ويتهربون مني رغم أنني لا أحمل السلاح فقد خالفت الأوامر والتعليمات ونصائح الجنود بعدم التجوال في المدينة دون سلاح. أكتشفت أنني جندي في جيش احتلال. آيباخ... كم قاسيت من خزي بدلتني العسكرية، بدلة جندي محتل، كيف اوضح وأشرح لأهالي جومان من أنا وما هو موقفي، وكيف يعرفون بانني مثلهم تحت الاحتلال أيضاً؟ جسدي بالكامل يزرح تحت إحتلال البدلة العسكرية الخرائية، لذلك ألبس ثيابي المدنية تحت هذه البدلة البشعة، لكي أحمي اللبّ الأنساني تحت قشور الإحتلال.

جلست في أحد المقاهي وطلبت إستكان شاي فنهض اثنان من الجالسين وانصرفا. شربت الشاي بمرارة ساخنة كمن يرى نفسه حملاً ويرونه ذنباً. في تلك اللحظة نضجت تماماً في ذهني نية الهروب، وبعد ان كانت مجرد برعم صارت الان زهرة، وفاحت رائحتها من غابة صدري. اشتريت (تكة) سجائر سومر وبعض السلع المهربة للتمويه على خطة هروبي أمام معشر ربيبة العقق. واشتغل (فديو) خيالي وأنا أصعد جبل ربيبة العقق، إذ حالما أطأ أرض إيران سوف يستقبلونني بأذرع من الريش وحفاوة تفرح الافاق: أنا استحق هذه الحفاوة وأستأهل هذا التكريم، ليس فقط لانني تعمدت الجهل في كيفية اطلاق الرصاص واحتقار السلاح، بل لأنني أتفرز من البدلة العسكرية ومن كوني مجرد رقم هو بديل وجودي الانساني، وتكبدت أفدح ثمن لعدم محاربتني عدواً لا أعرفه، وتخيلت الايرانيين قوماً من طين نفيس لا هم من البشر ولا هم من الملائكة، يرمون عليّ الورود والأزهار لأنني ضحيت بأعز الناس على قلبي، تركتهم ورائي يخوضون في مصير مجهول، تركت أهلي وأصدقائي ومدينتي ووطني وسلامه، رميتُ بنديتي الـ(صر مهر) ولم أطلق منها رصاصة واحدة، بصقت على الجندي الذي كنته. تخيلتهم قوماً ينظفون الهواء من رائحة البارود وأنفاس الحرب، يزرعون الصلاة شدواً وشذى في كل شبر تراب. حالما أعبر الحدود تطلُّ سماؤهم باللزورد، مياههم لا تُغرق، حجرهم لا يחדش، كهرباؤهم لا تصعق، وأشجارهم ترفع اغصانها للسماء، تتضرع ان تهطل شأبيب الحبّ والسلام على الأرض، حتى حقولهم يتفاوح منها بخور السحر والمعجزات. حالما أعبر الحدود سوف أنفض عن روعي غبار القبر وسوف أفلي رأسي من قمل الرعب وصنبان القلق، واستنشق هواء الحرية بملء مساماتي.

هكذا تصاعدت دراما خيالي وأنا أصعد الى ربيبة العقق، وبسرعة وعلى غفلة مني تكس الظلام فصار كل شيء مخيفاً، ينبض بالخطر، ما كان في الضوء صخرة تحولت في الظلام الى دُبة، والنبتة اليابسة والمغطاة بالثلج صارت ذنباً، يتحين فرصة للانقضاض عليّ. صار كل شيء بهيئة حيوان او شبح أشمّ فيه رائحة الخطر. كل صوت أتوهمه نخرة وحش، أسمع زفرات وشخرات تتفرقع هنا وهناك.

اسرعت الخطى وأنا أصعد وحنس الظلام يتكاثف حولي ويطوقني فيعصرني الخوف والتوجس. كشُّ جلدي وتملئت فروة رأسي: ها ها هو بوز يتشمم ساقي... بوز ثان يتحسس ريلة ساقي الاخرى... بوز ثالث ينخر ورائي، فأيقنت هول المازق وأن الامر ليس مجرد أوهام الظلام، التفتُ بهدوء النفس الأخير لأنني ممزق موزع وذرة وذرة في كروش الضواري.

التفتُ فاطلقتُ زفرة ارتياح مشحونة بالسخط : إنها كلاب ربية العقق الثلاثة، قد تبعني منذ تراكم الظلام الحندس، فقادتني ودلنتني على مكان الربية.

استقبلني بعض الجنود وهم قلقون عليّ فاكتشفتُ حبههم وحرصهم عكس الجنود والمراتب في المطار السري فوق اللطيفية، هنا شاركهم قلقهم البشري واختلطت معهم في مصير واحد من خلال بث الهموم المشتركة التي تفترسنا كبشر وكجنود:

تربص الموت، تعسف الجيش وعبثية الحرب، مع تفاصيل حياتهم الخاصة. كما انني لم أنزل عنهم كلياً بالقراءة، إذ لم أقرأ صفحة واحدة من كلا الروايتين، فقال (لعبيبي) جندي من أهل الديوانية وهو يضحك:

- ردنا نسجلك بالخسائر، وانزلك من القدر.

بدأت مشاوير علاقتي بجنود ربية العقق منذ ليلتي الاولى معهم حين رأيت النجوم تحتي وانا ذاهب للتبول، واستغرقتنا بضحك دمعته له العيون لكوني بديل الجندي ابن الراقصة (رياحين). واحصينا فوائد الرقص وحكيانا طرائف ونكات خليعة ماجنة عن الراقصات، طبعاً لم نعرّج على الرقص في التلفزيون حين تتصاعد حمى وطيس الرقص مع ازدياد ضراوة القتال في الجبهات. ولم أفصح نفسي كيف رقصت يوم أمس داخل غيمة: كنت أتطلع صوب ارتفاع الشمس من جهة الشرق وانا في واجب (الرصد البري) واذا بغيمة تغمرني وتلفني فلا أرى أحداً ولا أحد يراني، قفزت في الهواء محلّقاً بذراعي كما يتمايل الهدهد وهو ينتقي المكان الذي سيحط فيه، رقصتُ كمن إكتشف سرّ الماء، شعرت بلذّة لا تقاوم حين اخترقتني الغيم، أول غيم يلامس جسدي ويتسلل الى روحي، لأمس وجهي وكفي رذاذ متبخر بارد، أفقدني عقلي سحر التلامس وغبت مخطوفاً ارقص أنبض كائي كلي قلب يرقص في قلب الكون، غير آسف على ما فات ولا يهمني ما هو آت وما سيأتي، أتمايل أطوف أسبح أحلق وحيداً أتماهي في لبّ نشوة خارقة لإكتشافي سرّ الماء الراقص الذي قادني لاكتشاف سرّ الوجود، حوالي سبع الى عشر دقائق وأنا أدوب رقصاً داخل غيمة.

كنا ثلاثة جنود واربعا نائب ضابط من أهل الحويجة، نشغل على جهاز الرصد الجوي، أسمعهم ينادون بعدما يضغط المنادي ويفتح بعض الأزرار ويتكلم في لاقطة صوت حين يسمعون طائرة تحلق في الجو: صوت حربي بعيد. ثم يحدد المنادي الجهة التي جاء منها الصوت.

كلفوني بمهمة (الرصد البري) العياني خارج الربية. هي نزهة وليست واجباً لولا البرد الناخر في العظام، أجلس بين صخرتين وأخطط للهروب دون إلحاق الأذى بأي شخص هنا في ربيبة العقق وهناك في بيت أهلي. أحاول أن أجعلهم يعتقدون بأنني مفقود وليس هارباً.

اما بقية الجنود في الربية فهم من المشاة والمخابرة وجنود مدفع الهاون ومدفع رشاش مقاوم للطائرات أحادي السبطانة. مجموعنا لا يتعدى الـ (٢٥) فرداً إضافةً الى أمر الربية وهو ملازم اول يكبرني بعشر سنين لا يغادر غرفته الدافئة إلا اذا قصفونا.

بذات الليلة الكلبية التي دلتني فيها الكلاب الى الربية، دوى انفجار قريب منا، تضخمت
أصداؤه بين قمم الجبال، خرجت مع من هبّ من الجنود ورأينا حريقاً مندلعاً تحتنا في معسكر
جومان، هاجمه الـ(بيش مركة) بقذائف الـ(R.B.G.7) .

لمحتُ شخصاً سميناً يمتطي سهوة المدفع الرشاش الاحادي في الظلام، راح يمطر بلدة
جومان بالرصاص، رأيت نجوم جومان تنطفئ واحدة تلو الأخرى فصرخت به:

- لا تضرب البيوت... لا تضرب الناس...

لكن يداً إمتدت في الظلام وسدت فمي بقوة صاحبها همس مرتجف مكتوم:

- إش... باجر يعدمونك لو سمعوك ، باوغ بعينك وسدّ حلكك.

ثم انسحبت اليد وصاحب الصوت وذاب في الظلام بين الجنود، بينما كنتُ أغصُ بجمرة
انحشرت في بلعومي وأنا أرى انطفاء نجوم جومان حتى غرقت المدينة في ظلام حندس.

في الساعة الثالثة قبل الفجر حيث موعد إجازتي الشهرية، استيقظت قبل الجميع ولبستُ ثيابي
المدنية تحت البدلة العسكرية، دحست في حقيبتي الصغيرة ثلاث علب لحم تحسباً من نباح
كلاب ربينة العقعق، ملأت معدتي برغيف خبز وبيضتين وخرجت أستطلع الجوّ وأروز خطوات
جندي الحراسة ومن يكون. رأيت القمر ساطعاً بأبهى حلته المسرحية، يؤدي دوره الى آخر
حوار مشع وسط قاعة السماء، القمر البطل لا يزاحمه أي من نجوم (الكومبارس) ، يرسلُ
منلوجه الباهر من مسرح السماء، لا ينافسها سواي، كنت نابتاً قبالتة على مسرح الأرض،
وأنا ألمحُ من بعيد قافلة غيوم تتهادى، يستدرجها قلبي الفائر، فتلبستُ شخصية عدو القمر
وصحت كاظماً غيظي:

- أي معجزة سماوية تمحوك فلا أراك ولا تراني، إنخسف يا عدوي الساطع ولا تفضح سرّي
او تكشف أمرى أمام الغافلين، أي لعنة سديمية تصبها فوق رأسي فلا تنقطع شأبيب لعابك
الفضي. يا صديقي اللدود إختف الآن ودع الظلام يبلغني فيعبر بي صوب ملكوت حرיתי
وانعتاقي ، كفاك تحديقاً فيّ واغرب عن ظلمتي..ها..ها تعالي ايتها الغيوم تعالي... هلمي
وامسحي القمر، أنت درعي،صدي عني سهام الفضيحة فأنا مسكين أعزل، وحيد كما الله، بلا
دليل ولا خريطة ولا بوصلة ، سأهيم في متاهة الثلج وحدي، تعالي يا غيوم والحسي جسدي،
انت طاقية الإخفاء السماوية، ضعي كيساً أسود في رأس القمر حتى لا يراني أحد، هو أعمى
وأنا بلا دليل أعمى:

- أعمى ايكل لعمى / خل نشترى جما/ الجما طلع خربان/ هذا نصيب العميان.

رجعتُ للربية تاركاً زحف الغيوم لمشيئة الريح والقدر، دخلت غرفة الرصد الجوي متحاشياً
إيقاظ أحد، وضعت (تكة) سجائر السومر في الحقيبة مع رواية الطاعون ورواية ليلة القدر
تحت علب اللحم. شربتُ إستكان شاي وأشعلت سيجارة بانتظار معجزة الغيوم ورحمتها.
خرجت ثانية استطلع فرايت خيول الغيوم الأمامية قد محت ربع القمر وهي تزحف ببطء.

دخلت للربية ناسياً سلطة الواقع الحديدية، معانقاً حلم الهروب. تلقفت الحقيبة وتركت البندقية والبسطال . رأيت الحرس - ربما كان اسمه جليل - فاقنعتة باستباق الجنود المجازين لانهم ينزلون الجبل بسرعة فائقة، لا يستطيع اللحاق بهم. إستحسن الحرس الفكرة ولكن بارتياب فقد حك رأسه، حتى راودتني الشكوك به فيما بعد : هل هذا الجندي هو الواشي؟

اطبقت الغيوم بريشها الرمادي على القمر وانطفأت الاضاءة في مسرح الارض.

نزلت مرحاً وكأنني فعلاً سأقضي إجازتي في البيت مع أمي وأبي وأختي، سوف ألتقي (سلامه) واحكي لها عن الجبال البيضاء بثلجها الناصع وكيف تتلون بالذهبي والوردي والازرق، جبال وديعة في النهار مخيفة موحشة في الليل ، جبال تجلس فوق الارض بمختلف الوضعيات وهي تتجاذب أطراف الصدى، غارقة في هذيان أحلام لا تنقطع.

ضيعت فتحة العبور الى الشارع، يا إلهي وين ولت (أين اختفت)، بقيت ألفاً وأدور حول قاعدة الجبل ثلاث مرات فلم أعثر على الفتحة. الوقت يداهمني، هو وقت لا وقت لديه. أخشى أن يشق القمر ستارة الغيوم ويصيح لسان ضوئه:

- إلزموه... يريد ينهزم... هذا فرار... إلزموا الهارب.

لذلك تمددت فوق منحدر شاقولي أعلى بقليل من شباك البيتونة لبيت (سلامه) عندما انخرطت فوق الحائط المكشور إثر اندلاع معركة البزازين .

انسدحت على ظهري وانزلت حتى الشارع ، إكتشفت لاحقاً أن هذا المنحدر هو المكان الوحيد في قاعدة الجبل غير ملغوم عدا الفتحة التي ضيعتها، يستحيل تسلقه لا من البشر ولا من الحيوانات.

عبرت الشارع الى الوادي الاسحم، الذي لم أراه طوال فترة وجودي في ربية العقق. تلمست الارض المتلوجة لأضع قدمي فقد دخلت في ظلمة ساحمة لم تصلها قطرة نور واحدة منذ فجر الخليقة وحتى خطوتي هذي، هو تجويف وادٍ نحس لا تنوشه الشمس صيفاً ولا شتاءً. ثلاث ساعات وأنا انزل بيدي وقدمي، أتلس اولاً ثم اضع خطوتي. لأول مرة أدرك فيها معنى العالم السفلي وهبوط الارواح الضالة فيه. وصلت قاع الوادي ورفعت رأسي للسماء، لا غيوم ولا ربية العقق، لكنني كنت قد حددت مكان شروق الشمس فاستدرت، أعطيت ظهري لبغداد ووجهي صوب إيران، نقلت اول خطوة للهروب وإذا بكف تمسكني من الخلف، كف تشبثت بي واخترقت أصابعها بلوزتي الصوفية قرب خصرتي، تجمدت - وقع الفاس بالراس - تسللت من صدري ورأسي أبخرة معنوياتي العالية مثل منطاد ثقبتة رصاصه تائهة وراح يفقد توازنه بينما كنت قبل لحظة اترنم هامساً لنفسي: إذا غامرت في شرف مروم/ فلا تقبل بما دون النجوم/ قطع الموت في أمر حقير/ كقطع الموت في أمر عظيم.

والان تبددت نخوتي لنفسي وتبيست تمثالاً من الهلع. هيات نفسي لأرذل موت، سوف تنهال عليّ أذع الشتائم مصحوبة بوابل من البصاق: تشكلت على الفور محكمة عسكرية في قاعة خيالي، نزعوا بيرتي ونطاقي، شدوا يدي بقيطان حدائي، سحبت أقسام ثلاثة بنادق وطارت خفافيش من تجويف الوادي النحس.

سال عرق من رقبتى، ونزل على امتداد العمود الفقري، جسدي يودعني بدمعة طويلة طويلة بطول قطار الرمد حين يركض بي أخي الكبير (مكي) يحملني بين ذراعيه وأنا يخيظ عيني الرمد، يركض بي حالما تسمع أمي عويل القطار من بعيد :

- يمه أجي القطار، شيله حتى يفتح عينه. وفعلًا كنتُ افتح عيني من جلجلة القطار الطويل الطويل يعوي بطول دمعة جسدي المنحدرة فوق عمودي الفقري الآن.

ما هذا الصمت، صمت شاخب كنزيف داخلي وأنا على وقفتي جافلاً، فقط عيناى ترمش: لماذا لا أسمع شتائماً وسباباً؟ كيف لم ينهالوا عليّ ضرباً بأخمص البنادق؟ عجيب... لم يبصق علي أحد.

وحده الصمت يكتم أنفاس الوادي متناغماً مع بخار أنفاسي.

أنا أحمل عذري معي: ضيعتُ الطريق وهذه أول مرة أنزلُ بها في إجازة.

هل يقتنع صاحب الكف الذي يمسكني من الخاصرة وأنا متلبس بالهرب المشهود لجهة العدو.

طالَ حبل الصمت الملفوف حول عنق الوادي وحول عنقي: معقول... معقول هذه السادية اللعينة التي يتمتع بها هذا الذي يمسكني، انه يتلذذ باستنشاق أبخرة ودخان شواء لحمي الطري هنا فوق ثلج الصمت والخرس: لا... لا، غير معقول، أنا أعرف طبيعة السافل المتهور بمثل هكذا حالات، إذ يتفاخر منادياً باعلى صوته:

- تعالوا.. لزمتم خائن جبان...

قررت حسم جنون هذا الصمت فالإعدام أهون. إستدرتُ بهدوء وكاد قلبي ينسلُّ مني وينزلق تحتي ما بين قدمي. إستدرت تتخاطفني المنية الشائطة: رأيت شجرة تمدُّ غصناً بخمس عروق لها أظافر من براعم خرجت تواءً. رأيت كفّ شجرة يمسكني من خاصرتي. فأطلقت آهة سحبت تشنجات الخوف من أصابع قدمي حتى فروة رأسي وأطراف شعري، آهة مدوية ببخار كثيف ضببَ عيني، وخرَّ جسدي على ركبتيه. رحتم أقبلُ كفّ أمي الشجرة وأجهش بثغيب مخنوق بلا دمع، أنوح بخفوت:

- آخ... آخ يا أمي... لا وقت للعواطف يا أمي... وداعاً.

علمُ الطَّوْءِ

دخلت سيارة (تكسي) عليها تابوت ملفوف بالعلم العراقي - علم يمقته كريم كشكول ويراه يوزع هدايا الحرب على بيوت تنتظر أعياد الموت، العلم صار نذير شؤم كأنه علم الطووة بلونه الأسود الذي يرفرف بليل ساحم طويل طويل يغصن بآلاف الكوابيس المتلازمة دون إستيقاظ ولا صحو. الدم هو لونه الاول تحته اللون الابيض (حمامة السلام) المنقوبة بثلاث رصاصات على شكل ثلاث نجوم ترمز الى نقيب شرطة في مديرية الامن، ثم اللون الاسود لون الحداد الأبدي - دخلت السيارة في قطاع (٣٣) وقت العصر حيث حركة الناس في أوجها، فتجمد كل شيء حي كأنهم رأوا عيون الميوزا وتحولوا الى حجر: انقطع الحديث وانقلب الضحك الى غصة، كف الأطفال عن اللعب وخنس الدجاج والبط، وشنفت الققط آذانها. الرجال ذبلوا فجأة وانطفأ بريق الحياة في وجوههم، كل واحد فيهم سينفجر صدره لو توقفت السيارة في باب داره. والنساء المتكومات أمام بيوتهن نشفت وجوههن وتشمعت بلا قطرة دم واحدة، انعصرت قلوبهن وسقطت تحت عجلات السيارة لو تتوقف هنا أمام البيت.

سيارة (الشهيد) الملفوف بعلم الطووة كلما تعبر بيتاً تنهض وراءها زفة أطفال يترابطون بهمس، يتبعهم الرجال يولولون بكلمات مبتورة بلا معنى، تخرج من لسان أحترق وهمد وترمد بلحظة واحدة.

وراءهم النساء ينشجن تانهات، نادبات يريل من أفواههن لعاب المنايا:

- تلكي إبنج يالمسعدة تلكيه. هذا العزيز جابوه ألج جثة. وين تروحين يا خايبة من هذا العلم الاكشر.

دخلت السيارة منطقة دكان كشكول، تتابعها العيون الشائطة فتوقفت أمام بيت (ناصر نابت) وانفجر فتيل الكارثة. يقول كريم كشكول مشدوهاً:

- مستحيل هذا هو ناصر، بقايا لحم متفحم... مستحيل...

الجندي الذي كلفوه بتوصيل الجثة هرب بجلده بعدما سلم كل ما يخص ناصر عندما كان حياً في الجبهة وما يخصه بعدما صار جثة، سلمها الى أقرب شخص أمامه وتملص من نوبة جنون جماعي لنساء ورجال وأطفال بدأت بتمزيق العلم.

وفي اليوم الثالث من المأتم وقبل ان يرفعوا (الجادر) ذهب كريم كشكول الى (بيت الميز) كما يحب أن يسميه، في الراشدية قرب مقبرة (محمد سكران)، كتب ثلاثة أوراق ودسها في الفتحة السرية للميز، لكنه نسي ان يجلب بعض الطعام رغم انه ليس جائعاً وبلا شهية إذ صدمته بقايا اللحم المتفحم للذي اسمه ناصر نابت. إستقرت عيناه على بقايا (خضر قد) في زاوية الغرفة: بعض كتب قديمة ومجلات وكيس ملابس وحذاء قديم مقلوب، منكفى على مصيره.

أخذته سنة من التفكير في لجة العبت الذي يغرق فيه الجميع، منذ عبت الولادة وحتى عبت الموت:

ان كل ما يجري الان ، هو عمليات مسخ وتشويه وسلب للذات البشرية لتعطيل فاعلية الحياة وحذف دورها من الوجود، وعملية زج هذه الذات في الروح القطيعية التي يسمونها الشعب. المسكين (ناصر نابت) مستلب يمشي وراء الماشين، يجهل معنى (الذات) ومعنى (الوجود)، أما كريم كشكول فقد تعلم هذه الكلمات الكبيرة من خلال المسرح وأكاديمية الفنون الجميلة وقراءة الكتب والنقاشات الطويلة والعويصة مع (خضر قد) وبقيّة الاصدقاء في الحديقة الكبيرة جنب مستشفى الجواد، اما ناصر وميري وعبودي فهم لم يكملوا دراستهم ولم يدوخوا انفسهم بهذه المتاهات ولأن الواقع طحنهم مثل ملايين الناس المسحوقة، بينما كريم كشكول متفرغ للدراسة يعيله ابوه بدكانه وراتبه التقاعدي وتساعد الأم في شؤون الدكان، كما خفّ العبء على أبيه وأمه حين تزوجت أختاه الكبيرتان وبقي كريم يأخذه سارتر ويرجعه البير كامو، يدخل في نيتشه ويخرج من برناردشو، والموت هنا يحصد اصدقاءه بمنجل العيث فهذا ناصر نابت قد ترك أبويه يهيمن على وجهيهما في كرب كاسح، وترك زوجة أرملة حامل، فيصيح كريم بلوعة: أخ يا صديقي ناصر كلّ طفولتك وشبابك ومستقبلك، كل وجودك مجرد بقايا لحم متفحم؟ أين انت الان وأين روحك؟

تذكر هنا كريم كشكول رثاء كلكامش لصديقه انكيدو، الذي يتدربون عليه في درس (الصوت واللقاء) في الاكاديمية : أي سنة من النوم أخذتك وتمكنت منك، طواك الظلام فلا تسمعي.

تهدج بصوت مخنوق وسالت دموعه: ناصر، أي السنة من النار أكلتك وفحمتك طواك الدخان فلا أراك ابدا.

وغاب مرة اخرى في نفق اسئلة طويل ومظلم وهو يقارن بين ذات ناصر نابت وذات (خضر قد): من منكما قدم نفسه وجبة طعام للموت؟ يا ناصر هل أنت تنسج وجودك بيدك وبالخيوط التي تختارها أنت؟ بالتأكيد كلا، هناك أيدي كثيرة إضافة الى يدك هي جميعها تشترك بنسج وجودك، يعني أنت لست انت بل كما تظافرت عليك الأيدي لإنجاز ذاتك، أنت صناعة غيرك، ولهذا فلا دخل لك بما حصل بك.

أذن يا (خضر قد) كيف تستطيع صناعة نفسك؟ هل هناك إنعطافات حياتية حادة هي التي تقرر مصيرك؟ زين... اذا تدخلت بالوقت المناسب والمكان المناسب عند هذه الانعطافات وامسكت مقود ذاتك، وأنت تقرر الوجهة التي تريدها، فهل يتغير مصيرك عن ذاك المصير الذي انقاد اليه ناصر نابت؟

ظل كريم كشكول يغوص في نفق الاسئلة الى ان غفا ونام.

- ٣ -

المحظوظ، هكذا يداعبني أصدقائي متهكمين على حظي النكد بنوادر ونكات تضحك أصعب الناس وكانت ألعنها نكتة (ميري): فد واحد مثل (خضر) كان أحد ركاب طائرة محلقة في الجو

وإذا بصوت المضيئة الناعم يعلن عن وجود عطب في إحدى عجلات الطائرة ولن تهبط لو بقيت العجلة المعطوبة، فمن هو الشجاع الشهم الذي يتبرع باستبدال العجلة وينقذ الطائرة. نهض صاحبنا وقد أغرته الشهرة بانقاذه طائرة ركاب من كارثة أكيدة. صفق له ركاب وطاقم الطائرة. نزل بحبال وفك العجلة المعطوبة ورمها ثم ركب العجلة البديلة وصعد وسط الهلاهل والهتافات . هبطت الطائرة بسلام فوصل الى اهله ولكنه فوجئ بوجود (جادر) مأم أمام بيتهم وأهله ينتحبون فسألهم: ماذا حدث؟ من مات؟ أجابوه:

- أبوك، أبوك مات، سقطت عليه عجلة من السماء.

انا المحفوظ ، ولدتني أمي أثناء فيضان دجلة علينا، وبالكاد انتزعتني نساء الجيران من رحم أمي ، إذ كنت خانقاً من الغرق ومن حفاوة الواقع بي. حلمت أمي بثلاثة أسماء لوليدها القادم كأنما تعويضاً لها عن أخوتي الثلاثة الذين ماتوا قبلي. ليلة البارحة حلمت زوجة شرطي المرور جابر بثلاث نساء يتناوبن بشغف وحب على حمل الطفل المولود توأ. اختلفن حائرات على ثلاثة أسماء:

- نسميه لفته... التفت الله عليها بعد موت أخوته الثلاثة قبله...

- لا... لا... نسميه جبار... جبر الله كسورها الثلاثة...

- لا... نسميه طعمه...

وهكذا اشتد وطيس الجدل في انتقاء الاسم الملائم بين نساء الحلم الثلاثة، حتى جاء الأب شرطي المرور وشطب على الأم وعلى حلم الاسماء الثلاثة، وقرر اسمه : خضر. لأن الطبيب الذي أجرى له عملية المصران الأعور، اسمه خضر. بقيت الأم تتوسل بزوجها المترفز الغضوب:

- الا تخاف من الله ان ينتقم لأننا خالفنا الأسماء التي أختارها له، إلا يهملك ان تقع المصائب على رأس هذا الطفل وتدمر حياته. الله اختار الاسم وانت تعاند... فكر بطفلك المسكين وحياته؟

نهر دجلة في ذروة هيجانه، يرفس السدود ويطيح بها واحداً تلو الآخر، والجنين يرفس بطن أمه لا يريد الخروج ، يعاند ويضرب برجليه لا يريد مغادرة هذه المحطة الوطن، لا يريد السفر في قطار المنفى.

أمواج دجلة تزمجر جارفة بيوت الطين والصرائف، جارفة معها المحامل الخشبية بكل طواقمها: دواشك القطن واللحف والمخدات والبطنيات، وصورة (بت المعيدي) تغط وتنظ تحاول الانفلات من الغرق في المقابر المائية، فقد تتفسخ ذكراها الى دمعة مجهولة المالك.

تتلاطم بين الازقة: ألواح خشب عائمة مع قدور فافون وطشوت، كوفيات ويشامغ ودشاديش، سرعان ما تطمس تحت الأقدام، بينما الأباء والأمهات يحضنون أطفالهم ويجذبونهم من بين اشدق الامواج المتوحشة والان إلا الان، جاءها المخاض. كل واحد حائر بنفسه وأطفاله

واغراضه النفيسة التي كدّ العمر كله ليحصل عليها، وها هو الماء ينتزعها من بين أيديهم، يسرقها لا مبالياً كأنه يعبت ويتمازح. وزوجة شرطي المرور داخل غرفة الطين تطلق:

- علي.. علي... علي

تتصارع مع ملك الموت فوق سرير أسود يتسع لخمس نفرات ، اجتمعت أربع نساء قويات يتشبثن بأرجل السرير، يضغطن للأسفل لنلا يجرفه الماء الحائر في الغرفة:

- علي.. علي... علي

تصيح بأعلى صوتها زوجة شرطي المرور حين تحاول العجوز الطيبة أم كشكول سحب الطفل من الرحم. سمعت النسوة تجديفاً أرعن وكلمات عصبية أطلقها جابر شرطي المرور ، وتخيلن عينية كيف تتقادحان شرراً وهو يصب اللعنت:

- جانت عايزة التمت... إنوب المطر المطر... راح نغرك بتغال الله علينا.

وفعلاً مطرت الدنيا بخيال هستيري كأنما الغيوم كانت محبوسة منذ طوفان نوح فانقضت بشراسة لا ترحم، مطر يصاحبه برق وامض ينقر العيون، وتتساقط صخور الرعد تكسر الرؤوس. جابر يضع ولديه فوق التنور الطيني المغمور بالماء ويعضُّ شفته السفلى حنقاً وغيضاً من قهقهات الرعد ويسمع زوجته:

- علي... علي... علي...

يختلط الرعد مع قرقعة إصطدام قدور الفافون والطشوت، وبرق يلتقط صوراً لفقااعات ضخمة توجُّ وتخفت بسرعة بالكاد تدركها العين، يرى جابر ملايسه، ملايس شرطي المرور المكوية، يراها فوق الماء طافية كأنها هو: شرطي مرور غريق يركس ويطمس للأسفل فيفز على صوت امرأته:

- علي... علي... علي...

في هذا الطقس وبين قصف الرعد وكاميرات البرق صرختُ بأعلى صوتي وصاحت العجوز ام كشكول: ولد... ولد، بسم الله ما شاء الله... اللهم صلي على محمد وآل محمد.

قالتها حين رأت ثلاث (شامات) على زندي الأيسر متراففة، هذا هو انا الطفل المنذور لأسقاط (الرئيس بهضام) وحزبه ولكن كيف لا أدري، طفل لا أحد غيره قد إختاره واصطفاه القدر ليلعب هذا الدور الخطير.

تصارعت مع الحصبة التي قشرنتني الى (ركية) حمراء طازجة. بيست أمي من شفائي وقد رأت في منامها سعادة رقطاع تحت (كاروكي) تتلمض أنيابها لإفتراسي.

فزت من الكابوس ورأت رضيعها يضحك - ربما أضحك على نفسي وأنا أرتدي دشداشة حمراء بلون الدماء التي لطختني في واقعة الضرطة - أفلتُ من الجدري بمعجزة وسقطت في رمد مزمن لا تنتفح عيناى إلا بعواء القطار عندما يركض بي أخي (مكي) يحملني بين ذراعيه

الى سكة الحديد - قطار لا يشبه قطار (أبو دشير) وعيناى معصوبتان بخرقه سوداء- مرت على جسدي قوافل أمراض الطفولة، لكنني المحفوظ، تملصت منها رشيقاً مثل هرّ بسبع أرواح، وخرجت منها وسيماً جميلاً كوجه الملاك الذي يرفرف فوق الرضيع عيسى المسيح في الصورة المعلقة على الحائط.

هذا هو انا الطفل الموعود، طفل القدر الذي سينقذ العراق ومنطقة الشرق الاوسط والعالم من شر (بهضام) وحزبه، أما بأى وسيلة وما هي الخطة فلا أعرف.

وها أنا الآن على قمة جبل (قنديل) ، خلعت بيريتي ورميتها من فوق أعلى قمة للهزيمة: الهزيمة من حرب أما أقتل فيها شخصاً لا أعرفه، أو يقتلني فيها شخص لا أعرفه.

رميت البيرية بوجه القبور الكثيرة المعدة لي والتي خلفتها ورائي، هي قبور ميتات أنقذني منها مخرج فلم حياتي. رميت البيرية صارخاً وسط عمالقة و أقزام الجبال البيض، رميتها فوق أنفاس الوديان المفروشة بصمت الثلج. صرختُ بمقولة أبي ذر الغفاري: يا بني... يا (خضر قد) لو دارت المعركة ورأيت، أن جبانها يكرُّ وشجاعها يفرُّ، فاعلم أن في الأمر ريباً.

تلاقفت قمم الجبال صدى الصرخة، جبل يناوشها لجبل، وادٍ يُعبرها لوادٍ، مدينة تسلمها لمدينة، شارع يرميها لشارع وبيت يناوشها لبيت حتى طاحت الصرخة في حضن أمي، وهي تندفُ القطن بخيزران أبي، شهقت ونشغت إثر سقوط صورتي من الحائط وتهشم زجاجها:

- يمه خضر ...

لقد اوحى لها سقوط الصورة وتهشم الزجاج بأنني في محنة أو ورطة.

حلقت البيرية تدورُ مُلتفَّةً تدورُ فوق تضاريس هروبي الجليدي المتبخر: مرت فوق ربيبة العقق الشاهقة، آخر ربيبة على حافات مدينة (جومان)، مرت فوق الكلاب الثلاثة التي راحت تركض بمرح وتتقافز - شكراً لكم اصدقائي حين لم تنبحوا أثناء نزولي من الربيبة وعلب اللحم سوف أعطيها لأول حيوان يصادفني - هل تمر البيرية فوق مدينة (جومان) ويخرج الاطفال والنساء والشيوخ، يحتشدون فرحين ويلوحون لها:

- ذاك رأس نجا من طاحونة الحرب، رأس فرّ الى آدميته.

وبعد غد سوف يسمعون في نشرة الاخبار الايرانية، بعدما يتخذون كافة الاحتياطات: قفل الأبواب وإسدال الستائر وإبعاد الاطفال، ثم يدللون صوت المذيع الى أوطأ درجة فيسمعون: التحق الى جمهورية إيران الاسلامية جندي عراقي عبر الحدود مشياً على الاقدام الى مدينة (بيران شهر).

لكن المذيع في إذاعة طهران لم يذكر في الخبر ضياع الجندي في (غابة العظام) - أنا أطلقت عليها هذا الاسم - ربما لا يريد إخافة وترويع من يفكر بالهرب الى ايران.

دخلت الغابة دون أن أدري، حسبتها بضع أشجار صماء بكماء عارية سأخترقها بسرعة، أو ربما غلطني هذا الصمت الابيض ونقاوة الهواء الحادة الخالية من فسوة الواوي، أمشي

وأمشي حتى أختنقت بعظام أشجار متداخلة متلاحمة، أيباخ... هذي غابة جيثوم أتحسسها، وأمسها وأنا بكامل صحوي ووعيي، أشجار كابوسية أعيشها بواقعية دامغة، لا هي ليست غابة بل فحّ الطبيعة يسقط فيه أي مغامر متهور مثلي وهو يحاول تدنيس لغزها وسرّها. هي غابة أشجار عارية تماماً، متشابكة متعوسجة، لونها أبيض رمادي مثل عظام الأموات، ملساء مثل الافاعي أغصانها وسيقانها حتى الوفر ينزلق ولا يستقر فوقها.

غابة عظام لا نهائية الامتداد والشساعة يضيع فيها أهل مدينة الثورة جميعهم لو دخلوها، لكنني المحفوظ تملصت من غابة العظام هذه خلال أربع ساعات بعد صراع مرير مع الـ(كالا) شياطين العالم السفلي. أمشي محنياً مرة أتحاشى جهمة الاغصان وقسوتها المميته، ومرة أضع حقيبتني الصغيرة أمام وجهي وأتقدم، تتكسر عليّ أغصان متفرقة، مزقت ملابسني العسكرية وناثت ملابسني المدنية حتى وصلت جلدي.

خرجت من الغابة بخدوش في وجهي ورأسي وجلدي، خرجت بمعجزة رؤيوية وأنا على حافة إنهيار جسدي ونفسي . إذ جلست على الأرض محاطاً بعظام الأشجار، أتخيلُ نوع الميتة هنا مثل طير جريح يلوذ بمخباً قصي ليموت بلا عجيح ولا ضجيج . تراءى لي شكل خطوات تصعد تلاًّ مكتظاً بأشجار العظام، تلّ لم أنتبه له أثناء إستراحة ضياعي الشاسع. نهضت متدراً بحقيبتني وصعدت التل، نظرت من هنا من فوق التل ورأيت بحر العظام على مدّ البصر فاستدرت أنزل التل من الجهة الاخرى، وأنا أؤمن إتجاه شروق الشمس. هبطت من التل دون لسع سياط الأغصان ودون استخدام الحقيبة كمصدّة، تقودني غريزة زهرة عباد الشمس.

ما يحيرني: كنت اعرف أنني لست وحدي رغم أنني لا أرى أحداً، لم أكن وحدي ليس الآن فقط بل منذ احتجاب القمر حين غطته قوافل الغيوم.

رحتُ أكرر مع نفسي جملة ملتوية جعلتها النغمة الاساسية في سمفونية الهروب:

- كنت مع ليس وحدي.

وكأنني أعرف من كان معي ولا أعرف هويته أو ربما كنت أتحايل على تسميته فهل هو: الله، أمي، سلامه، القدر، حظي، مخرج فلم حياتي، ملك الموت ام ملك الحياة، شبح مجزرة حياتي، طوطم الخوف، روح الطبيعة وأنا أتغزل بها في كل خطوة من خطواتي، غريزة الحفاظ على نوعي، أم هي كل هذه المجموعة برمتها مع أشياء أخرى حصرتها في جملتي الملتوية:

- كنت مع ليس وحدي.

انا جالس الآن على قمة جبل (قنديل) أراقب رحلة بيريتي الأستكشافية، أعرف بكفي الثلج وألتهم بشراهرة أطيب وألذ (موطا)، أتربع فوق أضخم قح (موطا) ألحسُ طعامي وشربي في آن واحد، فقد حسبت خطأ الفترة التي يستغرقها هروبي، إعتدت على كلام الجنود في ريبية العقق ومعلوماتهم عندما كنت أتحايل في جمعها من هذا وذاك، يقولون بيقين خبير: إن عبور الحدود (شمرة عصا) لا يستغرق سوى ساعات قليلة.

لذلك لم أتزود بالطعام سوى بعلب اللحم الثلاث التي لن أكلها حتى لو فطست من الجوع. ثم أنني لا أشعر بالجوع ولا بالعطش، لكن ذبحني الشوق الى التدخين وعندي (تكه) فيها (٢٠٠) سيجارة، محروم منها لشدة الخواء والإجهاد والإعياء، لو دخنت سيجارة واحدة لكان ذلك كافياً كي أحر ساقطاً في سحيق الوديان، أهوي مثل (دبة) غاز، مجرد سيجارة واحدة وأدوخ فأقفز منتحراً مثل أخي البغل.

على قمة جبل قنديل يجلس بقربي (كنت مع ليس وحدي) وأنا أتابع دوران بيريتي، صافناً: تمرُّ محلقة فوق الموصل فوق (حمام العليل) فوق وحدة الرصد الجوي اثناء تقديم الموجود لأمر الوحدة في ساحة العروض فيتعرف الجنود وبقية المراتب على الرأس صاحب البيرية التي طارت من جومان وليس من شيروان مازن، تذرق على رأس السيد الأمر فلا يستطيع أن يمسح ذروق جندي هارب لجهة العدو لأنه الان في وضع الاستعداد. آخ لو تطير البيرية مثل بصقة ترتطم بوجه الحرب.

شعرت بجسدي يتجلد من شدة البرد خلال هذه الدقائق من عمر دوران سقوط البيرية فانا أجلس في أضخم ثلاجة صادفها جسدي وانا أتابع تحليق البيرية وكيف راحت تصغر وتصغر الى مجرد (سيفونه) سداة تغطي فوهة بطل الببسي كولا، سيفونة تنأكد رجال الأمن اذ تشعرهم بأنهم يشربون عصير الخراء الفوار من خلال إستعمالهم المزدوج لبطل الببسي كولا.

تغلغل في عظامي صقيع أبيض جمّد مفاصلي بحيث واجهت مشقة في تحريك يدي لفتح الحقيبة، فركت يدي مع بعضها بغبطة واخرجت قبعتي الايطالية لتحل فوق رأسي المدني. ذقت برداً هائلاً لن أشعر بعده بالحر ابدأ ولن أتعرق بعده مطلقاً طوال عمري.

لولا حبي وولعي بالسينما لكنت بغنى عن هذه اللقطة الدراماتيكية ولم اشبع برداً وأنا أرمي البيرية، كنت أستشعر بوجود آلاف الكاميرات التي تصورني في كل خطوة وخاصة في منعطفات حياتي الحادة والخطرة، كذلك أستشعر بكاميرات مجهرية داخل دماغي وقلبي وهي تصور أفلام أفكاري ومشاعري ووساوسي، تصورها بلقطات كبيرة (كلوز): أنا الآن بخفة الريشة، تحررت من ثقل أوهام الهويات، كسرت أوثان وأصنام الهويات، تخلصت من عبء المجارير حين تخيلت نفسي كائناً بعشرات المجارير عندما كنت في الزنزانة مع صديقي (أوميد) ، ألقيت جميع هذه المجارير بمحتوياتها واختلطت مع بعضها البعض متجاوزة متناغمة في كرنفال ألوان لسجادة شرقية. أنا حر الآن بلا جنسية بلا قومية بلا دين بلا جغرافيا وبلا زمان. لأول مرة أعود الى رحم أمي العظيمة الى رحم الطبيعة دون أب وأم بايلوجيين، دون أخوة، أشقاء برابطة الدم.

يا (خضر قد) هل استطيع العيش بنفس هذا الاحساس العميق بالحرية بين الناس وبين أهلي وأصدقائي؟ هل بمقدوري العيش في قلب الواقع بنفس هذا الاحساس الخلاب بالتححرر من كل الروابط المفروضة عليّ قسراً؟

فالأتمتع الآن فوق جبل قنديل بلذة الخفة وقد تحررت من ثقل الأمم والمدن وخزعبلات البشر. سقطت عني أوهام المسؤولية المنافقة، سقط ثقل الكذب مع نفسي وعلى ذاتي، سقط الكذب بيني وبين الحياة. عقلي نظيف لامع صافٍ، غسل نفسه من كل اوساخ الدنيا. قلبي طفولي

مبهور باكتشاف الاشياء لأول مرة، قلبي بوسعه الان احتضان الكون برمته. بإمكانني التحليق والطيران كما في الأحلام التي تتدفق عليّ في النوم وأنا أتقافز محلقاً فوق أعناق الأشجار والبيوت، أداعب الغيوم وأرقص فيها ثم أهبط، وبمجرد ملامسة قدمي للأرض أنط لأعلى فوق فوق لا يصدني سقف ولا يمنعني حاجز، أنا بلا حدود ولا مسؤوليات وبلا جنسية، أنا ذات مسؤوليتها الوحيدة كيف تحيا بنشوة تحقيق سرّ وجودها، انا وحدي المسؤول عن كينونتي لا يحتويني أطار. أنا خارج كل المسميات، وحدي أتشكل أمة، فكل شخص يمر بهذا التوحد الحرّ هو أمة، ربما مرّ النبي ابراهيم بهذا الإنعتاق حينما فكرّ وتأمل زيف أهله ومجتمعه فأسقطه وتحرر منه، وهاجر متوحداً يخترق الصحراء.

إختلافي عن أمم الاحرار لمثل هؤلاء الرجال، هو إكتفائي بلذة هذا التحرر، لا أريد أتباعاً ومريدين لأن الحرّ لا يتبع الحر، كل واحد يعيش في كنف لذة حريته.

زين... يا (خضر قد)، ألا تخشى أن يكون هذا التوحد الحر وهماً يتبدد فور إصطدامك بطاغية مثل (بهضام) رغم أنه بلا مثيل؟

ليكن، فكل طاغية مربوط بحبل سري مع جميع الطغاة مثل لعبة دومينو، وأول هذه القطع (بهضام) فإن سقط سيبدأ مهرجان السقوط العظيم، المهم أنا الآن خارج جغرافية العصر الزيتوني، وسوف أعرّ على مكان يحترم توحدي الحر، ولا يفرض عليّ ضريبة لهذه الحرية. أين ساعثر على مكان كهذا لا يعاملني وفق لون بشرتي وطول قامتي وملامحي ولغتي؟

كل هذه المجارير وغيرها عوائق في طريقي الى التوحد الحرّ، إنني سجين وجهة نظر الآخرين عني... هل ساعثر على أمثالي الذين حطموا سجون ذواتهم كما فعلت أنا؟

أين سأجد مثل هؤلاء وأنا أعرف دول العالم التي تتعامل بالوثائق والأوراق الثبوتية؟

على كيفك... على كيفك (خضر قد) ، مكان أهون من مكان فهل تشبه دولة السويد دولة العراق؟

إذن ستكون إيران محطة كبرى ألملم بها شمل ذاتي، وربما تنتظرني محطات أخرى. المهم تخلصت من الأمة العربية ومن الجنسية العراقية، وأنا الآن أمة.

لا تزال الكاميرات من حولي تصورني مع الكاميرات المجهزية داخل قلبي ورأسي، انا مسكون بجن الفن، هذا الجن الغاوي اللعين كم عزلني عن الواقع وفقدت الاحساس به، وكم ورطني بمشاكل عويصة، ولكن هل يحتمل ان هذا الجن ربما أنقذني من ميئات لا مفر منها وأنا لا ادري ، أكون هو الذي انتشلني من بلايا محدقة بي وأنا لا أدري، فهل ينقلب هذا الجن الى ملاك حارس ينقذني في اللحظات الأخيرة؟

أعتقد انه واحد من مجموعة هؤلاء ممن (كنت مع ليس وحدي).

وفر الجص

كالعادة، راح (محمود) يتختل جنب الحيطان ويختار أزقة بعيدة عن الأنظار ومفاجآت مفاوز الرفاق الحزبيين وزنابير الإنضباطية أثناء رجوعه الى البيت، وكالعادة راح يقرأ آية النجاة التي تعمي عين العدو(وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون). كما يقرأ آية الكرسي ثلاث مرات حتى يصل للبيت سالماً، إذ أن قلة وجود الشباب الذين لا يلبسون بيرية وبسطل يجعله في مرمى العيون المسعورة للصيد، رغم أنه يحمل جميع الأوراق الثبوتية من دفتر الخدمة العسكرية المملوء بالتأجيلات والإحالات الى مستشفيات الأمراض النفسية، ويحمل هوية طالب في الجامعة المستنصرية وهوية المكتبة الوطنية، مع هوية الأحوال المدنية وشهادة الجنسية، دائماً يحمل في جيب منتفخ كل الأوراق التي تثبت انه عراقي ليس جندياً.

يوماً يتحاشى الإلتفات الى كتلة التمثال الأملح أمام مسجد شيخ (طاهر)، لكن قوة عاطفية غامضة تلوي عنقه وتدير رأسه ليرى تمثال (ساعه) أم ميري متكومة بعباءتها الملحة، التي أحالتها الشمس والغبار والمطر من اللون الأسود الى لون كالح مزنجر. داومت على الجلوس أمام المسجد منذ استلامهم أوراق الجندي المفقود (ميري) من (قلم) وحدته العسكرية في منطقة (نفظ خانة) وليس في مندلي كما أخبرها أبنها.

قال لهم رئيس عرفاء الوحدة:

- انفجرت سيارة الـ (إيفا) بلغم وأحترقت، أخرجنا منها جثث الجنود الاربعة ولم نعثر على جثة الجندي السائق (ميري).

كريم كشكول الذي كان مع (ساعه) وأبي (ميري) يعرف معنى الـ(مفقود)، فكلمة (مفقود) تعني كل من قتل دون جثة يجدونها له، وتعني كل من ذهب لجبهات القتال ولم يعد . يلوب في عقله سؤال جائر : كيف وجدوا الجثث الأربع في السيارة المحترقة وبقي (ميري) بلا جثة ؟ ظل هذا السؤال يحفر قلبه وهم عائدون إلى مدينة بغداد . كانت (ساعه) قد نخت كريم كشكول أن يأتي معها للبحث عن وحدة (ميري) بعدما فاتت عشرة أيام على موعد إجازته .

رجعوا بلا (ميري) وبلا عقل أمه (ساعه) التي داومت على الجلوس أمام مسجد شيخ (طاهر) من صلاة الصبح وحتى صلاة المغرب. تدوي في أروقة عقلها طبول كلمات متناثرة: ميري ماكو ... شيخ طاهر .. عجر أبو غريب ... لا هو ميت ولا هو حي .. مندلي ... مفقود ... نفظ خانه ..

وتتراعى لها دوماً شوارب وحيدها وهو يغني طور سلمان المنكوب وطور سيد محمد . وضعت (ساعه) حياتها ومصير أبنها بين يدي شيخ (طاهر).

وكريم كشكول مندهش من جنونها الهادئ وكان (ساعه) قد اجتازت مراحل النواح والتفجع والكرب والحزن بقفزة واحدة، عبرت نار حرائق الكبد لأم ثكلى وهول فقدان وحيدها بقفزة واحدة إلى جنون رزن، إلى قفى العقل ، قفى غموض وظلام الوجه الآخر من القمر ، تردد جملة مشتعلة :

- مرادك عند شيخ طاهر .

فتذكر الجميع في منطقة دكان كشكول وقطاع (٣٣) قصة اختفاء (ميري) قبل سنين طويلة عندما كان (ميري) صبياً بلا شارب:

(وين ميري) صرخة سؤال غاشم اندلعت في منطقة دكان كشكول ، في وقت متأخر من الليل . أبوه ينادي بصوت حاد منكسر ضائع: ميري.. ميري ولك وين أنت بويه؟

واكف تطرق الأبواب واحداً واحداً تسأل عنه فيخرج أصحاب البيوت معهم يصيحون معهم في ليل مانج: ميري.. ميري..

حتى شروق الشمس. نبشوا قطاع (٣٣) ثم القطاعات القريبة ، تتقدمهم (ساعة) ملطخة بالطين والتراب، وجهها مشطب من كثر ما خرطته بأظافرها: (وين ميري) .

ثلاثة أشهر مضت ومصير (ميري) يخفت وتخبو ذكراه بعد حملة بحث بدأت في مدينة الثورة، يسألون كل قريب وصديق، بل وكل من رأى (ميري) ولو لمرة واحدة. حتى اتسعت رقعة التقصي من بغداد وضواحيها إلى المحافظات وبالذات العمارة والناصرية والبصرة. بحثوا عن كل مطرب مشهور أو مغمور وعن مقلدي المطربين. فأنقلبت صرخة (وين ميري) إلى صياح مجوح (ماكو ميري) تندلع من جوف حلق (ساعة).

(ساعة) النحيفة ضئيلة الجسد مثل دمية كبيرة شبّ فيها نشاط شرس، يحمل طاقة عمياء تتفايض بغريزة الأمومة. فلم تياس ولم تكف عن النحيب والطم لا ينال منها تعب واجهاد ولا يهداها سهر وقلق، عكس زوجها أبو (ميري) الذي خبا وأنطفاً تدريجياً حتى شحبت صورته بشكل طيف قديم باهت، كمن قدم استقالة ذاته إلى رئيس مؤسسة الوجود. رغم أنه واضب على عمله في بلدية مدينة الثورة لكنه ظل يشعر بالضيق والاختناق من نواح زوجته (ساعة) فدموعها ونشيجها صعد وزاد الرطوبة في الجدران والسقف. كلما يستيقظ صباحاً ليخرج إلى عمله يجد نفسه قد أبيض من نثيث الجص، كأنهم يعيشون في جو صقيعي ملبد بثلوج الجص حيث لا ينقطع تساقط الوفر ، فضاع البيت بمن فيه تائهين متبعثرين غرباء لا يكاد يعرف أحدهما الآخر بعدما ضاع (ميري) .

يبدو أن (ساعة) لم تترك باباً ولا شباكاً ولا روزونه ألا وفتحتها لعلها تجد إشارة أو أثراً يكشف سر اختفاء وحيدها. (ساعة) تحرق طوال الليل والنهار بعيون فارغة النظرات مربوطة بسلك كهربائي مع جهاز قلبها الفاجر إلى (ميري)، وبينما يغط الناس في سابع نومة، يحلمون بعدم الاستيقاظ إلى الأبد، تبقى هي مبحلة شاخصة العيون في دهاليز الظلمة التي تنتث بالوفر الجصي. يزوغ ويهرب من حدقتي عينيها طيف (ميري) كلما جمعت ملامحه في وجه على وشك الحضور يمثل أبنها، يتناثر الوجه ويغيب مبتعداً في غور ضباب ذاكرتها.

وفي هذه الليلة المدلهمة يتساقط عليها مطر حشرات بيض، جلست عند رأسها امرأة عجوز وهمست لها :

- مرادك عند شيخ (طاهر).

كسرت (ساعه) شخصه عينيها والتفتت إلى العجوز التي نهضت تنفض عبايتها السوداء من وفر الجص الأبيض، استدارت تمشي وماعت في حلق الظلام . فركت (ساعه) عينيها وأيقنت أنها لم تكن تحلم ، كيف تحلم وهي لم يغمض لها جفن ، ولكن كيف تعرف أنها لم تحلم فعلاً ؟

قبل أن يطرَّ الفجر وجدت (ساعه) نفسها أمام باب مسجد شيخ طاهر في الركن البعيد من قطاع (٣٣) بعدما اجتازت مسجد شيخ (حسان) في الركن القريب من منطقة دكان كشكول، وقد تركت وراءها شيخ (حسان) يحمد ويسبح ويحوقل، بصوته الأجهش في مكبرات الصوت، ممهداً لإذان الفجر، فسمعت من بعيد صوت الشيخ (طاهر) المرتعش الراجف، عابراً أسطح البيوت والشوارع والساحات ليستقر في إذن شيخ (حسان) مثل بعوضة مزعجة:

- بعد وكت... بعد وكت شيخ حسان... وقت الإذان بعد بعد ما صار... لا تستعجل.

لكن شيخ (حسان) واثق من الساعة والدقيقة واللحظة لميعاد الإذان، كما هو واثق من ساعة الأفق والسماء، فاجاب عبر مكبرات الصوت المنصوبة فوق منذنة المسجد وسطحه تتوزع الى جميع الجهات:

- أنت مشتبه يا شيخ طاهر... وقت الإذان دخل الآن.

ولم يمهل شيخ طاهر المدجج بثلاث ساعات سويسرية ،الأولى جدارية كبيرة والثانية منضدية قرب سريره والثالثة ساعة جيب فضية ذات سلسلة تبرق، عدا كونه خبيراً في مواقيت السماء ومواقع النجوم ،فقال عبر مكبرات الصوت المنتشرة نحو كل الاتجاهات:

- أنت بعدك نعلان... وقت الأذان بعد ثلاث دقائق ياشيخ حسان.

وهكذا اندلعت معركة فقهية حول تدرج أوقات أذان الفجر بين الشيخين ،واستمر السجال عبر مكبرات الصوت، ثم انعطف النقاش الى مشادة كلامية وراح واحد يعيب الآخر ويلومه على الخمول والتهاون في امور الدين ونسيان الأخره وفتنة الدنيا ذات اللعب واللهو.

أستيقظ الناس مدهولين مع اطفالهم وكلابهم وقططهم ودجاجهم وبطهم غير مصدقين ما يحدث وهم يسمعون أغرب عراك في الهواء الطلق من خلال مكبرات الصوت وفي ساعة الغبش، إذ لا تزال الاجفان مطبقة والقذى يملأ العيون.

ظل سكان قطاع (٣٣) في حيرة وارتباك، كيف يحاجزون ويفصلون بين الاثنين، أين يقفون ما بين هذا وذاك ويمنعون المشادة المتفاقمة وهي تجري فوق، من مكبرات الصوت عبر الهواء.

فات موعد أذان الفجر وأشرق الشمس على (ساعه) أم ميري وعلى حظها النكد ، وهي واقفة تنتظر زوال فورة الغضب عن شيخ (طاهر) ومتى سيعود الهدوء إليه؟

لولا اتفاق المصلين من كلا المسجدين على مصالحة الشيخين والصلاة على محمد وال محمد ،لبقيت (ساعه) تنتظر واقفة لحد صلاة الظهر. أنقسم المصلون بعد زوال غيمة المعركة إلى نصفين ، نصف يصلي في مسجد الشيخ (حسان) والنصف الآخر في مسجد الشيخ (طاهر).

وفي أثناء الركعة الثانية وبتزامن واحد في كلا المسجدين أستحوذ على المصلين ضغط احتباس الضحك، وفشلوا في كبته وكتمانه بعد محاولات عديدة فأنفجروا ضاحكين بأعلى أصواتهم وهم ساجدين : على أغرب حادثة عراق يشهدها تاريخ مدينة الثورة.

جلست (ساعه) في مدخل غرفة العائلة تنتظر الشيخ (طاهر)، جلست متكومة يطويها غياب وشرود عما يدور حولها من شدة وقع مصيبة ضياع وحيدها ، لكن هذا الشده لم يمنعها عن سماع خطوات قادمة توحى أنها للشيخ (طاهر) بعد حفاوة المصالحة والعناق والقبلات، فأرتمت (ساعه) على قدميه متوسلة. أنهضها موبخاً (أستغفر الله .. أستغفر الله) . طمأنها بآيات من القرآن وأحاديث للرسول وعترته وأصحابه ، ووعداها أن يفعل أي شيء يعيد لها أبنها إلا ما يغضب الله.

استمع الشيخ إليها حول ضياع أبنها الوحيد بكلماتها المنقوعة بالدموع والشهقات. مسدً الشيخ لحيته الأيلة لبياض شامل.

أسكتها بأشارة من يده الممسكة بالمسبحة، وأوصاها أن تجلب أصغر صديق لابنها وتأتي بعد صلاة الغروب بصحبة رجل وأمرأة مسنة.

خضر ومحمود يلعبان داخل الساباط (حية ودرج) عندما طرق الباب وكان الليل في أوله. فتحت أهمم الباب فدخلت (ساعه) مع امرأة عجوز ورجل من أقارب زوجها. يريدون (محمود) ان يذهب معهم الى الشيخ(طاهر). دار همس يشويه الغموض وبان على أهل(خضر) الارتباك والاحراج من هذا الاختيار لمحمود دون غيره من ربع (ميري).

بقي (خضر) يحوص في فراشه منتظراً عودة اخيه (محمود) من عالم شيخ (طاهر) السحري. يجهل تماماً أن أهله وأقرباءه وبعض الجيران مثله يتقلبون على الفراش ورووسهم تضج بطنين حشرات الألغاز .

رجع (محمود) منتشياً بلذة خوف غامض ورجعت (ساعه) بوجه طافح بفرحة تكسوها هواجس أمل قد يكون خُلباً.

جلس (محمود) وسط الساباط والتم حوله الجمع المنتظر يحثونه على سرد كل صغيرة وكبيرة فقال:

- أطفأ شيخ (طاهر) مصباح الغرفة الكهربائي بعدما اشعل شمعة ذابلة وعودي بخور في زوايا الغرفة ،ثم تاه الشيخ يذرع الارض - رايح جاي - يمشي مثل من تاه في الصحراء ،ولولا حيطان الغرفة لخرج بلا رجعة. تعب وراح صدره يعلو وينخسف وسمعت صوت اسنانه تكز مثل الحصو. قعد امامي وشفته تفوران بالتمتمة مثل النائم الحالم،مدً يده وتناوش يدي اليسرى فسحبتهما - عبالى يتشاقه وياي - قلت انه يمزح ويريد دغدغتي. لكنه اخذ يدي ووجهه يتقلب مع اشارات يده التي اخفتني. وضع شيخ (طاهر) راحة كفي قريبة من حلقة وأمطرها بالتمتمة حتى ان رذاذ لُعبه بلل أصابعي. ثم مسح الهواء بيده اليمنى سبع مرات ، وقرب راحة كفي من وجهي، صارت أمام عيوني وأمروني أن انظر اليها فقط ولا التفت هنا وهناك ابدأ. أمر الرجل الجالس ورائي ان ينفخ الشمعة، (ساعه) والمرأة العجوز جالستان

وراء الرجل . صارت الغرفة ظلمة حندس، لا اشوف شيء ولا اسمع شيء إلا تمطقات التمتمة من لسان شيخ طاهر ، ولولا يده التي تمسك يدي لضعت في رعب أسود. وفجأة فزرتُ وشهقتُ وشهق من كان ورائي حين ومضت راحة كفي ومضتين سريعتين ، في الومضة الثالثة توهجت راحتني بشاشة صغيرة تشبه شاشة السينما ولكنها بحجم الشخاطة. بدأ نمش ناعم صغير في شاشة كفي وشيناً فشيناً راحتُ تصفو وتصفو حتى رأيت (ميري) مع مجموعة من الرجال والنساء يجلسون في خيمة وبر، يأكلون ويضحكون وامام الخيمة أطفال صغار شعرهم أشعث طويل وبثياب وسخة ممزقة. لا أدري ماذا يلعبون .

تحركت شفنا شيخ (طاهر) بلا كلام ، يمكن استعصى عليه اسم المكان ، فسمعت زفرة قوية وصل هواؤها وحرارتها لوجهي وصاح:

- إشعلو الضوه.

توهج المصباح ورأيت شيخ طاهر يستند على الحائط، وجهه أبيض مثل القطن ولحيته ترتعش، ولاحظت فقاعات زبد على أطراف حلقة. أشار الى (ساعة) بالاقتراب وهمس بأذنها فلم أسمع سوى كلمتين: كاولية أبو غريب.

في ظهيرة يوم الاثنين وبينما خضر وناصر نابت ومحمود وكريم كشكول مندمجون في لعب الدعبل، وهم في أقصى درجات الجدبة، اخترقت زفة (ميري) ساحة (الطوبية) الصغيرة أمام دكان كشكول، يتقدم الزفة أبوه وأمه (ساعة) مع ذيل طويل من الأطفال وسط هلاهل و(وأهليه) الأقرباء والجيران.

بدا على (ميري) أنه قد كبر خلال الثلاثة أشهر من الضياع في مضارب العجر في أبي غريب ، وبنات ظلال زغب أسود فوق شفته العليا.

رقصت (ساعة) أمام باب دارهم رقصة الغراب، ترفرف بجناحي عباءتها السوداء ، تخنقها عبرة دموع الفرح الغاشم، شاركها الأطفال بالرقص وهم يتقافزون حولها. و(ميري) وسط ربه الذين يحيطون به، يفتلون زغب شواربه وينتفون بعض الشعيرات يبصقون عليها ، يحتفون به على طريقتهم الشقية. و(ميري) يزوغ منهم هنا وهناك فدخل دارهم راكضاً ولحق به ربه والأطفال حتى أرغموه على الغناء ، وتوسلوا أن يحكي لهم قصة إختطافه من قبل أقدم الخاطفين في التاريخ.

قال كريم كشكول لمحمود بعد رجوعه مع أبي ميري وأمه من وحدته العسكرية في (نفظ خانه) :

- لا أحد يدري كيف سينقلب مصير (ميري) هذا المنقلب وإلى وجهة لا تخطر على بال منكر ونكير. آخ..آخ لو بقي (ميري) مخطوفاً عند قبيلة العجر المعفيين من الخدمة العسكرية ومن الحروب.

وهكذا تشبثت (ساعة) بإذيال الشيخ (طاهر) مرة أخرى رغم جنونها الخانس الرصين ، جالسة أمام باب المسجد من شروق الشمس إلى غروبها، جالسة كتمثال له سبع أرواح، تتطاير من لسانها نثار كلمات ملتهبة:

- مندلي... شيخ طاهر... ميري ماكو... عجر أبو غريب... نفظ خانه لا هو حي ولا هو ميت... مندلي مندلي... مفقود مفقود... ميري ماكو... وتعوي مثل ذئب جريح ووحيد يحتضر:
ميببيبيبي

شيخ (طاهر) يتهرب منها ويتحاشاها فيخرج من الباب الخلفي للمسجد ويدخل منه. ينزع عما مته منفلاً ويهتف في باحة المسجد الفارغة، يصيح حائفاً :

- يا جماعة ماذا أقول لها، أبلك وحيدك خطفه عجر الحرب، عجر قادسية بهضام... أين أنهزم منها أين أوي.. في النهار أمامي تندب وتهدى.. في الليل تطاردني في كوابيسها .. ساعة السودة العرفت بها ساعة... يا ناس يا عالم وين أنهزم وين... إلهي يا ربي لو تأخذني وأرتاح، لو تأخذها وترتاح.. إلهي أنت وحدك عندك خبر أبنها... إلهي يا سيدي لو هي تموت لو أنا أموت.

يلتوي عنق (محمود) رغماً عنه ويدير رأسه صوب التمثال الأملح، فيخطو نحو (ساعة) ويقف أمامها بعدما يهش الأطفال المتحلقين حولها، الذين يتحاشون بها ويستفزونها، لكنها جامدة هامدة، عيونها وحدها حية تشتعلُ ولسانها يذرف غصّة العمر. ينهضها وينفض التراب عنها. يقودها إلى دارها حيث تتمدد في الغرفة قرب زوجها الذي تلاشى وجوده داخل دشداشة بلون الرمل ، تنث عليهما سماء الغرفة وفر الجص.

بعد ثلاثة أيام فقط من إنتشار خبر المفقود (ميري) في قطاع (٣٣)، الذي مات بلا جثة في انفجار سيارته ال(إيفا) بلغم، إستيقظت حبيبته (لندن) الزنجية بوجه منتفخ ويدين وساقين متورمتين، لا تستطيع حمل جسدها على النهوض، تصرخ بكل طاقتها فلا يخرج من فمها سوى بخار أحمر غير مرئي، يتلاشى بسرعة.

نقلها أهلها إلى مستشفى (الچوادر)، رقدت في الطابق الثاني فترة أسبوعين والأطباء حانرون في تشخيص علتها وأسباب هذا الانتفاخ الذي يزرّقُ وتتضخم.

وفي ليلة الجمعة وهي تحرق بزجاج النافذة وأختها الكبيرة جالسة تغفو نعسانة فوق السرير، إندفعت فجأة (فردة) النافذة ودخلت ريح تحمل ذرات غبار مُحمر، كما تحمل أصوات حفلة عرس وصوت مطرب يعني عبر مكبرات الصوت:

الناس تعشق من خال بوجنته / فكيف بي وحبيبي كله خال.

تعانق الصوت مع ستائر النافذة التي راحت تتحرك ببطء ثقيل، مزيحاً الهواء الراكد قبل ان يخفت ويتلاشى، فكان هذا آخر ما سمعته (لندن) الزنجية.

ودعت جبل (قنديل) وأنا أختضُّ من البرد من حذائي حتى قبعتي المدنية وقد تجمد العرق على وجهي ورقبتي وأسمع طقطقة أسناني. كل هذه المشقة من أجل لقطة دراماتيكية فوق جبل قنديل حيث تصورني عدسات عشرات الكاميرات.

صحتُ ملوحاً بيدي وأنا أنزل بهدوء حذر فوق منحدر لين بلا إنعطافات حادة وبلا إنحناءات خطيرة:

- وداعاً أخي (قنديل)... أنت وحيد وحرّ وأنا وحيد وحرّ... عند قمتك المنفية أكتشفت أنني أمة.. وداعاً أيها الأمة.

نزلتُ، أفكرُ مندهشاً: عجيب... لم أصادف أي حيوان ولا طير في هذا الجوّ الساكن الخانس ، جو تحفه الوحشة الصارمة من جميع الجهات.

وجدتُ رجلي تركض رغم أنفي ، شعرت بقوة تدفني من الوراء وبموجات مغناطيسية تسحبني للأمام. فقدتُ السيطرة على رجلي تماماً وأنقذتُ راكضاً مثل المتزحلق فوق الجليد. صوت ركضي يضيف على طبقات السكون والصمت طبقة أخرى من السكون والصمت. أطيّر مثل سنونو في هذا الفراغ الصقيعي القاحل، تعثرتُ قدمي بشيء صلب فترنحتُ وبقيتُ أرفرفُ بيدي وأنا على وشك السقوط، تضربني حقيبتي الصغيرة مرة على صدري ومرة على ظهري حتى أنكفأت ممدوداً على بطني كأنني أركب زحافة لا مرئية. أنطلقُ بسرعة سيارات السباق. رأسي في المقدمة أرفعه لأرى ما أمامي وقدماي مرفوعتان خلفي. - إنها موتك يا خايب - أي نتوء صخري يصادفني يشطرنني نصفين ، أية صخرة قدامي سوف أتهدم عليها وأطير شلواً تلو شلو، حيث لا أستطيع أن أستدير وأزوغ عنها وكيف أتحاشاها وأنا بلا مقود. سقطت مني الحقيبة الصغيرة لا أدري أين وأخاف أن يطفر حذائي من قدمي .

فكر فكر يا (خضر قد) فكر.. عافك المخرج ولم يتدخل، عافك في ورطة كأداء بينما الكاميرات تواكبني... تصورني من فوق ومن تحت.. ها قد انتهيت أيها المحظوظ، أي معجزة توقف زلاجة جسدي المنقذة مثل الطلقة نحو الأسفل، حيث الوديان المكشرة بالمنيا وحيث الشقوق والتجاويف تفتح أشداقها تحتي، أي موت مجنون يتربص بك أيها المحظوظ؟

كأنني بلا تفكير وبلا غريزة فائقة الذكاء رحّت أسبُح في الثلج، أضربُ يدي اليمنى بقوة داخل الثلج تليها يدي اليسرى بنفس القوة والإصرار، وكذلك أضرب برجلي جريش الثلج واحدة بعد الأخرى. أسبُح وأفوج لكي أقف:

أضربُ يا (خضر قد) أضربُ بيديك وقدميك.. أقوى أعمق.. أنشبُ أطرافك في الثلج بقوة بقوة هيا هيا.

وفعلاً بدأت سرعتي تخف وانطلاقتي تتباطأ وأنا أخرمش الثلج بيدي وقدمي.. ها...ها.. وقف جسدي. توقفتُ تماماً على بعد شبر واحد فقط من صخرة عملاقة بيضاء جاهمة تسد الطريق.

انسدحت على ظهري إلهتُ ويضجُ برأسي دوي انفعال صاخب، تدور بي الدنيا تدور وأنا في حال كمن يخلف وراءه عرابيد خوف ورعب. اشهق مبهور الأنفاس: ما بيني وبين الموت شعرة.

نهضت أصعد جبل (قنديل) أبحث عن الحقيبة وأنا أشعر بدبيب نشوة كوني ما زلت حياً ، أرى قمة جبل قنديل ضائعة في بخار كثيف. وجدتُ الحقيبة غير بعيدة فأندرت إليها تناوشتها ورجعت أنزل مرحاً بهدوء وبشكل ميسمي حتى وصلتُ الى أرض مستوية سهلة تمتد أمامي بلا صعود ونزول. سمعت خرير ماء بعيد، ربما هو شلال منسي في مجاهيل هذه الأرض المقللة بلا نهاية. لكن صوت الماء الهادر يقترب مني أكثر فأكثر كلما تقدمتُ أمشي وكلما مالت الأرض تحت قدمي:

أمشي وخرير الماء يمشي معي، وحدي أعزل من أي سلاح، أنتفس أنقى هواء مرّ على خشمي ، هواء انعناق من جرائم المسؤولية، هواء خفيف كلما استنشقه أزداد خفةً وشفافية حتى شعرتُ بجسدي مثل البلور. لقد رجعت لوطني الروحي بعد نفي طويل طويل استمر منذ ولادتي حتى جبل قنديل.

رجعتُ من غربة ثقيلة ومريرة ومنتنة. الآن عندي استعداد لأحتضان كل ما يصادفني، لا أخاف من دبّ ولا من ذئب لأنني حرّ طليق مثلها تماماً ، يحتبس في صدري نداء عواء مديد إلى كل الذئاب: تعالي نركض سوياً فأنا الآخر قد استعدتُ وحشيتي المفقودة ، وحشية طبعي الأول، التي لا أتألف إلا معها. تبددت وحشتي من العالم بوحشية أليفة. عندي استعداد لمعانقة النمر ومسامرة الذئاب: هنا حشر مع الحيوان عيد وليس مع الناس.

عجيب... خرير الماء هذا صار قوياً صاخباً، يتدفقُ بصوت أسمع به بكل جسدي لا بأذني فقط، عجيب... هدير الماء هنا ولكن أين؟

تطلعتُ إلى ناحية جهة اليمين ثم إلى جهة اليسار فلا أثر لشلال أو جدول أو جعفر أو نهر، أذن من أين هذا التدفق الهادر، صوت ماء صاخب يصمّ الإذن ويخترقني فلا أسمع حتى صوت نفسي لو صرخت بأعلى صوتي.

أمشي ويغمرنني صوت الماء، يزيح ثقل حزني وثقل اليأس والكآبة . أنا هنا بلا أحزان ولا أفراح مثل أي وعل ، أهيم بحريتي ولا حدود لخطواتي. عدت الى نفسي الى ذاتي بعد فراق وفقدان أستمر العمر كله. صحتُ من غيبوبة العيش المنافق الزائف في المدن بين الناس، عدت متصالحاً مع روحي وكيونتي. للمرة الاولى أجد نفسي الشخص المناسب في المكان المناسب.

توأً اكتشفت المتعة بالغرق في النهر أو البحر والاستسلام لموت عظيم. فأنا لو مت في غابة العظام ... لو مت فوق جبل قنديل.. لو مت اثناء انزلاقي من المنحدر على بطني، سيكون أجمل موت ، لأنه موت حر غير مفروض عليّ ولا أنا مرغم عليه كالموت في جبهات القتال وموت الإعدام. الموت هنا في الهروب الكامل هو القبض على جوهر الحرية، موت غير

منقوص ولا مذل. الموت هنا هو الآخر كامل ومطلق، موت بالارادة الحية، موت يحاول
الوثوب الى قمة الذوبان الحر في حضن الطبيعة، هو موت ولادة تتكرر الى ما لانهاية.

أكد ان هذا الهدير هو لماء موجود فعلاً وليس وهماً أو خيالاً. ضجة الماء ملتصقة بي..
تتفايض مني ولا تفارقتي.

من أين ينبع هذا الصوت من أين يأتي كل هذا التدفق وانا اشق طريقي الى المجهول معانقاً
حريتي، اشمها في هواء كوردستان المفرط النقاء، وانا وحدي تغمرني لذة الفرار، مخلفاً
ورائي ثقل ربيبة العقق وثقل الجيش والحرب وثقل المدن والوطن والامة والعالم والتكنولوجيا
، مخلفاً ورائي براغي الذوات البشرية الصدئة في آلة العيش الضخمة. هل تملصت نهائياً من
تلك الآلة وأنا أحتفي باسترداد نفسي وذاتي، التي جمعتها ولملمتها قطعة قطعة، وطيفاً بعد
طيف، وحلماً بعد حلم؟

أمشي وهدير الماء يداهمني من كل الجهات، المكان ماء والزمان ماء... أخ.. ما هذا: انقطع
الطريق الذي أمشي عليه منذ نزولي من جبل قنديل وظهر تحتي نهر صاحب فوار ، يتدفق
مزبداً أبيض يندفع بسرعة كأنه مطارد هارب لا يلوي على موجة خلفه.

ضحكت ساجداً على ركبتي فوق الثلج وأنا أهدق في النهر الهارب الجارف الخطر. أباخ.. كل
هذا الوقت أنا أمشي فوق النهر ولا أدري، ماذا لو ركست قدمي وغاصت في الثلج وتكسر
فأسقط في لجة هذا النهر الهارب؟ هل تنفع سباحة مع هذا النهر المجنون ؟

أنه أخي هارب مثلي وإلا كيف تخفى كل هذه المسافة لا يُسمع إلا صوته.

فعلاً أنا محظوظ، لأن أي عاقل يحل مكاني، وهو يسمع هدير الماء الصاخب، يتوقف مباشرة
ولا يمشي خطوة واحدة، أما أن يعرف مصدر هذا الصوت ومن أين يأتي، أو يبتعد عنه قدر
الإمكان.

بل أنا محظوظ فوق العادة حين أفلت ولم يخمطني مخلب (الكنكري)، مثلما خمط الكثيرين من
أمثالي وهم يعبرون الحدود إلى إيران مشياً على الثلج، خاصة بعدما انخلع بوز حداني من
الأمام بعد اكتشافني النهر الهارب الذي أمشي فوقه ولا أدري. فقد تركت البسطال والبنديقية ولم
أندم برغم تسرب الثلج إلى جواربي وأصابعي.

وها أنا أرى الكثير من اللاجئين العراقيين في مخيم (كرج) الذي يقع في ضواحي طهران
الشمالية، رأيتهم يعرجون ويقلزون بعد إصابتهم بمرض الغنغرينا ، بعضهم قد زحف على
ساقه سرطان (الكنكري) فبتروها، بينما مات آخرون بهذا السرطان ودفنوا في متاهات الجبال
المجهولة يحفظهم الثلج من التلف، ودفن البعض في مقبرة الغرباء خارج طهران بعد أن
ماتوا في المستشفيات من شدة تفاقم زحف (الكنكري) .

كل لاجئ عراقي يغصُّ بحكاية تشيب شعر الرضيع، مع حكايات أخرى جديدة إثناء الفرار من
إيران:

(مزهر) لاجئ من سكنة قلعة صالح في مدينة العمارة ، ينام في سرير مقابل سريري بالضبط. مزهر عبر شط العرب سباحة في الليل وسط أمواجه المخيفة، التي تعجُّ بالألغام والكواسج وغيلان (عبد الشط)، عدا الفذائف والرصاص وهي تبقر بطن الماء.

إحتمل مزهر فضاعات مخيم (كرج) بروح جنوبية لكنه لم يحتمل وهو يتخيل: عامل المطبخ يبصق في كل ماعون طعام يقدمه له. فإنتفض ساخطاً وقفز من سريره دون أن يمسه أحد أو يخذشه تعليق عابر.

ظل متمدداً فوق سريره طوال النهار ولم يتناول وجبة طعام واحدة في المطعم، وفجأة قفز من سريره ساخطاً وصرخ:

- شبعْتُ بصاقاً ولن أبقى بعد اليوم، أتعفن هنا فوق السرير الخزي هذا، ملئت من تفسخ آمالي وأحلامي.

في اليوم الثاني هرب مزهر إلى أفغانستان لبدأ حياة جديدة من الصفر. لكن الجيش الروسي قبض عليه، ونبشوا عقله وقلبه تحقيقاً واستجواباً، وتعفن في السجن طوال (٣٦٦) يوماً لأن السنة كانت كبيسة. قرر الجيش الروسي تسليمه إلى السلطات الإيرانية - درب الجابه يرجع منه - وفي الطريق إلى إيران، والعودة من جديد إلى ما دون الصفر، ومزهر مقيد اليدين أشعث الرأس وبلحية أطول من قصب الهور .

كان يمشي مع الحرس الذي يقتاده، مرّ رتل دبابات طويل يثير عواصف ترابية. ومزهر بالتأكد راح يفكر:

- أرجع إلى إيران وأسجن ثم أهرب ثانية ويمسكوني في إحدى الدول المجاورة لإيران، يسلمونني إليهم وأسجن ثم أهرب ثانية ويقبضوا عليّ و و و و و و

ودون ان ينتبه الحرس رمى مزهر نفسه تحت سرفة دبابة روسية، هارباً إلى مكان قصي ، مكان يستحيل فيه القبض عليه.

صديقي لازم أبو (المعلاگ) دائماً يتحدث إليّ عن مدينته الموصل بشوق وتفجع وكأنها (إيثاكا) أودسيوس.

عبر (لازم) إلى إيران يركضُ مع مجموعة من الهاربين يتقدمهم (القججي)، مُهَرَّب قبض منهم نصف المبلغ ويقبض النصف الآخر بعد وصولهم سالمين لإيران. ركضوا في ليلة حنّس بعد ما خلفوا وراءهم مدينة (حليجه) بعدة ساعات، حيث قال لهم المهَرَّب:

- هذه آخر نقطة عراقية، نعبرها وندخل إيران لكن علينا أن نركض بسرعة.

إنفلقت في الجوّ قنابل تنوير كشفتهم مفضوحين وهم يتسللون. فلم يأبهوا ولا أهتموا حتى لو حصدوهم بصليبات الرصاص حين لمحوا كما يقول لازم:

- إكتشفنا مذهولين... أننا نركض فوق ممر ضيق عرضه شبرين لا يستوعب إلا قدمين فقط، ممر بعرض منقلّة (المعلاگ) هذي، ومن جانبه.. من اليسار واليمين فراغ قاحل لا يسبر

غوره، يعني كنا نركض ونحن معلقين في الفضاء، لو سقط واحد منا لا نسمع له صوت ولا صدى.

حين إدركوا أين هم يركضون بالضبط، قعدوا على مؤخراتهم ممتطين الممر مثل إمتطاء الحصان أو السياج، عبروا يزحفون على مؤخراتهم حتى وصلوا الأراضي الإيرانية.

صديقي (لازم) كفاً منقطة (المعلاگ) بجمرها وأسياخ قطع اللحم قبل أن تنضج مشوية ، يعني (نص ستاو). وسافر إلى ميناء (بندر عباس)، تأكل قلبه الحشرات على نساء طهران ومغامرات صيد (الإيجات) من مطلقات وأرامل.

نفخ لازم رماد أربع سنوات هروب من مخيم كرج ، كان قد أحرقها في منقطة شواء الأكباد. نفوده يضيعها على مصاريف ما تحت السرّة والإيجارات فلم يدخر سوى (٥٠٠٠) تومان. سافر بها إلى ميناء بندر عباس.

اشتغل حمالاً في سفينة يونانية وأختبأ في أحد العنابر بلا ماء ولا أرغفة خبز، ومن سوء حظه توقفت السفينة بعد مغادرتها الميناء يوماً بليلاً دون أن يعرف لازم السبب.

آذاه العطش وحرّ العنابر حتى شعر أن الهواء قد نفذ، ورنثاه تخفقان بألم. زهق مختنقاً وخرج إلى سطح السفينة فإثار ضجة بين البحارة وطاقم السفينة . - ستبقى أمواج الخليج تسرد فجيعة لازم للقمر ما دام هناك مدّ وجزر - تفاقمت الضجة إلى أقصاها حتى تدخل القبطان، لأجل التوصل إلى حلّ لهذا الدخيل الغريب الذي نبق من جوف السفينة، ولا يعرفون ماذا سيفعلون به: هل يرجعون إلى ميناء بندر عباس ويسلمونه للسلطات الإيرانية؟ هل يأخذونه معهم إلى دولة اليونان ولكن بماذا سيبررون وجوده وبأي صفة يدخل بلادهم، ومن يتحمل مسؤولية إدخاله إلى البلاد، أم يلقونه في مياه الخليج وتنتهي المعضلة؟

كأن مشكلة لازم الصغيرة والتافهة قد استعصت على عقول البشر وأرقت العالم، بحيث يُعدّ إنقاذه جريمة تحاسب عليها قوانين الملاحة البحرية.

أنقذتهم وخلصتهم من دبق الحيرة الإنسانية، وأنتشلتهم من مخلفات الضمير والأخلاق صخرة سوداء بارزة وسط مياه الخليج.

انحرفت السفينة اليونانية نحو الصخرة، وألقوا لازم فوقها، ومضوا في طريقهم بضمائر مطمئنة مرتاحة.

أكيد صديقي لازم لم يترك سفينة أو باخرة أو زورقاً أو أي دابة فوق الماء بدون صرخة إستغاثة وصياح استجداد، وبدون تلويح يديه طلباً لإنقاذه. ولكن لم يره أحد، لم يلمحه أحد..

لا.. لا، ربما رأوه وتحاشوه، تحاشوا إصداع رؤوسهم بمشاكل غيرهم، وما أكثر مشاكلهم... لماذا يدوخون أنفسهم بتفاهة روح واحدة من هؤلاء الشرق أوسطيين؟

بعد ثمانية أيام، اكتشفه زورق لدورية من الحرس الثوري الإيراني، عندما لمحوا طيوراً جارحة تهبط فوق الصخرة السوداء في عرض مياه الخليج.

ورش العوق

- هاي الحرب ما تخلص.. ما تخلص... راح تأكلنا كلنا.. وما تخلص.

هكذا خرج (عبودي) من البيت يفكر متجهاً صوب شارع (مريدي) قبل يوم واحد من انتهاء إجازته الشهرية. يفكر بقذارة هذه الحرب وطول كابوسها ووحشيتها، خاصة وقد بدأ بهضام بقصف المدن الإيرانية بصواريخ أرض - أرض، بشكل يومي ومكثف. وقد سمع من خلال بعض الجنود في وحدته: أنهم ربطوا ضابطاً بالحبال على جسم صاروخ أرض - أرض في قاطع شرق البصرة وإطلقوه صوب إيران. إتهموه بالخيانة العظمى على أثر تقرير يقصم الظهر، كتبه أحد وكلاء الأمن، ملخصه: هذا الضابط يتعرق أثناء شتم وسب الخميني.

(عبودي) رأى في تجواله الكثير لقواطع جبهات الحرب، رأى الجنود الأطفال وهم يرتعدون خانقين تائهيين، لا يعرفون أين يلوذون، بعضهم يبكي مصدوماً وكأنه انتقل مباشرة من حضن أمه إلى حضن الحرب .

يفكر بهؤلاء الجنود الأطفال وهو يمشي في أزقة مظلمة على وشك الوصول لشارع (مريدي)، تتساقط وجوه الجنود الطفولية من جيوب ذاكرته المثقوبة، يردد مع نفسه يائساً من نهاية الحرب:

- حتى الرضيع راح يلحك على هاي الحرب.

تلقفه شاب نصف وجهه محروق فور وصوله إلى تقاطع شارع (مريدي)، إحاطه بأسئلة جاهزة كأنه تدرّب على طرحها وإعادتها مئات المرات ، الشاب سريع الحركة يلتفت بحذر خاطف:

- جندي مطوع لو مكلف... وبأي قاطع؟

وعبودي يجيب بلا مبالاة:

- في قاطع نهر جاسم.

لمح (عبودي) أن أصعب السبابة والإبهام في كف الشاب اليمنى مبتورين وهو يوشر ويسأله:

- كسر يد... رجل؟ بتر كف لو أصابع؟ لو تريد قلع عين؟

اندهش (عبودي) من وقاحة لغة الشاب وخفتها العفنة وكأنه يعرض بضاعة لأفلام (سكسية) ومجلات خلاعية. تعجب من نطقها بلسان تلقائي ذرب وهي جرائم بتر الأعضاء البشرية، التي سمع عنها كثيراً في ورش التعويق، ورش تفسيح البشر. عمليات هذه الورش عكس عمليات المستشفيات - واحد يكسر واحد يجبر - حيث الممرض والمضمد ومعاون الطبيب الذي يجري عمليات تجبير العظام وصّبها بالكلس في المستشفى، هو نفسه الذي يكسر عظام اليدين والرجلين هنا في ورش العوق. وكل عملية لها سعرها كما يقول الشاب الدلال محروق الوجه، حسب خطورتها وتعبها ونوع المخدر الذي عادة يكون (ربع عرق) تصعد خمرته للرأس بسرعة البرق.

وإذا كانت العملية بطلق ناري فأنها تجري بعيداً هناك في منطقة (الشلبه) وراء شارع (مريدي) . أما بقية أعمال العوق فلها محلات خاصة في بعض البيوت وبعض دكاكين المضمدين . سأله الشاب الدلال :

- اتريد تسريح من الجيش لو إجازة طويلة ؟

- أريد كسر اليد اليمنى .

قالها (عبودي) وكأنه يجاري طريقة كلام الشاب الدلال في لا بأليته ولغته الوقحة :

- كسر برصاصة لو كسر عادي ؟

أجاب عبودي ساخراً:

- الخرة أخو البول... لا.. كسر عادي .

- بـ (٧٥) دينار... زين ؟

- لا لا بـ (٥٠) .

اتفقا على (٦٠) دينار وغابا في ظلمة أزقة مقفرة، وعبودي يتخيل صوت انكسار يده (خق) ، ويتدلى عضم الزند مثل طفل مشنوق.

لم يكتشف (كريم كشكول) ما فعله عبودي بنفسه إلا بعد خمسة أيام وهو جالس في مأتم (فرحان) الشبح ، الذي وجدوه ميتاً في ثلاجة الجثث العملاقة أثناء خفارته الليلية في المشرحة قرب مدينة الطب في باب المعظم.

دأب معاون الطبيب (فرحان) على مشاويره التفقدية بين أكوام الجثث في قاعة التشريح والجثث داخل الثلاجات العملاقة ، يراوده أمل سماع ضرطة ساخنة.

وفي نوبة خفارته تلك ليلة السبت، ترك سجله الكبير الذي يدون فيه أسماء الموتى والمعلومات القليلة عن كل جثة، رمى القلم فوق السجل وراح يمشي بين الجثث فدخل إحدى الثلاجات كعادته في كل جولة، يتفحص الأنطباع الأخير الجامد فوق وجه الميت ، وهل كان الميت يراقب شعاع روحه وهي تنسل منه خارجه ، أم قضى نحبه بشكل مفاجئ فارتسمت الصدمة على ملامح وجهه.

توصل (فرحان) الى إستنتاج محير: وجوه الجثث لاتتشابه في الموت مثلما لا تتشابه في الحياة . وجوه فيها تفاصيل دقيقة لايمكن ملاحظتها بسهولة ، تشبه تفاصيل بصمات الاصابع .

لكن باب الثلاجة العملاقة عوى بصوت ناحب وانسد من الخارج ، انقفل من تلقاء نفسه فلم تسمع الجثث صراخ (فرحان) الشبح داخل الثلاجة، ولم تسمع ضربات كفيه القوية واليانسة على الباب المقفول. ربما سمعت الجثث ذلك الصراخ وتلك الضربات ولكن ماذا تفعل وهي لا تستطيع غوث نفسها .

في الصباح سقط (فرحان) الشبح منكفئاً على الأرض حالماً فتحووا باب الثلاجة .

كريم كشكول يفكر بكتابة ورقتين أو ثلاث ليدسها في فتحة (الميز) السرية في منطقة (الحسينية) قرب مقبرة محمد سكران، وهو يتخيل (عبودي) لحظة كسر يده اليمنى بأمل الخروج من الجيش، جاهلاً تمام الجهل: بأن عقل الجيش الفذ قد ابتكر وحدة عسكرية من المعوقين والمصابين بشرخ عقلي، وحدة للحراسة والأشغال ومهمات خفيفة أخرى ، لكي يسدّ النقص الخطير في عدد الجنود، كما يسدّ الطريق أمام كل جندي يحاول بتر أصابعه وقطع كفه وكسر يده ورجله، وكل من يحاول زرق جسده بحقنة النفط، سدّ الطريق أمام كل ما يفعله الجنود من حيل والآعب للخلّاص من الحرب. كما وجّه عقل الجيش الفذ ضربة في الخاصرة لتجارة ورش العوق وسيعم الكساد في سوقها في شارع (مريدي) وغيره.

وجد (عبودي) نفسه في وحدة عسكرية تعجّ : بفصيل من المجانين والمخابيل وانصاف المجانين، وفصيل جنود يعرجون ، بعضهم يتوكأ بعكاز، يسحلون وراءهم أكمّام بنطلوناتهم الخالية من الساقين. وفصيل جنود كتع يمسون البندقية بيد واحدة فقط عند التدريب . وفصيل العوران والمحروقة وجوههم، وفصيل المبتورة أصابعهم وذوي العاهات الخفيفة مثله . وجد نفسه في وحدة الأنقاض البشرية يؤهلونهم لسدّ النقص في بقية الوحدات كجنود حراسة وتموين وإشغال ومهمات أخرى غير قتالية.

ضحك (عبودي) حين اكتشف بأن الضباط وضباط الصف هم أيضاً من المعوقين، رأى أمر الوحدة مقلوع الكتف وأعور. فضحك بصوت مسموع وهو يقف في ساحة العروض بوضع الاستعداد حين تذكر مقولة المجند المصري الذي تطوع مكرهاً مع الكثير من المصريين رغم إغراء الرواتب العالية. جنودهم في قواطع الجيش الشعبي الذي شكله حزب البعث بقيادة طه ياسين رمضان.

صعد هذا المجند المصري إلى سياراتهم الـ(إيفا) بلا سلاح ولا عُدة، هارباً من جبهة القتال في نهر جاسم. جلس جنب (عبودي) وهمس له:

- ألف مرة كُبان ولا شهيد مرة واحدة.

- ٥ -

أول صفة تلقيتها في مخيم (كرج) ودوختني ، هي أن معظم اللاجئين العراقيين لا يطيقون إيران ، فهبت رياح اللامعقول داخل أروقة دماغي: لماذا جاؤوا إلى إيران أذن؟ خاضوا كل هذه المغامرات وجازفوا بحياتهم وأهلهم إلى بلد يكرهونه، كيف ولماذا؟ أهرباً من الحرب فقط ؟ هل هي إنانية الخلاص الفردي وطز بالعراق وشعبه؟ أم أن في الأمر ريباً، أمر غامض لا

يستوعبه عقلي؟ كلما أسأل أحد اللاجئين عن سبب هذا الكره ويطول جدلنا، لينتهي بجملة شائكة: أنتظر مرور الوقت عليك هنا وستعرف السبب.

الصفعة الثانية في مخيم (كرج) هيجت في قلبي كل وحوش الرعب الغافية ، وحوش زنازين وغرف التعذيب والتحقيق. عندما سألت عن الغاية من الأسماء المستعارة للاجئين: أبو كرار، أبو أيوب، أبو أشواق. وهكذا يختبئون خلف هذه الأسماء إلا قلة منهم ظلوا يحتفظون بأسمائهم الحقيقية مثل مزهر ولازم وعماد. وحين اكتشفت السبب تفاقم العجب، إذ يتخفى رجال الأمن والاستخبارات والمخابرات بصفة لاجئين.

فأختاروا لي أسم (أبو فجر) لكنني رفضته وقلت: يسمونني (خضر قد) متوهماً بأن وحدتي العسكرية سوف تعتبرني مفقوداً لا هارباً، فلا خوف على أهلي من بطش بهضام وحزبه.

الصفعة الثالثة خرقت طيلة أذني ودوى في أزقة جمجمتي صفيرُ الشده ، حين اصطدمت بكثرة المجانين وأنصاف المجانين والمرشحين للجنون، بعدما رأيتُ شخصاً مهيباً أشيب الصدغين يرتدي بدلة عسكرية زرقاء - لا أحد يعرف كيف ومتى حصل عليها - ويضع على رأسه قبعة زرقاء أيضاً تشبه قبعة قبطان اسكندنافي، لا يتذكر أحد أين عثر عليها ، ربما عبرتُ هذه القبعة الاسكندنافية المحيطات والبحار إلى ميناء بندر عباس، وانطلقتُ منه لتستقر فوق رأس الجنرال (بترس) وكأنها مفصلة على مقاسه بالضبط.

طبعاً هو ليس جنراً ولا أسمه بترس، وجده اللاجئين هكذا بتلك البدلة والرتبة والأسم.

رأيته جالساً في مطعم المخيم إثناء وجبة الغداء، يأكل التمن الأصفر مع الكشمش، استلمتُ ماعوني وجلست أمامه أسترق النظر إلى وجهه الودود المترفع كزهرة في مزبلة. يتناول طعامه كمن يصلي غانباً عما حوله، ولكن يبدو أنه يراقبني: كيف أعزل الكشمش وأتناول التمن فقط ، فخاطبني بصوت نقي يرن:

- الكشمش هو السبب في قيام الحرب العالمية الثانية.

ونهض يمشي باستقامة ورصانة لا يلتفت إلى تعليقات بعض اللاجئين (البايخه) التي يتندرون بها عليه بصفتهم (لوتيه) .

وصلتُ مخيم (كرج) مع أحد عشر هارباً عبر الحدود لإيران مثلي، وقفنا أمام باب المبنى القديم ذي الطابقين المخصص للاجئين المدنيين، يتفرجون علينا جماعات تذهب وجماعات تجيء ، لعلهم يتعرفون على واحد منا نحن الوافدين الجدد. رأيتُ أحدهم يلوح لي رغم أنني لا أعرفه فابتسمت رافعاً يدي.

وزعونا على القاعات، المدني إلى البناية القديمة ، ونحن العسكريون إلى البناية الجديدة ذات الطابقين، تفصل ما بين البنائيتين حديقة صغيرة، وفوق الأسطح تتوزع مكبرات الصوت تلعلع فيها الإذاعة العربية في طهران. والمخيم برمته محاط بسيج نصفه السفلي طابوق ونصفه العلوي أسلاك شائكة مع برج حراسة ومراقبة عالين .

أصطف بقربي اللاجئ الذي لوح لي وعرفني بنفسه:

- أنا (عماد) صديق كريم كشكول في إكاديمية الفنون الجميلة ، أراك دائماً تمشي معه وتجلسان في مقاهي الميدان وشارع الرشيد. عن أي طريق هربت؟

- سلمت نفسي للقوات الإيرانية في مدينة (بيران شهر) بمساعدة ال(بيش مركه) البرزانيين ، ثم إلى مدينة أرومية حتى طهران، حيث جمعونا في إحدى دوائر وزارة الداخلية مع البقية وجلبونا إلى هنا.

عرفتُ من خلال (عماد) بوجود سجن في قبو البناء القديم، والعشرات من اللاجئين معتقلين في سجن (إيقين)، ولاجنين منفيين في أسطبل قديم متروك وسط الصحراء في (سمنان)، وعرفت أن لدينا يومي إجازة في الأسبوع بلا مبيت خارج المخيم.

سألت (عماد) عن طريقة للتواصل مع أهلنا في العراق وكيف نخبرهم بأننا أحياء ، فكشف لي سر المراسلة مع أهله عن طريق صديق له في الجزائر: يرسل عماد رسالة للجزائر فيفتحها صديقه ويضعها بمظروف جديد ويرسلها للعراق، وكذلك يصل إليه الجواب بواسطة صديقه من الجزائر الى إيران بمظروف آخر. قال عماد:

- هذا سرّ لا يعلم به أحد سوى أنا وأنتِ عرفته الآن. أكتبُ رسالة مع ورقة صغيرة فيها عنوان الشخص الذي تريد مراسلته. ولكن حاول التمويه في كتابة الرسالة لنلا تقع في أيدي المخابرات العراقية .

وفعلاً كتبتُ رسالة إلى كريم كشكول على عنوان إكاديمية الفنون الجميلة ، كتبتها بصفتي فتاة صديقة لكريم تعيش في الجزائر، أسمها (سلامه) لكي يتعرف كريم عليّ.

أعطيت لعماد رسالة مينوساً من وصولها ولكن ربما يسويها الحظ ولو مرة واحدة في العمر وتصل الرسالة.

بقيت هكذا ، اكتشف يوماً ثالولاً قبيحاً في وجه حبيبتي إيران ، وذعرت خشية من الانحدار إلى هؤلاء الكارهين الساخطين، خاصة وأن الإيرانيين هنا في المخيم من إداريين ومحققين وحرس وعمال المطبخ يبادلونهم الكره.

دخلت إلى المغاسل والمراحيض انتظر دوري للتلبول، رأيتُ لاجئاً يملأ قدح زجاج بالماء ويرفعه للأعلى ، يحدق بصفاء الماء ويهزُّ رأسه امتعاضاً فيسكبه، ثم يملؤه ثانية ويتمعن فيه يعرضه للضوء ويسكبه منزحاً ويملؤه مجدداً، فنادى عليّ أن تعال، تعال وأنظر:

- أتشوف هذا الدود الأحمر.. أتشوف هاي السلايخ.. الماي ملوث.

أشار إليّ أحد الواقفين المنتظرين دورهم لدخول المراحيض ، بأشارة مغزاها أنه مجنون أو مرشح للجنون .

اقتربت من صاحب الإشارة وسألته:

- لماذا يتوهم بأن الماء ملوث؟ أجبني مستغرباً:

- أنه لم يتوهم.. الماء فعلاً ملوث مثل ماء العمارة والناصرية.. إلا أن هذا المسكين (أبو كلاس) هو واحد من ضحايا إيران... ضحايا الحب المقفل والتفديس الأعمى، نحن نسميه هنا (التفديس الخُلب). هذا المسكين يعتبر الإيرانيين جنساً من الملائكة، منزهين عن الإساءة والإذى. وعند وصوله مخيم كرج توالى عليه المصائب والصدمات، أولها ضياع جواز سفره ونقوده - فالجواز هنا روح اللاجئ - وآخرها حين صعقته الكهرباء متوهماً أن كهرباء إيران لا تؤذي ولا تنتل. ويوماً بعد يوم انقلب التفديس إلى تدنيس والعشق إلى بغض، فراح يشكُّ بأي شيء له صلة بإيران، والمسكين هو منذ البارحة لم يشرب الماء.. من رخصتك....

ودخل للمراحيض. احسستُ أن هذا التفديس الذي يسمونه خُلبى قد مسني بشكل من الأشكال، مسني مثل احتكاك حيوان خرافي كالديناصور، مسّ جسدي وحكّه فذعرتُ وانكمش جلدي لكن دخولي للمراحيض قطع هذا المسّ الخرافي واشتغل فلم (الفراشة) ببطله الممثل ستيف ماكوين، أفكرُ هل أبقى هارباً من بلد إلى بلد مشياً على الأقدار، هروب أبدي وجواب آفاق.. رحالة مثل سندباد وأبن بطوطه وماجلان وناصر خسرو وكرستوفر كولمبس، أعتز على جزيرة الأحلام أو القارة المفقودة فسمعت طرقاتاً على باب المرحاض، لقد نسيتُ نفسي وتأخرتُ هنا كثيراً.

لبستُ شروالي الكوردي وخرجت محني الرأس كأنني أعتذر فواجهني هذا المجنون (أبو كلاس) - مثل الناعور يترس ويبيدي - أخذتُ منه القدح المملوء بالماء وشربته، ثم ملنته ثانية وشربته ، كنتُ منفعلاً حدّ التهور حيث ملأتُ القدح وأعطيته إياه مع صيحة أمره محرّضة

- أشرب.. أشرب.. ماكو دود .. ماكو دود .

أخذ القدح بلا تردد وشرب. ضحكتُ منسحباً صوب القاعة لكنني سمعتُ صوت تحطم زجاج القدح وارتطام مكتوم على الأرض. رجعت مسرعاً فوجدته قد فقد الوعي.

* * *

منذ أسبوع هرب من المخيم (مزهر) من أهالي العمارة وبقي سريره خالياً يُحرّضني على الهرب، ولكن إلى أين؟ تلك هي العلة يا نفسي - نعت هاملت - كنتُ أسألُ كل من هبّ ودبّ، ويأتي الجواب واحداً:

- أين يلتقي العراقيون خارج المخيم؟

- في كوچه مروي.

- كيف يمكنني السفر إذا لم يكن عندي جواز؟

- في كوچه مروي.

- هل يمكن العثور على سكن لو هربتُ من المخيم؟

- في كوجه مروى .

- هل يمكن الحصول على عمل في طهران؟

- في كوجه مروى .

- هل توجد كتب عربية هنا في طهران؟

- في كوجه مروى .

- لو أردت أن أهرب شخصاً عزيزاً عليّ من العراق إلى إيران، كيف؟

- هناك في كوجه مروى .

فذهبت فعلاً إلى (كوجه مروى) بخيال جامح من شدة سطوتها على عقلي. وجدتها مجرد شارع صغير يتفرع من شارع ناصر خسرو الرئيسي، (كوجه مروى) ليس أكثر من زقاق مزدحم بالمحلات والمطاعم الثابتة والمتحركة، وعربات بيع الشاي. مجرد زقاق يكتظ بالمارة وهم يتلفتون، يبحثون عن يبيحث عنهم. وأشخاص واقفون وسط الزقاق وعلى جانبيه، ينتظرون ممن ينتظرهم في مكان آخر كما تخيلتهم، ورأيتهم مثل المدمنين على الحذر والترقب، معظمهم شباب يتكلمون بثلاث لغات، مازالت على قيد الحياة: العربية والفارسية والكردية، ولهجات تختلط بعضها مع بعض بين دخان مناقل الكباب والتكه والمعلاگ وأبخرة (الكراعين) والباقلأ بالدهن والشاي. يتفرغ من زقاق (كوجه مروى) زقاق صغير على نمطه بالضبط عدا بسطة كتب صغيرة، كتب قليلة غافية على الأرض الثلجية يحميها من الرطوبة مشمع أبيض. تصفحت العناوين وهزئت رأسي أسفاً لأنني قرأت نصفها والنصف الآخر لا يستحق القراءة ، فسمعت صاحب بسطة الكتب يلقي قصيدة عن (كوجه مروى):

مروى امرأة عشاقها مرييون ومرتابون

حتى وصل في إلقانه إلى:

ما كانت لنا مروى كما كان لنا باب المعظم/ ما كانت لنا مروى كما كانت لنا الثورة .

هنا غصتُ بعبرتي وعيوني على وشك الانفجار بدموع لا أول لها ولا آخر لولا كثرة الناس وكثرة التطلع بالوجوه، فتكدست وتكثفت غيوم دمع تحت حواجبي.

رجعت للمخيم تطفو على وجهي رغبة الاحباط وجسدي مفكك إلى اجزاء مبعثرة. مررت بطريقي إلى الحانوت لأشرب أستكان شاي، جلستُ امام التلفزيون، فشاهدتُ نساء مع أطفالهن في مدينة (ديزفول) ، نساء عربيات يرتدين الفوط السود وسط خرائب بيوتهم بعد قصفها بصواريخ أرض - أرض. جالسات على ما تبقى من البيوت بين دخان أشعث يتصاعد من الأخشاب والأفرشة وأسما ملابس، جالسات بين جثث متناثرة ما تزال الأبخرة تفوح من الأجساد المتفحمة والشائطة، جالسات يلطن على صدورهن مثل نساء العمارة ولكن بهدوء وخفوت وبطء مدمر، يلطن بسخرية قاتلة وهن يرددن: بهضام أسمك هز أمريكا.. بهضام أسمك هز أمريكا.. بهضام

أنبجست من عيوني غزارة دموع مخبولة وكأنني اريد أطفاء جهنم الحرب. هرولت إلى قاعتي التي أستبدلوا أسرتها المنفردة بأسرة ذات طابقين لكثرة توافد الهاربين من العراق. سعدت سريري العلوي ودفنت وجهي بالبطانية، وأنزلت عن المخيم وإيران والعالم، أغوص إلى طيف أمي التي أراها تنثر شعرها الأحمر من صبغة الحناء، تجلس أمام صورتي المغبرة على الحائط في كل غروب، تدعو الله والنبي والأمم علي وأولاده:

- إلهي أرجع لي (خضر) مثلما أرجعت موسى لحضن أمه... مثلما أرجعت يوسف ليعقوب... يا أبو الزهراء عيني بعينك يا محمد... يا علي، يونس ببطن الحوت يندب يا علي.. بجاهك عند ربك أرجع خضر.

وأغوص إلى طيف (سلامه) الذابل من طول أنتظارها معجزة لقائي وخلصها من زواج مميت، دائماً تردد بيقين ساطع:

- أراك في القمر لو غبت عني.. صورة طبق الأصل.. أنت في وسط القمر بقبعتك وملاحك نصف الضاحكة ونصف الباكية.. صورة حية ناطقة داخل قمر حي نابض.

أين أنت الآن يا سلامه.. ومن تنتظرين يا (مكروده)؟ أنا خربت حياتك تماماً ودست على آخر ما تبقى من ورد الحب. أستهترت بقيمة الحياة وكأنها هي نفسها قيمة الموت... لولا بسالة غريزة البقاء لما أقدمت على الهرب لإيران.... وأنا لا أعرف الطريق وبلا دليل وفي منطقة أجهلها بالكامل.. لم أرَ الجليد في حياتي وإذا بي وسط قارة مجهولة يغطيها الجليد أينما وليت وجهي .. وحيد مثل الله أبتكر في خطواتي خلقاً جديداً ومصيراً لا ينافسني عليه أحد ولا يتدخل فيه أحد سواي ، ولكن يا سلامه كيف ستعرفين: أنني قمر أعور وأخسوف حياتي أبدي. ها أنت يا سلامه... أراك تنظرين من فوق سطحكم إلى كريم كشكول وميري ومحمود وناصر وعبودي وهم يدقون على التنك وسط جماهير غفيرة من الأطفال والصبيان والرجال والنساء ، رافعين رؤوسهم للسماء – سماء قمرك الأعور – وهم يصرخون : يا حوته ... حوته .. نبيه .. هذا خضر ... شلج بيه.

لكن الحوت تعض القمر وتبتلعه فلا يجدي هذا الصياح والنواح، وهناك من يصلي صلاة الخسوف والكسوف مثل أمي وبقية نساء الجيران، وهناك فتيات عذراوات ناثرات الشعر معك فوق السطوح ، تتراشق دموعهم مع آخر نبضة للقمر، يتضرعن للحوت أن يلفظني ويتقيأني، فأنا لا أنفعه ولا أشبعه وحياتي ملأى بالعظام الواخزة مثل عظام سمك (الصبور) يصرخن: حنْ تمهلْ يا حوت هذا قمر أعور.

وأنا أقول: أعور إكل لعور / خل نشترى قدر / القدر طلع خربان / هذا نصيب العوران.

قمري أعور، بلدي أعور، المنفى أعور، عصري أعور، حتى دمعي أعور.

غفوت تاركاً العراق يخنق في بسطال الطاغية. خمد نشيجي المكتوم وقلَّ أهتزاز نحبيي الصامت، إتحاشى ازعاج زميلي النائم في طابق السرير الأول تحتني، وقد شعرتُ به يحوص ويتأفف. غفوتُ مبتل الإذنين بالدموع ووسادتي رطبة.

صحوت في جوف الليل على ضجة ركض وأصوات لغط عالية، خطوات سريعة تصعد وتنزل السلم وصياح منفعل متورم اللهجة وحارق.

نزلت من سريري واندفعت مع النازلين للسلم، رأيت جماعات متفرقة من اللاجئين أمام غرفة المحقق العسكري (رستاخيس) وفي الرواق وفي الساحة الخارجية بين البنائيتين . لمحت قفل باب غرفة المحقق مكسوراً والجميع يتكلمون عن سرقة ملفات اللاجئين العسكريين. أسمع كلاماً عن فرار السارق حاملاً ملفاتنا التي تضمّ مصير مئات العوائل ليسلمها إلى أيدي المخابرات العراقية مقابل مبلغ ضخم.

لم ينم أي واحد منا حتى الصباح من شدة القلق والخوف على أهلنا وعوائلنا حيث لا تنفع بعد الآن كل الأسماء المستعارة.

جرت عملية احصاء الموجودين كلاً في قاعته نجلسُ على الاسرة لكي يعرفوا من يكون السارق الهارب. فجاءت المفاجأة فوق التصور والتخمين: الجميع حاضرون والعدد كامل. هذا يعني أن السارق لم يهرب، والملفات لا تزال هنا داخل المخيم حسب استنتاجاتنا الاولى البسيطة مع ادارة المخيم.

اندلعت اكبر حملة تفتيش يشهدها مخيم كرج منذ تأسيسه ولحد الآن، نبشناه شبراً شبراً، من ساحة كرة القدم والطائرة والسلّة الى الباحات وغرف المغاسل والمراحيض، فوق الاسطح والزوايا وحاويات المزابل، عند سياج الاسلاك الشائكة وخلفه. نبش الحرس القاعات سريراً سريراً وخزانات الملابس الصغيرة جنب كل سرير، حتى غرف الادارة وغرف الحرس مع برجى المراقبة. فلم نعث على أي ملف أو أثر ورقة تحقيق واحدة.

منعت الاجازات ومنع الخروج من البنائيتين فتفاقم الكره بين اللاجئين وإدارة المخيم إلا من بعض المتعاونين من كلا الطرفين، الذين شغلتهم محنة الملفات أكثر مما شغلهم طنين الكره.

لم يستطع اللاجئين تفريغ شحنات القلق بلعب كرة القدم والطائرة والسلّة فانصرفوا الى لعب كرة الطاولة والشطرنج والمطالعة والعراك بعد نقاش ودي يتفاقم بالبصاق أو لأي سبب تافه. كما لم التق مع (عماد) صديق كريم كشكول لأنه مع المدنيين في البناء القديم، لذلك نزلت الى القبو حيث طاولات كرة (التنس)، وجدت الازدحام على أشده فصعدت راجعاً الى طابق سريري العلوي ، حائراً ماذا أفعل بهذا القلق الذي ينهشني وقد قرأت معظم الكتب المتوفرة في عمليات التبادل بين اللاجئين . لم يبق غير النوم، النوم هو الملاذ المتبقي الوحيد. تذكرت أمي وهي تهز (كاروك) أحد أخوتي الصغار: دلد لول .. دلد لول.. يا الولد يابني دلد لول عدوك عليل وساكن الجول / دلد لول/ ياخضر قد دلد لول عدوك زنيم وساكن الجول ... آخ يمه. آخ بويه..ماذا سيفعل بكم شمامو الخراء.. الرفاق الحزبيون والامن والاستخبارات.. أين سيدفنونكم مع بقية عوائل اللاجئين، وأي مصير أسود يرفرف فوق رؤوسكم؟ كيف يجرؤ هذا الكلب ابن الكلب ويسرق الملفات ؟ هل هو واحد فقط كسر القفل ودخل الغرفة وحمل الملفات وخبأها ، دون أن يصدر صوتاً وكم استغرق وقتاً بينما يستحيل ان يخلو السلم والقبو من صاعد ونازل طوال الليل والنهار: هذا يخرج للتبول وذاك للبكاء في الهواء الطلق وهؤلاء يلعبون كرة الطاولة؟

بدأ سريري يهتز قاطعاً خيوط تفكيري وقلقي وأنا غائص بملابسات السرقة، أستمر الاهتزاز يشدد ويتصاعد تدريجياً، فأنحيت أنظر تحتي الى زميلي النائم في سرير طابقه الأسفل. رأيته متدثراً بالبطانية حتى وجهه لكنه يهتز من الوسط: اخ.. اللعنة.. ولك عرب وين.. طنبورة وين..

إنه يمارس العادة السرية - يضرب جلق - غريب هو الانسان بلغزه المحير، هو اكثر طلاسـم الوجود انغلاقاً وغير قابل للفك: مخيم كرج يحترق بسرقة الملفات وعوائلنا ستدمر، وهذا يستمني، يضرب (جلق) بين السنة اللهب. ضحكتُ كاتماً صوتي مثل أيام الاعتقال في زنازين الأمن مع صديقي (أوميد)، ضحكت وأيقنت ان قصة (طنبورة) حقيقية وليست من صنع الخيال الشعبي. إنتظرت زميلي (الطنبور) الجديد هذا ان يقذف وتنتهي مهزلة اهتزازي وكأني اشاركه غضباً عني في ممارسة العادة السرية. فساقني التفكير بظاهرة القذف الى ان زماننا وعصرنا برمته يقذف: كم عضواً تناسلياً منتعضاً يقذف الان؟ كم فم يقذف البصاق والقيئ والشنائم واللغات؟ كم مدخنة تقذف الدخان وكم سيارة ودراجة بخارية تقذف السخام والغازات السامة؟ كم طيزاً يقذف البراز؟ كم مسدساً وبنديقية تقذف الرصاص؟ كم دبابة ومدفعاً وطائرة ومنصات صواريخ تقذف، فقاذفات اللهب أسماها يدل عليها؟

إننا نعيش في حضارة القذف، وقانون الانتخاب الطبيعي هو البقاء للأقذف، مصير البشرية مرهون في لعبة القاذف والمقذوف.

اخيراً سكن الاهتزاز وخارت قوى طنبور (الجلالق) بعدما تكدست عصارة عقله العظيم في الخصيتين مع أكداس مجرات الكون بافلاكها وكواكبها ونجومها وأقمارها، وعصارة الوجود والعدم وعصارة الصراعات الكبرى حول الهيمنة والنفوذ بكوارثها وضحاياها، والحرب العراقية الإيرانية النزقية الشبقية، وعصارة المنفى والمخيم وسرقة الملفات. كلها تزاومت جنباً الى جنب تتحاشك حول فتحة عضوه المنتصب وهو في ذروة النشوة، حيث يكتسح أي قوة تعترض طريقه، فلا إرادة الآن إلا إرادة القذف، وهي تستعيد التركيز والخيال لهذه المهمة الخطيرة، وكان القاذف والمقذوف هو طنبور يقذف طنبوراً وهذا يقذف طنبوراً اخر الى ما لا نهاية، في متواليه قذفية تمتد لآلاف السنين الضوئية.

اخرجتني من حالتي هذه وشطط القذف قدمً مبتورة الاصبع الكبير وهي تخرج من البطانية ، ذكرتني باللاجئين المساكين وهم يعرجون ويقلزون تذكرت جملة (عماد) حين قال:

- كنت أتمنى ان تبتتر بعض اصابع كفي أو قدمي لتبقى ذكرى وعلامة ورمزاً لمغامرتي وأنا أعبر الحدود الى ايران.

* * *

في الصباح حطت على الارض وجبة وأفدين جدد، عددهم أربعة عشر لاجئاً، ولكن تبين لي فيما بعد أنهم كانوا معتقلين في سجن (إيڤين) بتهمة التحريض على الاضراب هنا في مخيم كرج ، وأطلق سراحهم اليوم.

سمحوا لنا بالخروج من البنائيتين الى الساحات إنما بقيت الاجازات متوقفة، صادفني عماد الذي تعرّف على احد هؤلاء المعتقلين، الذي اختصر محنة الاعتقال في سجن (إيڤين) قانلاً :

- لا فلقه ولا تعليق في مروحة سقفية ، لا جلوس على بطل ببسي كولا ولا على الهيتز، لا قلع أظافر ولا قطرات الماء الحارة والباردة على قحف الرأس، لاجرح الخصية ودس سلك كهربائي في الجرح ، كما يحصل في زنازين الأمن والمخابرات والاستخبارات. هنا في سجن (إيڤين) يقفلون عليك باب الزنزانة سنين وسنين بلا تعذيب جسدي، إنما يقولون لك: عندما تريد الاعتراف أطرق علينا باب الزنزانة.

ذهبنا بعد الغداء لزيارة جنرال (بترس) في غرفة العمليات كما يسميها ، وجدناه في كامل قيافته العسكرية وقبعته الاسكندنافية، جالساً فوق سريره يضع أمامه خزائنه الحديدية الصغيرة كمنضدة فوقها حقيبة سوداء (جنطه دبلوماسيه). سلمنا عليه وجلسنا فوق سريره.

فتح الجنطه الدبلوماسية، أخرج منها سماعة فحص طبية – لا ندري من أعطاهها له – وضع السماعة في أذنيه وقرب لاقطة الصوت من فمه وانطلق يخاطب شخصيات مشهورة :

- ألو كيف تسمعي.. من؟ عبد الكريم قاسم، تحرك من جلولاء... الخيط الابيض والاسود . ألو ألو، هل تسمعي؟ من الجنرال بترس الى ثعلب الصحراء مونتغمري... نثي نثي حتى ربح صار بعثي.

- ألو ألو من؟ صوتك بعيد، انا الجنرال بترس.. ها.. من.. ظاهر يحيى.. من لم يمت بالسيف مات بقتدره.... ألو....

وهكذا ظل الجنرال بترس ينادي زهاء ساعة كاملة، ينتقل عبر الفضاء ويتصل بالأحياء والأموات لشخصيات معروفة، حتى أقفل غرفة عملياته ودحس الجنطه الدبلوماسية في خزانة الحديد ونهض إلى المراحيض.

خرجنا إلى الساحة وبدأت السماء سوداء تتوعد، انسحب عماد مع صديقه المعتقل إلى القاعة ، فبقيت وحدي أتطلع إلى أشجار الصفصاف والهور والعفص، وهي مغطاة بالثلج الناصع البياض، ومرقشة بثمار سود، هي هي أسراب غربان لا تنعق، حطت رحالها فوق أغصان الأشجار المكلمة بالثلج.

الرياح تطارد خطواتي المبعثرة حيث تتطاير من حولي أوراق أشجار يابسة، تحاول الوثوب عليّ لكنها تفشل بفعل هبات الريح التي تكنسها نحو حافات الساحة الكبيرة. بدأت تمطر فلاذ الجميع هاربين إلى القاعات. وحدي أمشي كعادتي حين تمطر حتى أدوب ملتحمماً مع الطبيعة. تسرّب الماء الى جلدي بعدما تنقعت ملابسني الثقيلة وأنا أتماهى إلى قطرة آدمية مع ملايين القطرات في جسد الطبيعة.

أموعُ بنشوة أنسجام وتناغم مثل نشوتي فوق جبل (قنديل) :

الآن أتلاشى بلا أنا - خضر قد - وذاتي الوجودية، بلا مخيم كرج وملفاتنا المسروقة ،
أتلاشى بلا منفى ولا وطن ، أسبح في غموض شفيف وممتع ، هائم بلحظتي السرمدية حيث لا
أمراض ولا حروب ولا بطش ولا غربة، أسافر خارج محنة الجواز والحدود، أسافر خارج
السفر وأحابيل المستقبل، أنعتق من عاطفة الحب والكره، من الفقر والغنى، من الشهرة
والنكرة، من الأنانية والتضحية ، أدوب أدوب وأتلاشى...

لكن يداً بشرية أمسكتني، ألتفتُ ، كان (عماد) يضع على رأسه قطعة كارتون تحميه من
المطر. سحبي وهزني قانلاً:

- أنت مخبل .. إتريد أتصير مثل جنرال بطرس؟

جرني إلى قاعته في البناء القديم ، خلعتُ ملابسني الثقيلة المنقوعة وأعطاني منشفة وملابس
جافة، تفوح منها رائحة الواقع. قَرَب مدفاة نفطية إلي وهو يقول:

- يمعود.. أدفى لا تموت من البرد.

وأنا أقول..

- يمعود.. هذا المطر.. المطر، حفلة الطبيعة، حيث ينقعك سرُّ الماء بلا معرفة واكتشاف، هو
العافية والعلاج والاكنتاز. المطر يغسلنا من الجنون والعفن والتطرف. هل سمعت في حياتك
عن شخص قتلته وردة؟

لمحت بعض اللوحات الجديدة التي انتهى (عماد) من رسمها قريباً، ناوشني أياها وقال :

- كما تعرف يا (خضر قد) أن الزمن هنا راكد فالوقت من تنك، إذا لم ترسم أو تكتب أو تقرأ أو
تمارس أي فعل إنساني فسوف يلفك الجنون حتماً أو يفتك بك مرض الحنين الذي يُزَوِّر
الذاكرة - يخليك إتشوف خيسة منطقة الفضل والشيخ عمر جنات الفردوس - ويجعلك هشاً
قابلاً للكسر من أي سقطة أو ضربة. مرض الحنين يعيد كتابة الحقائق من جديد كما يفعل
بعض البعثيين في إعادة كتابة التاريخ، مرض الحنين يحذف من الذاكرة ما يحلو له ويضيف
ما يشاء، دائماً يعيد صياغة الماضي ويزور الحاضر. ويبقى المريض بالحنين بين مفترق
طرق، وكل طريق فيه مفترق طرق، وكل طريق فيه مفترق طرق أخرى- أنها متاهة
الهومسك - وهكذا يجد نفسه موزعاً مبعثراً كطفل تائه، يبكي على أبويه وعلى البراءة
وطفولته الضائعة.

لذلك علينا أن نختار واحداً من ثلاثة: أما الجنون أو المرض أو الأنهماك في ممارسة أي
هواية.

إبتسمتُ بمرارة مرحة وقلت:

- كل هذه الخيارات الثلاثة موجودة عندي، فأنا أمارس الجنون والحنين والفن. (عماد) ... لا
وجود للمطلق هنا في الأرض، فلا يوجد مجنون كامل مثلما لا يوجد عاقل كامل... يا أخي،

الإنسان لغز عجيب، يحمل بداخله هذا الكون اللا متناهي بكماله وتناغمه ، وتناقضاته وأصداده. لكن الإنسان دائماً يسيء استعمال أدوات هذا الكون فتحصل الكوارث والجنون والمرض. هل توجد علاقة بين الأخلاق وتلوث البيئة؟ هل توجد علاقة بين الأديان ومرض السرطان؟ هل توجد علاقة بين الأتانية والحرب؟ هل توجد علاقة بين اختفاء الفراشات والتكنولوجيا؟ هل هل هل. هناك أسئلة أخطر وأخطر وأعمق من هذه الأسئلة عن العلاقة بين تدهور الحب والصعود الى القمر، عن العلاقة بين نكسة الفن والثقافة وبين سوق البورصة. أحتاج إلى لسان لا يتخشب حين أبشر بطرح الأسئلة الخطرة.

قال عماد:

- ربما اختلف معك في كثير مما طرحته فهل نصبح أعداء كما يفعل غيرنا؟

أجبت:

- مستحيل أنا أبحث عنم يختلف معي لا من يتفق معي - تأتأت قليلاً وتداركت نفسي ولكن يبدو أن الآخرين يعرفون ويعضون النظر - فماذا ينفعني الذي يتفق معي ويشبهني في التفكير والرأي. الاختلاف السلمي هو جوهر الكون وعلّة وجوده واستمراره - مازحته ضاحكاً - أنا اختلف معك إذن أنا موجود. والمصباح لا يتوهج إلا بين السالب والموجب .

تحسر (عماد) ثم تنهد قائلاً:

- (خضر قد) أنت تعيش غربة حضارية، يفتك بك مرض الحنين إلى عصر أقدم بكثير من عصر حضارة التكنولوجيا والفضاء والاتصالات التي يعيشها العالم. لا رجعة الى الوراء أبداً، الإنسانية دفعت ثمناً باهضاً لما وصلت إليه اليوم. فهل تتخلى عن الديمقراطية لتعود إلى استبداد الدين والكنيسة؟ كيف تتخلى الحضارة عن سرّ تطورها - العقل - بعدما تخلصت نهائياً من براثن التخلف. صحيح أن للعقل أخطاه وقد ذكرت أنت بعضها، لكنه في طريقه لأزالتها، ثم أن كل شيء في هذا الكون ذو حدين ، الذرة يمكن استخدامها في توليد الطاقة الكهربائية ويمكن استخدامها كسلاح فتاك مثل السكين بالضبط في الماضي، يمكن استعمالها في اعداد الطعام ويمكن استعمالها للقتل. العلة ليست في الحضارة بل في وعي الإنسان. لذا على الإنسان أن يتكيف مع الحضارة للأرتقاء وتقليل نسبة الأخطاء في الحياة الجديدة، لا أن يتوقف، فكل توقف تخلف، وكل تخلف ضعف ولا رحمة للضعيف في هذا العصر القوي المفتول العضلات والسريع القفزات.

أجبتة منفعلًا:

- باختصار شديد، أخي، كل ما يحتاجه العقل هو الضمير، وكل ما تحتاجه الحضارة هي الأخلاق، وكل ما يعوز العلم هو الحب، فهل يمكن لهذا العصر ...

قاطعنا أحد اللاجئيين:

- السارق موجود ... اعترف ودل الحرس على مكان الملفات.

بانت خيوط الجريمة علانية تتضح، وتبين أن السارق أحد عمال التنظيف، الذي كان لا يثير أي ريبية وشبهة بتجواله في كل مكان مع عربة الدفع الصغيرة التي يكوم الأوساخ فيها ليلاً ونهاراً. السارق أحد اللاجئين العسكريين في الطابق الأرضي، يقول المترجم الذي يعمل مع المحقق العسكري (ريستاخيس):

- راح السارق يبكي وأحمرت عيناه أمام (ريستاخيس) قائلاً: ليس في نيتي الاعتراف أبداً، ركبتُ عقلي وملختني قضية السفر والخلاص من إيران ومخيم كرج. وتهستر السارق وأخذ يضرب رأسه بيديه وهو ينشج: قتلني الذل والأفلاس والمستقبل الأسود الأسود، ثلاث سنين وأنا أتعفن هنا، أتفسخ لا أنا ميت ولا حي، أستجدي السجائر من هذا أو ذاك والحرب القذرة لا تنتهي الخره لا تنتهي وإيران لا تسمح لنا بالسفر، وهنا في المخيم يشنقوننا بخيط من القطن، نفطس لحظة بعد لحظة ببطء مرعب، استلم ماعون الطعام مثل المتسول وأخاف أخاف من الجنون لوبيقت في المخيم مدة أطول... قتلني الذل الذل.

وراح ينتحب بصوت عالٍ: حتى تعرفت على شخص اسمه (داود) في كوچه مروي - اعتقد أنه كان هنا لاجئاً - هذا اللعين داود دس فكرة سرقة الملفات في عقلي وأغراني بجواز سفر عراقي و(فيزا) إلى ألمانيا الشرقية مع مبلغ كبير من النقود، وفعلاً سويت الناقصة، ارتكبتُ جريمة شنيعة، لم أتوقع أن سرقة الملفات تزلزل مخيم كرج بهذا الشكل ولم يخطر في بالي أن يشب حريق القلق والغم هذا في صدور اللاجئين، يبكون، ينونون في الليل والنهار على مصير أهلهم، فلم احتمل جرمي وأكون السبب في هذه المصائب والفواجع ولعنت داود وجواز السفر والنقود، وها أنا الآن أتمزق من الندم.

صعد المحقق (ريستاخيس) ومعه المحقق المدني (شهيدي) يتبعهم الحرس ، كلما فتحوا بوابة من بوابات مجاري هواء التبريد (الدكت) تتدفق الملفات على الأرض مثل شلال من الورق، يجمعها الحرس في أكياس سود كبيرة. ثم أتجهوا يتبعهم ذيل طويل من اللاجئين إلى باب مخزن مطافئ الحريق وأخرجوا بقية الملفات من تحت أكياس الرمل.

عاد في اليوم التالي العمل بالإجازات من جديد ونام اللاجنون مطمئنين على سلامة أهلهم وعوائلهم رغم أنهم لا يعرفون شيئاً عنهم منذ عبورهم الحدود إلى إيران سوى القليل منهم.

مخيم كرج كما أتخيله وكما أراه دائماً، هو عبارة عن أضخم مطبخ في العالم، كل لاجئ يجلس في قدر - سرير - تحت جمر الانتظار لسنين طويلة، تفور أجسادنا وتنضج على نار هادئة ، يتصاعد من رؤوسنا البخار البشري الأبيض والمشوب بحمرة دم النزيف البطيء، الطهاة والطباخون في حركة دؤوب، ينتقلون من قدر إلى قدر ومن قران إلى قران، يتذوقون: هذا مالح وذاك ماسخ، هنا قليلاً من بهارات الأحلام وهناك يحتاج إلى رأس بصل من الصبر.

جميع القدر - الأسرة - مغمورة السطح بالفقاعات التي تنفجر حال مساسها هواء الواقع .
لكن المفارقة اللاذعة: أن هذا الطعام يأكل نفسه، لذلك نحن متخمون بهريس ذواتنا لحد التقويؤ
من أنفسنا، ومرغمون على لحس القيء.

أصبحنا على ثلج، إذ أنهمر الوفر طوال الليل فارشاً بياضه فوق كل شيء في الخارج . وكذلك
أصبحنا على طاقم موظفين جدد لإدارة المخيم، وطاقم حرس جديد رأيناهم عبوسين متجهمين،
وكان أشدهم عبوساً وقتامة هو مدير المخيم الجديد (سالاري) الذي سرعان ما أحاط نفسه
بجلاوزة انتقاهم من بين أكثر اللاجئين صلفاً ومكراً من (الحبربشية) فتغلغلت الوشاية وكتابة
التقارير وأمتلأ السجن خلال ايام قليلة وفاض بالمعتقلين، لذلك عمد (سالاري) إلى توسيعه
ليشمل قبو البناء القديم كله. وأحاط المخيم بسياج آخر من الأسلاك الشائكة، وأضاف برجين
آخرين للحراسة والمراقبة. صار المخيم سجنًا داخل سجن. صار المخيم عراقاً صغيراً
و(سالاري) صديماً صغيراً.

الطنطل والمنشورات

دخلت أم (سلامه) غرفة إبنتها بعدما بح صوتها من كثر المناداة والنحش (سلامه).. ولج
(سلامه)، ولما استبظأتها همت إلى الغرفة مندفة ساخطة. فتحت الباب وارتدت الى الوراء
مصعوقة ولطمت صدرها، صرخت بنشغة مكتومة، رأت: عروساً تتدلى مشنوقة بحبل ينزل
من المروحة السقفية.

بيت عمها أهل العريس قد حددوا هذا الخميس أول ايام عيد الأضحى موعداً للزفاف وحملوا
معهم بدلة الزفة والبرقع وحذاء، جميعها بلون أبيض مع علبة مكياج وبقية إكسسوار
العروس.

هرع من في البيت اليها حال سماعهم الصرخة المخنوقة، فوجدوا بدلة زفاف معلقة محشوة
بثياب (سلامه) على هيئة رأس مغطى بالبرقع الأبيض ورقبة مشنوقة وكتفين وصدر، بلا
بطن واردة وساقين.

خرطت الأم وجهها بأظافرها ولطمت على فخذها مفجوعة:

- سوتها العايقة.. وين أضم وجهي من الفضيحة؟

صاح أبو (سلامه) ناهراً متحشرجاً بغصة مطعون في شرفه:

- إشش.. ولا كلمة زائدة.. ما أريد أحد يعرف ولا يسمع... سلامه بالمستشفى.. طلع عدهه
مرض خبيث.

هكذا طمطموا فضيحة هروب (سلامه)، التي تجاوزت الآن مدينة (العريزية) بطريقها إلى
مدينة (العمارة)، تجلس قرب النافذة، ترتدي أسمال ثياب فلاحه تحت عباءة سوداء مصفرة،

وتضمّ وجهها عدا عينيها بفوطة حائلة اللون، منزوية بكرسيها لاتستوعي إنتباه أحد بعينيها الحمراوين الذابلتين المنطفئتين وقد تخطت مرحلة الخوف والبكاء في سيارة نقل كبيرة تغصّ بجنود وشيوخ وعجائز. انطلقت بها من كراج النهضة، بعدما أوصلتها صديقتها المعلمة (جنة) بنت عم خضر قد، (جنة) خططت مع سّلامه هذه المغامرة العويصة بتفاصيلها، وهيأت لها عدة الهروب ورسمت خارطته من باب الدار إلى مدينة العمارة. وسّلامه تحدق عبر زجاج النافذة إلى شساعة وامتداد الأرض، تفكر:

- كل هذا الخلاء على مدّ البصر لا يسع (مغرودة) مثلي. سمعتي وشرفي ومصيري مرهون بمكان واحد فقط. مكان كوخ العمّة (ليلوه)، الذي زرتّه مرتين: المرة الأولى مع أمي حين كان عمري عشر سنين، والمرة الثانية مع أهلي وعمومتي في العطلة الصيفية بعد نجاحي من صف الثالث متوسط، قبل أن يخطبني وجه الشؤم ويجبروني على ترك الدراسة. كوخ عمتي (ليلوه) بعيد ومنعزل خارج مدينة (الكحلاء). عمتي شجاعة متمرّة ومتمرّدة، عادت وأصرّت أن تبقى وحدها في كوخها وأرضها بعد وفاة زوجها بعضة حية رقطاع، تقول أمي:

- ليلوه.. عشر زلم مايوگفون بوجهها.

المسكينة لم تخلف من زوجها لا ولد ولا بنت طوال (٢٥) سنة، أبي وعمومتي تعبوا منها لإرغامها على العيش معهم. زهقوا من عنادها ومن لسانها الباشط، يقولون: ليلوه وحشية لاتستأنس الا بوحدتها.

عندها بقرة وبعض خراف وماعز مع أرض تحيط بكوخها، تزرعها بـ(الجت) مرة وبالذرة مرة أخرى. ظلت بعيدة وأخبارها مقطوعة وقد نسيها الجميع، فلا يتذكرون سوى فحولة امرأة متوحدة لا تهاب اللصوص ولا الحيوانات الضارية، ويتذكرون لسانها الحاد السليط خاصة عندما سألتها أمي:

- ليلوه.. هم تخافين من الطنظل؟

أجابتها ساخرة:

- خيه أنا طنظل.

غطّت حادثة اعتقال (محمود) حادثة هروب (سّلامه) التي شاع عنها في منطقة دكان كشكول: انها مسلولة ترقد في مستشفى (التويثة) للأمراض الصدرية، لايستطيع أحد زيارتها سوى أمها.

اعتقلوا (محمود) بذات اليوم الذي هربت فيه (سّلامه)، وكان سبب اعتقاله طالبة في الجامعة المستنصرية.

خرج محمود من البيت مبكراً إلى كلية الآداب في الجامعة المستنصرية قبل مجيء الطلبة والأساتذة، يحمل في حقيبته رزمة منشورات كتبها بخط يده، تحرض الطلبة ضد الحرب وبهضام والبعث. وزعها فوق مقاعد الصفوف الدراسية وغرف الأساتذة ولوحة الاعلانات حتى وصل غرفة العميد ووضع منشوراً فوق منضدته. فتكهرب الجوّ ليس في كلية الآداب

وحدها بل في الجامعة كلها. أغلقت الأبواب ومنع الخروج والدخول وخضع جميع الطلبة والأساتذة داخل الجامعة للتفتيش، بينما (محمود) الذي أنجز مهمته دون أن يتورط ويورط أحداً لم يستغل الفرصة قبل افتتاح أمر المنشورات ويخرج من الجامعة، بل بقي يراقب وهو يتمشى في الأروقة، يرى ما فعلت يداه وما سيتمخض عن منشوراته وكيف ستكون الأوضاع بعد اكتشافها، يمشي مبهوراً بلذة الخوف والترقب وكأنه يودّ لو يبوح لكل طالب وطالبة: أنا من فعل هذا.. أنا الذي زرعت الرعب في قلوب السفلة.. أنا من زرع حقل الألغام الورقية هذا... لكن ورقة سقطت من جيبه وهو يخرج مندبلة ليمسح عرق البطولة التي لا يعلم بها أحد. نهضت إحدى الطالبات من فوق دكة إسمنتية كانت تجلس عليها، تناوشت الورقة من الأرض وصاحت على (محمود):

- هاي ورقة وكعت منك.

التفت محمود نصف إلتفاته وحثّ خطاه بمشية سريعة أثارت الريبة، والطالبة تلهث وراءه وتنادي ان يسترد ورقته التي سقطت من جيبه، تلهث ويدها تمسك بالورقة ممدودة للأمام.

ارتبك محمود ولم يلتفت الى الوراء وهو يسمع صيحات الفتاة المتعلقة بالورقة، ركض مذعوراً بين ازدحام الطلبة في الأروقة والممرات حتى أمسكوه. وتقاذفوه من يد إلى يد، ومن وجه إلى وجه، وجوه كلها بشوارب ترتجف مع عيون تتجادح، تحمل سيماء شمامي الخراء. ترعب محمود في معتقل يخرج من غرفة التحقيق إلى غرفة التعذيب طوال ستة أشهر حتى حكموا عليه بالسجن المؤبد بشفاعة التقارير الطبية عن حالته العقلية والنفسية والإحالات إلى مستشفيات الأمراض النفسية والشماعية. فاستقر أخيراً في سجن أبي غريب/قسم الاحكام الخاصة.

اكتشف محمود ان الورقة التي سقطت من جيبه والتي حملتها الطالبة راضةً وراءه، كانت ورقة وصفة طبية فيها خربشات باللغة الانكليزية، كتبها طبيب الروماتيزم كعلاج لأمه التي أخذها قبل يومين إلى عيادة هذا الطبيب، ونسي ان يشتري الدواء من الصيدلية، ثم تأجل شراء الدواء الى الابد بعد دخوله الى سجن أبي غريب.

- ٦ -

قررت الهروب إلى أفغانستان مع أربعة من اللاجئين حين صار مخيم كرج موحشاً بعد استفحال ظاهرة الهروب الجماعي، إذ فرّ جميع اللاجئين الذين نضجوا طبخاً فوق جمر الانتظار، وشبعوا من أكل أنفسهم. هربوا من قدور أسرتهم فرادى وجماعات: بعضهم توجه إلى الحدود التركية والأفغانية والباكستانية في مغامرة جديدة ومنافي قد تخلو من أمثال (سالاري).

وبعضهم انحدر إلى ميناء بندر عباس ليجربوا حظهم مع مياه البحار بعدما تقيأتهم اليابسة. بعضهم غاص في خبايا (كوچه مروي) حيث التزوير والتهریب، والتحایل على مرض الحنين

في الانغماس داخل محلة عراقية مستنسخة من محلة الكفاح ومحلة الفضل. وبعضهم عرض نفسه في سوق بورصة الأحزاب، يبيعون أنفسهم لمن يدفع أكثر.

وآخرون امتصتهم معامل صغيرة وورش صناعية، ضائعون في دهاليز طهران كأرخص أيدٍ عاملة، يلفهم دخان ملوث خائق لئلا يموتوا من دون عمل بأمراض فقر الدم حيث الجوع والذل ومرارة الغربة. وبعضهم سافر إلى مدينة (قم) ليدرس في الحوزات الدينية وينقذ نفسه من تشرد صقيعي. أما اللاجئون الذين بقوا في المخيم فهم المجانين وأنصاف المجانين والمرشحون للجنون، والذين سحقهم مرض الحنين وتسمروا حائرين مترددين بين مفترق الطرق، لا يعرفون أي وجهة أقل خطراً من غيرها، بقوا يتشممون رائحة الوطن في أسمال الوافدين الجدد إلى المخيم.

والآن أنا فوق سريري جالس أدخن سيجارة (شيراز) كأن دخانها أبخرة تتصاعد من قدر انتظاري بين فقاعات لا مرئية تتفجر حولي، أفكر بألوان المصائر التي تفتح أشداقها نحوي، أخير نفسي بين السجن المزدحم المملوء باللاجئين وبين منفى (سمنان) وبين الهروب إلى أفغانستان التي تحوص على كف عفريت، وبين محطة (كوجه مروي) ونكهتها العراقية... وإذا بعماد يقف بجوار رأسي الذي فقد حتى الآن نصف شعري وبانت صلعتي تتلألاً خجلة، رأيتة حزيناً تخنقه العبرة فسألته:

- ها خير... وجهك مغيم.. صار شي؟

طفرت من عينيه دمعان ثم أجهد:

- مات جنرال بطرس.. مات، أيقظوه للعشاء لكنه ظل نائماً بلا حراك.. ينام نومة طفل تعب من البكاء على أمه ونام، تفيض على براءة وجهه آثار الدموع.. الجنرال بطرس مات ولن يستيقظ للعشاء أبداً.

تهشم في صدري إناء فخار نفيس يعود لحضارة سومر وأنا أسمع عماد ينشج وهو يصف موت جنرال بطرس.

خرجت وعماد مع المشيعين لجنائز أجمل مجنون في المنفى الإيراني، وأنا أبكي وأنعي:

- ماذا سنفعل بقبعتك الاسكندنافية.. يتيمة إلى رأسك؟ هل نرسلها لك بطرد بريدي إلى منفاك الجديد أم نعطيها لمجنون آخر سيحل بمكانك الآن؟

شيغناه حتى باب المخيم الحديدي حيث سيدفن في مقبرة الغرباء خارج طهران.

التفت عماد إليّ وقال:

- حملتُ لك الخبر السيئ بموت جنرال بطرس، وعندني لك خبر سار، .. هاك هذه رسالة لك من العراق من كريم كشكول.

وبدأت مراسلات محمومة مع كريم كشكول، حيث اتفقنا على شفرات معينة ورموز عويصة لا يعرفها سوانا، خاصة بعدما توثقت علاقتي مع صديق عماد في الجزائر عن طريق الرسائل.

هربت لمدينة مشهد ننوي عبور الحدود إلى أفغانستان لكن خامسنا - الدليل - سرق نقودنا وحاجياتنا وفرّ لوحده. لازلت غشيم غربة وغشيم سفر ورفقة السفر، فقررت زيارة مرقد الإمام الرضا ثم العودة إلى طهران بعد تدبير أجور النقل، بينما فضل بقية أصدقائي المخدوعين الذهاب إلى بندر عباس وركوب مغامرة البحر.

كنت دوماً اختبئ وأبكي حتى وأنا طفل، أعطي وجهي باللحاف وأبكي، لكنني هنا في شوارع طهران وأنا أسحل قلبي المثقل بالغربة لم أجد من رؤية الآخرين لدموعي، أمشي بعيون مبتلة لا أكثرث لأي فضولي ومستطلع. صارت دموعي أرخص من بولي، أنا.. أنا الذي كانت كل دمعة مني توزن بلد. رحتُ أزخ دموعي لأي نسمة حنين خفيفة تمس قلبي، فاستمرت أمطاري المدارية بدموع لا يقطعها صيف ولا شتاء لا نهار ولا ليل. أينما التفتُ تداهمني شوارع الثورة وأشتمُ حزن مجاريها الطافحة، كلما أصادف فتاة أغص بعبرتي وأدوب شوقاً لعطر (سلامه)، التي تركتها مشوية الساقين تنتظر الدخول في عش زواج بارد قاتم، عش أبر صدنة. كلما أرى عباءة سوداء أركض خلفها مثل طفل تائه أنوح:

- يمه.. يمه.. ولج يمه الحكيلي.

تركت أُمي ينخرها مرض الروماتيزم وصداع الشقيقة وحمى الفراق. كنتُ أرى باب المعظم من خلال ضباب دموعي وأسمع نداءً ودوداً أليفاً:

- خضر.. خضر قد

أتوقف مذهولاً ألتفت هنا وهناك كأنني سمعتُ صوت كريم كشكول أو صوت محمود، عبودي، صوت ميرى، ناصر نابت. إنه صوت تعودت عليه أذني وقلبي وروحي، صوت نداء مفاجئ ومرح. ولكن لا أرى أحداً منهم، بل أرى مارة عجولين يلهثون وراء (التومان) في متاهة لا مخرج لها.

* * *

تعرفتُ على (لازم) وعلى منقلة (المعلاگ) داخل كوچه مروى، التي عرفتها الآن عارية بكل تضاريس جسدها الموشوم المغربي، يقودني شبقها يجرنى من ياقتي بفرح ونشوة إلى استوكهولم إلى كوبنهاغن، برلين، اسطنبول، لندن، امستردام. بينما أنا لازلت واقفاً في مكاني فوق وحل الثلج، أشربُ استكان شاي بعد لفة فلافل تخّر منها عنبة (كوچه مروى) بصيتها الملعلع، الذي يطوي الأفاق بزمن أقل من عمر سيجارة (شيراز)، صيت التزوير والتهریب وقتل الوقت. كوچه مروى تسترخي حيناً وترفل بكل خطر وممنوع، وتتشنج حيناً آخر في سحنات الوجوه الحذرة، التي تنتظر وتترقب معجزة السفر أو الرجوع للوطن، وجوه تتقلب من حال إلى حال، تحتاط وتحترز كعصافير حذرة ترتاب حتى من بيضها. فهل هي مصادفة اسطرلابية ان تقع كوچه مروى في حنجرة شارع ناصر خسرو، جَوَاب الأفاق ومكتشف أسرار الرحلات والسفر؟

في كل مساء يجتمع ناصر خسرو وابن بطوطة وماجلان وكريستوفر كولمبس في مقهى (الحشاشة) يأكلون (آب گوشت) ثم يشربون الشاي (دشلمه) وتبدأ مراهناتهم علي:

في أي عاصمة سيحط (خضر قد) هذه المرة؟

جرب كابل وفشل. انطلق بين الجبال والوديان إلى أنقرة لكن دورية لحرس الحدود ضبطته متلبساً بجرم انتهاك الأوطان. في مطار (مهاباد) يحمل جوازاً باكستانياً وبطاقة سفر إلى برلين، وكانت مخابرات المطار تتربص مستترة بسبب معلومات مؤكدة عن مسافر من (مجاهدي خلق) يسافر اليوم فسقط (خضر قد) في هذا التزامن اللامعقول وبحظه النكد. تشاجر في ميناء بندر عباس مع رجل من عرب الالهواز، راح يعيره ويستفزه: تركتم بهضام يحارب لوحده وأنتم تتختلون في جحور البواخر وطابت لكم لقمة العجم. ضربه (خضر قد) وفرّ هارباً فضيع فرصة الإبحار على متن سفينة دانماركية.

تراهنوا هذه المرة على ذهابي إلى دمشق وكان ناصر خسرو دائم الفوز بتلك المراهنات علي، لأنه يقرأ أبراج السماء ويكتنه أسرار البخت فقال:

- هذه المرة أيضاً سيحط (خضر قد) في عاصمة السجن مثل كل مغامراته الفاشلة، وسيدفع ثمن بطاقة الطائرة ذهاباً وإياباً.

وفعلاً هذا ماحدث بالضبط، فقد رجعت من دمشق إلى طهران على متن الطائرة نفسها، التي تأخرت عن موعد إقلاعها ساعتين ونصف بسبب البحث عني، إذ نبشت المخابرات السورية مطار دمشق شبراً شبراً ولم يجدونني. رأيت أحد العراقيين من ركاب طائرتي يضع ورقة مئة دولار تحت (الليزاباص). جواز مرور لسفرة واحدة فقط - وأعطاهام لموظف الترانسيت، تحسسها هذا بأنامله وختم له (الليزاباص)، فانسأل العراقي خارج المطار. وأنا فعلت الشيء ذاته ودنوت من الموظف الذي تلمس ورقة المئة دولار حيث لم يتبق في جيبتي سوى عشرين دولاراً. قرأ الموظف اسمي ونهض يقودني إلى موظف آخر صاح بأعلى صوته: الدنيا مقلوبة عليك في المطار.. شرف.. شرف. ونادى هذا الموظف يوشر إلى شخصين، ساقوني دفعاً إلى الطائرة الجاثمة وهي تنتظرني جاعرة. هل يحمل اسمي لعنة لم اكتشفها بعد؟

وفاز ناصر خسرو في مراهنته الأخيرة، فاز لأنه راهن على ضراوة سوء حظي فقط.

إلا إنني شهدت أغرب مراهنة في سجن (زندان قصر)، آخر سجن في رحلتي السياحية لسجون إيران، سجن بتهمة أخطر من التزوير وتجاوز الحدود. هنا في (زندان قصر) أرى القمل يسفي في كل مكان حتى على جذوع وأغصان الأشجار التي يتكدس فوقها الثلج. شهدت سباقاً ماراثونياً بين قمل من جنسيات مختلفة: قملة إيرانية، قملة أفغانية، قملة عراقية وقملة باكستانية. فازت القملة الأفغانية في السباق ولملم السجين الأفغاني توماتات المراهنة، ثم التقط قملته الفائزة وأعادها إلى شعره ضاحكاً:

- أين ستذهب المسكينة في هذا الصقيع؟

كانت جميع المراهقات يحرمها الشرع ويعاقب عليها القانون الايراني، لذلك عمد المقامرون إلى ابتكار أعرب المراهقات شذوذاً، والتي لاتخطر مطلقاً في بال منكر ونكير.

* * *

دخلت (زندان قصر) آخر سجن لي في طهران متهماً بأخطر من أي تهمة سابقة: تهمة الاغتصاب بالقوة (الزنا)، طبعاً (كله من جوه راس لازم) هو الذي أشار عليّ ونصحتني بممارسة الجنس مع أي عاهرة، لأنني غادرت العراق وأنا (باكر) لم أضاجع امرأة قط سوى في الأحلام. كنتُ غشيماً في الجنس وعبقرياً في الحب.

غمز لي (لازم) بعينه اليسرى، ينبهني إلى فتاة شابة. ألتفت إليها كانت صفراء الوجه نحيلة، يبدو عليها الضياع والشده. همس لازم:

- إنها (معتادة).

ويعني بالعربي انها مدمنة على المخدرات مثل الحشيشة أو الهيروئين أو الترياق. ولكوني واحداً من المشفقين العظام وبدافع التجربة الأولى، عطفت على الفتاة وأخذتها إلى غرفتنا المستأجرة في بيت خرب داخل أزقة ملتوية خلف (كوچه مروي).

مشيتُ أمامها بحذر وكتمان وتركتُ مسافة تفصلني عنها حتى لا يظن أي مراقب أو مخبر لدى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بوجود علاقة أو ظل علاقة بيني وبينها.

مارست معها الجنس مرتين خلال أسبوع، واكتشفت وجود عادة رذيلة عندي: عادة الاستطلاع والتقصي بفضول يشبه فضول عالم متعطر لعلم أسرار البحار، حيث استطلع في كس العاهرة وكأنه حيوان أراه للمرة الأولى، بينما العاهرة تستعجلي وهي مندهشة من شذوذي الجائر.

في المرة الثالثة جاءت بصحبة طفل فاستشطتُ غيظاً، استنكرتُ وقاحتها وسفالتها وأنا أزيد وأرعد:

- كيف تجلبين طفلاً بريئاً إلى مسرح أكلة لحوم البشر، هذا الذي يمارسه الكبار ليلاً ونهاراً؟

لكن شهوتي غلبتني ولم أطردها. غطت الطفل بعباءتها وهو جالس على الأرض كي لا يرى جريمة الكبار. فتحت ساقها وحانت مني إلتفاتة إلى الطفل فلمحتُ ثقباً في العباءة تطلّ منه عين الطفل. نبهت العاهرة إلى الثقب وعين الطفل، سحبت العباءة وصار الثقب فوق ظهره.

عادت وفتحت ساقها وانتعض خرطومي الصغير وهبط دماغي عبر العمود الفقري إلى خصيتي متكدساً على شكل مني. مسكتُ خرطومي الصلف والمتشنج من شدة الانتعاض، أردت أن أدسه في فرجها...

انصعقتُ مرتداً للوراء، فقد رأيتُ عين الطفل في ثقب فرجها، تنظر إليّ. فهل أفاقها بسخي هذا الخرطوم المتوثب؟

جحظت عيناى واندلقت خارج رموشي من فداحة هذا المنظر.

خرّ ميتاً خرطومي من علو شاهق وانسبح ذابلاً. ارتديت ملابسي وأنا مشدوه. أعطيت العاهرة (٢٠٠) تومان وطردها أشنع طردة وهي متبلبة متحيرة، طردها بأشنع مما أتوقعه من نفسي المفرطة بالشفقة، وحذرتها من العودة والمجيء إلى هنا بتاتاً، لأنني سوف أسلمها بيدي إلى ضواري (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

لكني لم أتخلص من كابوس العين داخل الفرج وهي تحق بعيني، لم يفارقتي هذا الكابوس رغم انتقالي إلى بيت آخر، حيث استأجرت غرفة وحيدة فوق سطح البيت البعيد عن بلايا كوجه مروي، في محاولة لإنقاذ روحي من ذاكرة المكان ومسرح الجريمة.

من الخطأ تسمية هذا المكان غرفة، شكلها يشبه التابوت وضيقها الذي لا يستوعب إلا دوشك نفر واحد. وهي غرفة وحيدة بارزة بين سطوح الجيران المستوية، لذلك سميتها (التابوت السماوي)، لحسنها وميزتها الوحيدة في عزلتها عن بقية البيت بفضل السلم الشاقولي عند مدخل باب البيت، لا أرى أحداً ولا أحدٌ يراني.

لم أنتبه أن هناك فتاة حسناء بلورية البشرة، تحيط جسدها غلالة ساخنة لونها وردي كما اليشب، كانت تسترق النظر إليّ وأنا غافل، أسترخي بشروالي الكردي والقمصلة الثخينة، حاسر الرأس دون قبعتي الإيطالية التي صارت تستر صلعتي الجديدة إضافة إلى منافعها الأخرى. هذه الفتاة التركمانية اخترقت عزلتي في التابوت السماوي، وقد حظيت بها وأمسكتها متلبسة وهي تسترق النظر إليّ أثناء نشر غسيلها على حبل سطحهم. اسمها (فرشته): همّت بي وهممت بها بدون لولا، وقميصي لا قد من دبر ولا من قبل، بل ذبنا في حمى عناق وهذيان متعدد اللغات، يترجم: هيت لك.

كأنما أنا وهي نمارس الجنس بالنيابة عن البشرية بأجمعها. أسمعها تموع في جسدي: قربان تو.. و(فرشته) تسمعني أصهل:

- To be or not to be, that is the question -

ثم أنحني فوق شحمة أذنها أو شوش متأتى:

- إشربيني.. إشربيني حتى ما أعطش بعد.

وترد عليّ بهذيان شركسي يوجب براكين الكبت الخادمة، فنلتحم: أنا أدخل في لازورد جلدها، وتطمس (فرشته) لب نخيلي. لغة جسدينا تترجم غموض اللغات الحية والميتة طوال عمر الأرض. نسينا روحينا بعيداً عن إيران والعراق والحرب والتقاليد والاعراف والعيب، بعيداً عن الخوف والحذر، بقينا في تيه خلاب نتناغم، يتماهى واحدنا بتضاريس الآخر طوال (٤٠) ليلة. وفي الليلة الحادية والأربعين، طُرق علينا الباب/ الأولى لك. ارتدينا ثيابنا. في الطريقة الثانية، خبأت (فرشته) وراء الباب/ الثانية عليك. بعد الطريقة الثالثة، رُفس الباب/ الثالثة فيها الهلاك.

دخل شخصان وهجما علي فتصارعت معهما. صاروا سبعة يحملون أسلحة منزلية متنوعة، تناوشوها كيفما اتفق بسرعة خاطفة. اختلت مقاومتي وخارت قواي وأنا أتصارع معهم. دختُ أترنج من شدة الضرب. صاروا عشرة ثم عشرين وبتزايدون. لم أتخيل أن غرفتي (التابوت السماوي) يمكنها استيعاب كل هذه الأعداد الغفيرة. جميع سكان المنطقة هبوا علي دفعة واحدة، سحلوني من (تابوتي السماوي) نازلين بي فوق درجات السلم الشاقولي، ثم خارج البيت. كل واحد منهم يأخذ حصته في ضربي: الرجال باللكمات والرفس. والنساء تخمط وتخمش وجهي وصدري بأظافرهن. والأطفال بالحجارة وما تيسر من (التنك والقواطي).

تمددت مغمی علي جنب الحائط، أفزُ بين لحظة ولحظة، أزحف لأستند الى الحائط، ينحصر تركيزي على ستر عورتي.

آخ.. آخ، كم أذهلني وآمني وحيرني في ذات الوقت: هو رؤيتي لنفسي.. لذاتي، أنا الآخر الذي كان واقفاً يتفرج علي، ينظر نحوي بحيادية قاسية، منفرة، نشاز، هذا أنا يتفرج علي بلا مبالاة متمادية وحيادية في أقصى التطرف. لأول مرة أرى نفسي كأني أمثل دورين، شخصيتين لا يجمع ولا يربط بينهما أي شيء سوى الشكل، شكلي. الدور الأول: أنا ممددٌ تشخب مني الدماء، ممزق الثياب لا يسترني سوى شروالي الكردي فقط، ورأسي تضجُ بانفلات جلجلة كيوم العاشر من محرم.

أما الدور الثاني: فهو أنا يرتدي ثيابي وقبعتي الايطالية، يحدق بي في صلافة وعدم اكتراث مربكة، إنه ليس ممن (كنت مع ليس وحدي) إطلاقاً. الغريب.. انه يشبهني حدّ التطابق كأنه توأمي الغائب، بكامل عافيته وأناقته، يحدق بي مسحولاً مركولاً، يتطافر من وجهي دم مذعور. هو ذات السائل النفيس الذي شمته الأرض للمرة الأولى من جسد هابيل - هو يحدق بي، وأنا أتوسل إليه بنظراتي المذعورة والزائغة، أتوسل ان يتدخل، ان يحاول إنقاذي، أن يصرخ بهم. لكنه جامد صامت، غير عابئ لا يمت بصلة إلي، فأيقنت أنه ليس ممن (كنت مع ليس وحدي).

* * *

دخلت في إغماءة تلاشت فيها الوجوه المعوجة المكشرة، واختفت الأصوات الزاعقة كما اختفى هذا المهاجم المميز بشراسته، الذي كان ينقض على خصيتي وأزوغ منه ثلاث مرات. انقطع كل شيء من حولي حتى جروحي وألمي والتشوش والدوار والخوف على خصيتي ومن تمزيق شروالي وعريي، كلها انقطعت فجأة. إنه الموت إذن أنقذني من محنتي بضربة واحدة.

لم أتيقن بالضبط: هل متُ دهرأ ثم أحتييتُ منبعثاً في سيارة شرطة النجدة، أرى وأسمع شرطياً يحرك أصابعه بإشارة للنقود، ثم يقول يائساً من عدم فهمي: بول.. بول.

أنا في وضع شانك وملتبك لا أعرف أميت أم حي أم أعيش ما بعد الموت حتى أدركت بعد فوات الأوان ان الشرطي يريد رشوة عاجلة لينزلي في أحد الأزقة المظلمة. ولكن من أين أدبر النقود وأنا (مسلخ) لا تسترني سوى بقايا أوصال شروالي الممزق، بحيث لم يخطر في بالي صديقي (لازم) فربما أقنع هذا الشرطي بالذهاب إلى غرفة لازم وتدبير النقود، لكنك قد تجنبت

ماحصل لي ويحصل الآن في سجن (زندان قصر) متلبساً بأخطر تهمة في ملفات الزنا والجنس، إذ ادعت (فرشته) بضغظ وتهديد من أهلها وأقاربها:

- إن هذا العراقي سدّ حلقي وجزني من السطح إلى غرفته وحاول اغتصابي بالقوة.

لكن مخرج فلم حياتي تدخل هنا (والحمد لله) فخرجت نتيجة الفحص المختبري لي ولـ(فرشته) بعدم وجود اتصال جنسي، لا قاذف ولا مقذوف. أما الذي أثار استغراب المحققين والمترجمين و(فرشته) وأهلها والشهود، هو إنني (خضر قد) لم أدافع عن نفسي ضد جميع الادعاءات، ولم أنكر التهمة، بل لبستها وأحكمت أزرارها جيداً حين قلت:

- أي كلام تقوله الفتاة صحيح.

قلتها ببرود ويأس مثلوج كأنني شخصي الآخر (توأمي) الحيادي واللامبالي، الذي يحدق بي وأنا ممدد. لم تعد حياتي تعينني، ربما تعني أي شخص آخر غيري. لأنها حياة كانت وما زالت لعبة سخيصة وكئيبة، تتقاذفها الأقدار والمصادفات - إذن فليأت أي مصير ترشقتني به يد العيب. سنمت من عبء حياتي ومصيري وقد نلت شهادة فخرية في فن الفشل وترجمة النحس. صرت مضرب الأمثال بين العراقيين في (كوچه مروي)، بحيث لم يجازف أي واحد من أصدقائي لمصاحبتي في مشاريع الهروب والتزوير وخطط السفر، لأنهم على يقين من أنهم سيفشلون ممسوكين مكبوسين مئة في المئة، لا لوجود خلل في خطة الهروب وفي تنفيذها، ولا لعدم إتقان الوثائق المزورة، وليست هناك دسياسة أو وشاية للإيقاع بهم، بل لسبب واحد فقط:

لأن (خضر قد) معهم.

بحيث راح يتجنبني أقرب الاصدقاء في مشاوير الهروب والسفر حتى لازم لم يلازمني ويتحاشاني دائماً، يقول:

- أنت مثل بطل فلم الفراشة.. لا يابه لا.. أنت أنكس.. بطل الفراشة نجح وهرب وسافر.

كذلك خسر الرهان في مقهى (الحشاشة) ابن بطوطة وماجلان وكريستوف كولمبس، ورجع ناصر خسرو الذي يعرف كيف يشق بطون الأيام الآتية حين قرأ كف حظي. وما زالت العين تحديق بعيني من ثقب فرج العاهرة (المعتادة)، فلم تستطع ممحاة (فرشته) اللازوردية من إزالتها. كما لم تتزحزح تلك العين مما سمعته من شذوذ قصص جرائم القتل في سجن (زندان قصر). يوماً أسمع تفاصيل جريمة قتل ويشيرون إلى القاتل، فيضحكون على جريمتي وعلى تهمة الحب التي تلبستها.

لكن الوقائع الدامغة تقول إنني محظوظ بعكس انطباعي عن نفسي وعكس رأي الآخرين بحظي، فقد تملصت من التهمة الخطيرة (زي الشعرة من العكينة) كما يقول المثل المصري الذي لا يخلو فلم من أفلامهم من ترديده حتى صار (بخني).

أفلت من التهمة كما أفلت من الموت المحقق تمزيقاً بمخالب الجماهير الغاضبة في تابوتي السماوي. إذ وقفت أمام سيد على رأسه عمامة سوداء، هو القاضي، يجيد التحدث بالعربية

الفصحى. وكنت محظوظاً بعدم حضور المشتكين و(فرشته) والشهود. فمثلتُ دور جعفر الطيار في فلم الرسالة، وهو بين يدي ملك الحبشة مع عمرو بن العاص، الذي يريد استلام اللاجئين الهاربين من مكة وارجاعهم إلى قريش وأبي سفيان. ولكنني عصرتُ الهجرة في تمثيل ارتجالي أتحدى فيه روبرت دي نيرو، وكانت المحكمة هي خشبة المسرح:

- تركنا أهلنا بين ذئاب الأمن والمخابرات، يتشممونهم بحثاً عن رائحتنا، تركنا سلاحنا يصدأ عن قتلكم، وجازفنا بأعزّ ما نملك هرباً إليكم حبواً على الجليد ولعنة سرطان الكنكري، والسباحة في الظلام بين الكواسج والألغام في شط العرب، ركضنا نحوكم بروح فوق كف عفريت بين زخات القذائف والرصاص. وانظر كيف استقبلتنا إيران بأحضان سجن (إيقين) ومنفى (سمنان) ومخيمات تبيع اللاجئين إلى المخابرات العراقية. أتدري؟ أتعلم يا حضرة القاضي، كيف هرب لاجئ عراقي من مخيم كرج بعدما فر بجلده من طبر بهضام في مجزرة الدجيل؟ هرب من المخيم خوفاً من بيعه للمخابرات لأنه صيد دسم. أتعرف ياسيادة القاضي كم عدد المجائين والمرشحين للجنون في المخيمات؟ أتعرف كم إضراباً عن الطعام حدث في مخيم كرج لوحده؟ ولماذا؟

لم يسأل أي واحد منكم نفسه: لماذا يهرب العراقيون من إيران؟

وهكذا رحّت ألقافز فوق مجزرة حياتي ولم أنعطف وأذكر التهمة التي جعلتني أقف الآن أمام القاضي.

أصدر الحكم ببراءتي لعدم معقولية أوراق التحقيق التي تخلو من (لا) ينكر فيها المتهم أي فعل أو جملة أو إدعاء. فقط (نعم) على طول مسار التحقيق، يعترف المتهم بكل جرائم الدنيا وينسبها إلى نفسه، يبصم ويوقع تحت كل (نعم). واكتمل حكم البراءة لعدم حضور المشتكي والشهود. وربما أشفق القاضي على المتهم إكراماً لجعفر الطيار. وأطلق سراحي بريئاً.

* * *

لم تفتح لي بوابات العالم السفلي وانطلق للخارج أملاً صدري بنسيم الحرية، تتراقص من حولي سنابل حقول تحاول احتضاني بلهفة وشوق، لم تستقبلني باقات زهور وشدات ورود تغمر الجو بعطر حرיתי بعدما جاست روعي الـ(كالا) شياطين العالم السفلي. بل أركبوني في سيارة (تاكسي) فور خروجي من بوابات (زندان قصر) السبعة، حيث لم أجد أحداً بانتظاري. لا أمي ولا أخوتي ولا سلامه ولا كريم كشكول وأصدقائي. وكانت الحياة هي كما تركتها، حياة حيادية مثل (توأمي) أنا الآخر المتطرف بحياديته. حياة وجدتها فاقدة النبض شديدة الواقعية مثل واقعية طبيب في مشرحة الطب العدلي. حياة متأنية مسترخية لايشغلها شاغل (لا ماما ولا دادا) مثل عانس تطرز بهمة وشغف كفن بدلة عرسها المينوس منه.

حياة تعمل بجد ونشاط ومثابرة وبدقة صيرفي لإنجاز متاهة العبث. تركتُ الفن ورائي كيتيم يبيع السجائر وحب عين الشمس في سينما حياتي. نسيتُ جبل قنديل وكيف تحررتُ من ثقل الأمم والمدن وخزعبلات البشر، نسيتُ لذة الخفة وها أنا مثقل بوزن الكرة الأرضية، وهي

تلتفت وتدور فوق قرني رأسي. نسيت غابة العظام والنهر الهارب، نسيت أنني أمة.. وحيد
وحر.. والحر لا يتبع الحر.

هل دجنني اليأس حين أعادوني إلى مخيم كرج، وأنا أحمل قلباً مثخناً بالفشل، قلباً نضج
شائطاً ببطء على نار هادئة، يخيم على وجهي الوجوم وتسيل المرارة من فمي. لا رغبة لي
في الحياة ولا رغبة لي في الموت، أسير ونفسي قاتمة وسط دخان اليأس الكثيف.

فهل أرفع راية الهزيمة فوق جبل قنديل وهي ترفرف بلونها الرمادي وبجملة ترمز إلى سرّ
الحياة: كل شيء نفس الشيء؟

استقبلني بالقبلات لاجئ قديم منذ هروبي الاوّل الفاشل إلى أفغانستان، نسيت اسمه، هو
شخص بسيط مثلي وعلى نيّاته، محدود التفكير لا يثير اهتمام أحد وغير لافت للنظر. ربت
على كتفي وقال يطمئنني بفرح حقيقي صدمني:

- انتهت الحرب. وسوف يتغير وضعنا نحو الأحسن.

ضحكت على عقله وسذاجته، حرب هذيانية استغرقت ثماني سنوات حتى نسيها العالم ونسيها
الله. دم يشخب فوق مئات الكيلومترات، دم لا يثير أحداً، ولا يمس ويستفز ضمير أحد، حرب
كهذه كيف تنتهي وهي لا نهائية البدايات.

بعد ثلاثة عشر يوماً من نبوءة صديقي اللاجئ، أعلنت الإذاعات توقف الحرب العراقية
الإيرانية، وبقي كل شيء على حاله مثلما كان قبل إندلاعها وبهضام وحزب البعث أقوى من
السابق. فتذكرها سكان العالم وراح كل عراقي وإيراني يعيد حساباته كل على طريقته
الخاصة، تطوقهم آلاف الأسئلة:

لماذا نشبت الحرب أصلاً؟ ولماذا امتدت لكل هذه السنوات وبكل هذا الدمار العبي، حصدت
أرواح مئات الآلاف من الشباب عدا الأطفال والنساء والشيوخ في مباريات قصف المدن؟

أنا لم أقفز في الهواء مجنوناً من صعقة الفرع، ولم أنظر في بطون الأيام الآتية أي أمل
ومستقبل يعزيني ويعوض ما فقدت، بل اغتبطت بصمت لأن الحرب لم تجد بعد اليوم مائدتها
عامرة بكل ما لذ وطاب من لحم الشباب، وسوف ينخسف كرشها الجهنمي.

فكرت بأخوتي وأصدقائي، من مات ومن بقي حياً؟

هل ماتت أمي بغصتها كمدأ وقد تحالف عليها الروماتيزم والصداع النصفي وفراقي اللعين؟

أين سأعثر على سلامه ان كانت لاتزال حية، هل اغتصبها ابن عمها بزواج شرعي وفق
القانون والأصول؟ هل بمقدور سلامه ان تزيج الرماد عن صدري، وتنفخ في قلبي الهامد طعم
الحياة؟

أعلن بهضام بلسانه عبر شاشات التلفزيون عن عفو عام وشامل لكل الهاربين داخل وخارج
العراق، عفو أمده ثلاثة أشهر.

هل هو كمين جديد أم يريد أن يلّم صورته، صورة عظيم شمامي الخراء امام العالم؟

أغرنتني فكرة الرجوع للعراق ولكن ليس بكمين العفو وتسليم نفسي إليهم، فأصدقاني في المخيم وفي كوجهه مروى سيقيدونني بالحبال مدة ثلاثة أشهر حتى نهاية فترة العفو، خوفاً وحرصاً عليّ من جنون عودتي وتسليم نفسي إلى من هربت منهم، خاصة الآن وأنا متهدم تحت ظلام يشلّ عقلي، وتجلديني سياط اليأس بلا رحمة.

إن سلمت نفسي لهم سيفتحون عليّ أبواب تحقيق واستجواب خرافي، ينبشون طبقات عقلي وقلبي ويحفرون قبور أجدادي إلى قبر (أتونا بستم)، ويطول الاستجواب أبنائي وأحفادي إلى آخر ذرية من سلالتي.

هل حقاً أنا هو ذلك الشاب الذي يصمّ كفه على جمرة سرّه ولا يصرخ:

- يا ناس يا عالم سرّي يأكل روحي ويذبحني بخنجر أعمى.

هل حقاً أنا الذي هربت من ربية العقق؟

مستحيل.. من أين لي الشجاعة والجرأة، وأنا أرتعد الآن فوق سريري متردداً، ارتجف من فكرة رجوعي الى العراق ومن بقائي هنا في مخيم كرج؟

أحقاً أنا هو من سعد جبل قنديل ورمى البيريه بوجه الحرب وبهضام والعالم؟

لا أنا أخرف وقد اعتلاني الصداً هنا وزنجرت روحي، صداً الاتانية والخلص الفردي: شايل (خضر قد) ألوذ به من مكان لآخر، أركض حائراً أحمل نفسي في تيه قد يجرنى الى الانقراض.

أنا مخرف: من سعد جبل قنديل ذلك شخص آخر غيري، توهمت انه أنا، وربما هو مجرد وهم تلبسني أو حلم واحد من أفلام خيالاتي الكثيرة. هذا جبل قنديل الاسطوري لم يصعده بطل.. فأنا .. أنا.. وأنا أصعده واجتازه، هيهات، أنا على يقين: ذلك الشاب ليس أنا بصلعتي التي أفركها مثلما أفرك مصباح علاء الدين فيخرج الجني العملاق يهدر: شببك لبيك العراق والعالم بين يديك.

أين... غابة العظام تلك القارة المنسية بمتاهاتها التي تبتلع كل أهل مدينة الثورة، كيف خرجت منها سالماً وانت الآن مثل فأر يطارده (عتوي) القدر؟

(لا يابه لا) مستحيل هو أنت، لأن شخصاً يغامر كل تلك المغامرات ويتقافز من موت إلى موت وينجو، كيف يفكر بالرجوع الى العراق مجرد تفكير، من سابع المستحيلات ان يكون ذلك الشاب هو أنا؟

ولكن من جاء بي إلى إيران وطهران وأنا جالس في سريري هنا الآن في مخيم كرج ومخرج فلمي يطنّ صوته في أذني: حان وقت دورك التاريخي الذي لايجيده أحد سواك سواك... سواك...

بينما أنا خاتل منطفئ في قعر قدر سريري، تتصاعد من رأسي فقاعات حنين بلون الهواء فلا أرى إلا أُمي وسلامه فقط، أراهما تتنازعان على مقبرة قلبي والعراق ينوح في خاصرتي.
وفجأة خيم على رأسي ظل اللاجئ القديم الذي تنبأ بنهاية الحرب، انبثق فوق رأسي بلا سلام ولا كلام، ابتسم ببلاهة وسألني:

- هل ترجع الى العراق؟

أجبتَه بسرعة وعفوية وبالفصحى:

- قد.

انسحب من فوق رأسي وهو يفهقه بصخب، انسحب كله يضحك من رأسه إلى قدميه. وشعرت فور مغادرته بتكسر تقطبية وجهي وصراع ابتسامة عنيدة تشق طريقها الوعر إلى وجهي. وأنا أتذكر الحديقة الكبيرة جنب مستشفى الجواد، أشعب على نصب الحرية وجواد سليم حين كنت أدعي الجنون ورفيق موحان يسأل وأنا أجيبه بـ(قد) حافية، وحدها لا قبلها كلمة ولا بعدها كلمة، وصار لها معنى غيبي واسطوري داخل العراق وخارجه.

مشجب الحبّ

ظل كريم كشكول يتختل ويزوغ من التطوع الإجباري بالجيش الشعبي في أكاديمية الفنون الجميلة، على وشك ان يفرغ خزينه من الحجج والأعذار: مرة يميت أباه، ومرة يميت أمه حتى أجهز على جميع أفراد عائلته وعمومته وأقربائه ولم تنته الحرب. هل يلجأ إلى الأمراض المستعصية والخطيرة؟

هاهو يجلس مع حبيبته (جميلة) التي تعرّف عليها قبل أربعة شهور يجلسان دائماً في زاوية معزولة خلف بناية قسم السينما. ويسمع جميلة تقترح:

- لم يبقَ غير العوق والجنون و(اسم الله عليك) مرض السرطان.

يجيب كريم:

- لا.. لا.. أنا أريد إكمال دراستي مع أمراض مثل (السكر) والكآبة الانفعالية.

تقول جميلة:

- في كل العالم يتهامس العشاق، أحدهم يوشوش في أذن الآخر عن الحبّ بينما نحن نتهامس عن الجنون والعوق ومرض السرطان.

يقول كريم:

- هذه لعنة الحرب، هل رأيت أحداً يحمل باقة ورد، هل سمعت في الشارع والسيارة أحداً يتكلم بلغة الحب؟ بسطال الحرب داس الحبّ والورد. فالعاشق المسكين مثل حالي لا يعرف ماذا يقول لحبيبته، أتخيله يتعرق خجلاً، وهو يفرك بأصابعه ويحكّ أذنه حائراً كيف يتغزل بحبيبته، هل يقول لها: رشقات رصاص عينيك رعبت قلبي وخرّ شهيداً بحبك، نظراتك تطاردني حتى في نومي كنظرات رجال الأمن والاستخبارات.

ماذا يقول لها: شعرك ليل سجن طويل مؤبد ووجهك حرיתי في عفو عام وشامل. هل يقول لها: ضميني في قلبك من هذا الزمن العاوي، فأنت آخر أسلحتي في مشجب الحبّ الخاوي.

ماذا يقول لها: لا تهمني باسمي ولا أهمس باسمك للريح للشجر للشمس للقمر، فكلهم وشاة، كلهم وكلاء للأمن والمخابرات، سوف يسلمون جلدنا بكتابة التقارير، ونذهب للدباغ، حيث يفصلون جلدنا أحذية لراقصي (الجوبي).

استغرقا بالضحك حتى دمعت عيونهم. مرّ قريهما طالب وطالبة ربما يبحثان عن مكان معزول. كريم كمشكول عرف الطالب، إنه في قسم الإخراج المسرحي لكنه لم يتعرف على الطالبة. صاح عليه هذا الطالب يوشر بيده:

- كريم لك رسالة في البريد من الخارج.

تعجب كريم فهو لا يعرف أحداً في الخارج وهذه أول مرة يرأسله أحد، نهض وجميلة يحاول إخفاء القلق والحيرة.

استلم الرسالة مندهشاً، فهو لا يعرف أحداً في الجزائر. انسل من الباب الجانبي القريب من قسم الإخراج المسرحي. صعد حافلة نقل الركاب رقم (٩٧) الذاهبة إلى مدينة الثورة (سوق العورة)، جلس في صف الكراسي الأخيرة وفتح الرسالة. اكتشف مرسلها من السطور الأولى وهي موقعة باسم (سلامه). دسها وسط كتاب يحمله كأنه يخفي دليل جريمة قد تودي بحياته.

قرأها في البيت بتمهل وهو يتلذذ بشرب كلماتها وحبرها السري ومغزاها ورموزها وإشاراتنا. وتسلل في الليل نحو بيت شرطي المرور جابر، يبشرهم بأن (خضر قد) حيّ وهو الآن في الجزائر، يبشرهم بهذا الخبر المدوّي لعله ينفذ ويزيح غبار الضيم المتراكم فوق هذا البيت المنكوب، منذ ان بدأت المصائب تنهال عليهم بـ(خضر قد) المفقود والذي لا يعرف مصيره أحد، لكن أحد الجنود في ربينة العقق وشى به للاستخبارات بقوله: أعتقد أن (خضر جابر عيسى صويلح) هرب إلى إيران. مما جعل بيت شرطي المرور جابر عرضة لزيارات الاستخبارات المفاجئة بين فترة وأخرى.

(عبودي) معوق في وحدة عسكرية من الانقراض البشرية.

(محمود) يتفسخ بسجن مؤبد في أبي غريب/ قسم الاحكام الخاصة.

(زيدون) عشقته امرأة كويتية تكبره بخمسة عشرة سنة، تزوجها وهربته إلى الكويت بعدما ضمن عدم تسليمه للحكومة العراقية. فترك زوجته وابنته الرضيعة عند أهلها في البصرة.

(مكي) ترقى إلى رتبة رائد وقع في الأسر دون قتال في قاطع الفاو.

وأبوهم شرطي المرور جابر يجلس فوق كرسي متحرك بعدما شخّص له طبيبه الأثير الذي سمى ابنه (خضر) باسمه:

- سوفان في الركبة وانزلاق في الفقرات القطنية.

ربما بسبب الوقوف المهلك لساعات طويلة في الساحات وتقاطع الطرق بين ضجيج السيارات و(الهورنات)، يقف مثل قائد اوركسترا يلوح بيديه لسيارات النقل والحمل، يوزعها على مفارق الطرق، ودائماً الصفارة في فمه، ينفث فيها زفير حنقه وانفعالاته حين تعجز يديه عن التعبير.

دخل كريم كشكول البيت المنكوب، وجد شرطي المرور جابر غافياً في كرسيه المتحرك. إلتفتت نحوه أم (خضرقد) وهي ممددة فوق دوشك قطن، تغطيها بطانية خضراء مقلمة بلون أبيض. جلس كريم على الأرض أمام وجهها الشمعي الناشف، ترطب شفثيها بلسانها. تعيش احتضاراً مزمناً وكأنها تعاند ملك الموت الجالس قرب رأسها فوق المخدة، يريد لها أن تغفل وتنسى عنادها ليخطف روحها. كانت عيناها شاخصتان نحو السقف، تنتظر معجزة من السماء تلمّ اولادها حولها، يحيطون بها: هذا يمسد كفها اليمنى التي تشنجت أصابعها على حركة واحدة منذ ستة اشهر، كفّ تطلب الرحمة من وجع نهش الروماتيزم. وذاك يفرك قدميها المتصلبتين بعقد أعصاب ناتئة مع انتفاخات زرد لائبة تحت الجلد، تزوغ فور لمسها والضغط عليها.

واحد يمسح رأسها ويقبله والآخر يبوس يدها اليسرى. و(خضر قد) يجلس خلفهم يلوب، لا يستطيع لمسها كأنه يخاف ان تموت فور وضع يده عليها.

أخرج كريم الرسالة من جيبه وقال:

- رسالة.. رسالة من خضر.. من الجزائر.

إلتفتت ببطء إلى الورقة التي ترفرف فوق وجهها.

كريم يقرأ مترجماً لغة الرسالة ويفكك رموزها وإشاراتها بينما دموع الأم تتجارى بصمت وجمود. ثم قال:

- حلفني خضر بالعباس أبو راس الحار، حلفني أدلك ألج إيديج.. حلفني أبوس إيديج وراسج.

تناوشت الأم رسالة ابنها بكفها اليسرى وغطت بها وجهها، تتشمم عطره الغائب البعيد. وظلت هكذا فترة طويلة بلا حركة ولا دموع والرسالة تغطي وجهها، لم تند عنها أية حركة أو أثر يدل على الحياة، جامدة الجسد هامة.

رفع كريم الرسالة عن وجهها بيد ترتجف من رهبة موتها، رأى وجهها المرمرى ساكناً وعينيها شاخصتين إلى السقف لا ترمشان، لكنه رأى لسانها يلحس شفثيها فاطمأن وودعها. يسمع خلفه صوت جثة ينبس واهناً ضعيفاً كأنه يأتي من ردهة مستشفى كبير فارغ:

- خايب يمه خضر.. ولك يمه خضر وين اخوتك....

مرّ كريم بشرطي المرور جابر وهو يخرج من البيت المنكوب، لا يزال نائماً بكرسيه المتحرك ورأسه تميل على جنبها الأيسر.

ردّ وراءه باب البيت وتفاجأ بنثيث مطر ناعم، الدنيا تمطر بصمت وهدوء لا يطاق. قرر كريم كشكول الذهاب غداً إلى (بيت الميز) في منطقة الحسينية بالراشدية، حيث سيكتب ورقتين أو ثلاثاً ويدسّها مع رسالة (خضرقد) في الفتحة السرية للميز، فقط لو يكفّ هذا المطر الناعم بهدونه وصمته عن النثيث والنبش. دخل غرفته يفكر بتحرير جواب سريع يرسله الى خضر قد.

وفي منطقة (الكلاء) تخرج سلامه يوماً منذ بواكير الصباح من كوخ عمتها (ليلوه) المنعزل الوحيد وسط حقل الذرة، تخفي وجهها بفوطة فلاحه تتعلم كيف ترعى قطعاً صغيراً من الخراف والماعز بصحبة كلب عمتها (حمور) وترجع قبل الغروب.

وثقت (سلامه) بصيت عمتها (الطنطل) في منع أي خطر يداهما، بعدما حكّت لها قصة الخطوبة ويوم الزفاف والهروب من العرس. مسحت (ليلوه) طرفي فمها وقالت:

- لاتسولفين لي.. كل شيء أعرف.. الميت ميتي وأعرفه شلون مشعول الصفحة.

(سلامه) تقضي نهارها تناجي الريح والنسائم ان تنقل ضراوة شوقها ولهفتها إلى حبيبها (خضرقد)، تتوسل الطيور المسافرة أن تحمل رسائلها القلقة المذعورة إلى حبيبها الغائب الذي راح بلا وداع وانقطعت أخباره. تستغيث بالغيوم أن تمطر برداً وسلاماً على (خضرقد)، أن تمطره بعطر دمعها اللجوج فيأتي إليها مبتلاً يفوح برائحة السماء والأرض. فهي الأخرى هاربة تتوجس من خيالها، من سراب آسن قادم، من ظل شخص بعيد يقترب. ترتعد من أي سواد يحثّ الخطى نحو كوخ عمتها (ليلوه).

الآن فقط ادركت قلق (خضرقد) ومعاناة الهروب، أدركت هلعها من القبض عليه حياً ذليلاً تطارده عفونة العار.

فاتها الكثير الكثير من كلام حبيبها دون أن تفهمه آنذاك، وهاهي الآن تستعيده وتفهم معناه ومغزاه، رغم أن بعضه لا يزال صعباً عليها ويلفه الغموض، خاصة كلامه عن آثار الحرب على من بقي حياً وكيف تمسخ الإنسان، كلامه عن خطورة البعث وبهضام وكيف تمرغ روح الإنسان بوحل الدم وتستلب ذاته فينسى إنه آدمي. تذكرت كلامه صباح يوم غائم في (الشلبة)، وهما يجلسان قرب ساقية يتدفق فيها الماء، تحت شجرة صفصاف تخشخش أوراقها:

- غداً سنكون محصنين من أعمق وأسمى العواطف البشرية، نخلف وراءنا مشاعر الأمل واليأس، ويصير التشاؤم والتفاؤل مثل لعبة قديمة اندثرت وانقرضت فلا يتذكرها أحد سوى المدمنين على الحنين. سوف نخلف وراءنا الفرح والحزن، نتخلّى عنهما ونتركهما دون حسرة وألم، مثلما نترك أسمال ثيابنا التي ضاقت علينا وتمزقت فطوبها في صرّة، حيث تتعفن منسية في سرداب الذاكرة. سوف نكون محصنين، أي كارثة لا تهزنا وأي موت لا

يغضبنا ولا يستفزنا. غداً سنكون من طبيعة أخرى، إذ تركنا وراعنا الطبيعة الأولى للبشر، بل حتى غرائزنا ستكون في تطور هائل ومستمر. الحياة نفسها ستتركنا خارجها فلا تعود شروطها ونواميسها تنطبق علينا. سوف لا نصلح حتى للموت الطبيعي العادي. محصنون، نعيش فوق العادة ونموت فوق العادة.

الفصل الثالث

- ١ -

يمشي معي جبل قنديل يواكبني خطوة خطوة، يغمرنى صداه: إنك أمة، وحيد وحرّ، والحرّ لا يتبع الحر. وأنا أزيح من أمامي أعواد القصب والبردي المتشابكة والمتلاحمة في هور الحويزة، ذكرني بغابة العظام ومتاهاتها، بصحبة رجل من أهالي (قلعة صالح) في العمارة، يجلس في مقدمة المشحوف الذي يسميه (زيطه) وأنا أجلس في المؤخرة، مرة يستخدم (الغرافة) التي تشبه المجذاف بلا صوت ولا خفقة ماء، ومرة يستعمل عصا طويلة اسمها (مردى). يلف وجهه ورأسه ببشماغ رمادي يشبه شبكة صيد سومرية.

تعرفت عليه قرب مكتب نقلات شمس العمارة المقلد منذ سنين طويلة في مدخل شارع كوچه مروي. يصفه بعض أصدقائه اللاجئين في مخيم كرج:

- حنون الرفش ابن الهور.. يعرفه شبر شبر.

- حنون الرفش يشم طير (المسكة) وهو نايم.

- يغط وراء الشبوط.. يلبط يلبط حتى يصيده بأظفاره.

كما يقولون عنه، انه شهيم وابن (حمولة)، يزور أهله في الليل بين فترة وأخرى. يعمل في تجارة السمك بين الأهواز وطهران.

ينوي الآن صاحبي (حنون الرفش) أن يتفقد أهله قبل حلول الكارثة وأن يصطحب زوجته وأطفاله ومن يرغب من أخوته، ويرجع إلى إيران. أعجبنى صمته الخشن فهو لا يتحدث إلا وقت الحاجة والتحذير بصيغة الأوامر: يمنعني من لمس (الشمبلان والجريح) وأنا لا أعرف ماهو الشمبلان وماهو الجريح. وان لا أكسر عود قصب أو بردي، وأن احذو حذوه في كل حركة وسكنة فالهور محشو بكل أنواع الألغام.

كما أعجبه صمتي واستغراقي في وسواسي، وارتاح إلى استسلامي له وعدم الاعتراض على أي خطوة وفكرة. كنت منقاداً له بكامل حريتي واستقلالي ليس مثل الأطرش بالزفة. فمن يجازف ويدخل للعراق بمثل هذه الليلة لايعبأ برصاصة طائشة ولا يخاف من القبض عليه متلبساً بجريمة التسلل. هذه الليلة هجر الناس بيوتهم ومدنهم هاربين من كارثة مجهولة، تتلمس الطريق إليهم.

دخلت الآن مع صاحبي حنون أرض العراق ليلة الجمعة ولم يتبق سوى سويغات قليلة على نشوب حرب الخليج الثانية، التي يسميها الحلفاء (عاصفة الصحراء) ويسميها (بهضام) (أم المعارك) بينما يسميها الجنود ضاحكين (أم العيوره).

اختلط الحنين مع لهب ملون يتراقص في صدري، وأشعر بغصة ودخان يتكدس ويحوص في بلعومي، هيهات هيهات ان يجد له منفذاً ويخرج. سيحترق الحنين مع كل أثر عزيز عشقته وبكيت عليه.

تشبث بي أصدقائي يمنعوني ويحذروني من الرجوع الى العراق، خاصة هذه الأيام حيث امتلأ الخليج بالسفن الحربية والبوارج وحاملات الطائرات، وفي المحيطات تمتد الأيدي للضغط على أزرار صواريخ عابرة القارات.

أقوى دول العالم ستضرب العراق وستجرب ترسانات أسلحتها الجديدة والفتاكة، تصبها على رأسي لأن بهضام غزا الكويت.

وأنا وحدي أتقدم أعزل، يجري مع دمي سرّي الأعظم. أفيض بوحدتي بينما يتعاقد ويتكتل الجميع في أحزاب ومنظمات وقبائل وعشائر، فقد انسحبتُ إلى نفسي حيث القوة، كل القوة مع نفسي، والضعف كل الضعف حين أتلاشى مع الجميع. وحدي سأقف بوجه الدول المتحالفة وأسقط بهضام وحزبه، كما هو مرسوم لي منذ ولادتي حسب نبوءة العجوز الطيبة أم كشكول، التي جرتني من رحم أمي ورأت (الشامات) الثلاثة على زندي: هذا الصبي يقتل ملك ويهز الدنيا.

وكما يسحلني القدر من ياقة قميصي الجوزي، الذي لطمنتي لعنته بثلاث مصائب لثلاث مرات ألبسه، كان آخرها حين اعتقلوني أمام مكتبة العباس بن الأحنف قرب سينما الرافدين في مدينة الثورة، وأنا على وشك تحرير فلسطين، كل فلسطين من البحر إلى النهر.

والقدر اللئيم الذي جمعني و(سلامه)، جمعنا لا شيء سوى ليفرقنا، قدر ساقني إلى الجنة وألقاني في جهنم، قدر كشف لي معنى وجودي ودفعني في حقل ألغام العبث.

وكذلك، ذاك الصوت الغامض اللجوج الذي يدوي في رأسي، يلح عليّ يغويني ويطنُّ بأذني بين فترة وأخرى، أسميته صوت مخرج فلم حياتي، وقد ثبرني قبل شهر ينبس ويهمس:

- حان دورك التاريخي.. الكل فشل وسيفشل في زعزعة كرسي بهضام، لأن الكل باطل والكل قبض ربح، الدور مفصل عليك ولا يجيده أحد سواك اقتحم خوفك فأنت لست بشراً تافهاً... العالم برمته يحبس أنفاسه لخطواتك، والآن حان دورك.. غير مصير بلدك ومصير العالم... ادخل في دورك بلا تردد فالعالم بانتظارك.

هذا الصوت وذاك القدر وتلك النبوءة يعنونني ويسحبونني من اليمين، بينما أصدقائي وكل من يعرفني يعنونني ويسحبونني لليسا، وصديقي (عماد) يصيح مخاطباً حشداً من الاصدقاء في مخيم كرج وهو يشير إليّ:

- جازف بحياته وبأهله حتى يطلع من العراق، واليوم يجازف بحياته وأهله حتى يرجع للعراق. أكو مخبل بالعالم سواها قبله؟

أنا في الوسط بين هؤلاء الذين يدفعونني للعراق وبين هؤلاء الذين يتشبثون بأطرافي وثيابي يمنعونني من الرجوع للعراق. أصوات تتدافع، تتحاشك، صوتٌ ينطُّ على الآخر داخل رأسي،

وصوت يقفز على الآخر خارج رأسي. كل صوت يحاول إرغامي على سماعه ويكون الأول، جميعها تتصارع لتكون الأول:

- أمك على دوشك الروماتيزم تتملخ.

- هل نسيت الجلوس على بطل البعث كولا عارياً.

- دود الغربة ينخرك حتى العظم.

- احواض التيزاب تنتظرك.

- الحب الحب ولا شيء سوى الحب، هو وحده الباقي وسلامه.

- لا تضع قدمك على فخ الحنين الممّوه.

- أنت الأمل الوحيد لوطنك المحتضر.

- لا تركب رأسك ولا يركبك الوهم وتنتحر بالرجوع.

- بهضام لا يفتس إلا على يديك، والبعث لا يزول إلا بوجودك.

- هراء وترهات.. يامعود، العالم شطرنج بيد لاعبين محترفين، وإحنا بعدنه نلعب فسوه فسندي.

- ارجع.. المنفى انتحار بطيء وبقاوك هنا جريمة لا جريمة بعدها.

- موتك خسارة للجميع.. انت لا تجرؤ على قتل نملة فكيف تحارب العالم وتحارب بهضام.

- إذا قوت هذه الفرصة ضاعت عليك الدنيا وما فيها.

- رعونة بسبعة رؤوس لو رجعت للعراق بهذا الوقت.

- تعال.. ارجع.. روح.. ابقى....

تندفع جميع هذه الأصوات مرة واحدة، كل صوت يجرنني إلى جهة فتختلط وتتشابك ملتحمة مع بعضها البعض بفوضى صاخبة مثل حمام نسوان والماء مقطوع.

لذلك قررت تنظيف عقلي وقلبي من بعض المزابل الموروثة والمكتسبة، فأغرق لساعات طويلة في تفكير وتأمل لكنس النفايات، ورميها خارج نفسي. بدأت بكنس زباله الحظ، وبيع الفشل الذي يطاردني، في صحوي ونومي، يقفل علي الافاق ويرمي المفتاح في بحر الظلمات. فالحظ صناعة ذاتية، والفشل ما احملة انا من انطباعات عن نفسي، ليس هناك شخص محظوظ وشخص منكود بالفطرة او الوراثة، مع اوهام المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، وكذلك الفشل الذي يكسر اجنحتي قبل ان احاول الطيران.

ثم انعطفت الى كنس زباله اوهام (الشهرة) التي لم تعد تنظلي عليّ اكاديبها ومغرياتها ولن تستطيع بعد اليوم ان تثرم على صلعتي بصل. الشهرة مقبرة الاحلام خاصة اعلامي التي

اغرقتها نجاسة السياسة من خلال شهرة القائد (بهضام) ونجوميته الدموية، وهو يشيد ناطحات سحاب من الجماجم، إذ قتل حلمي، حلم الفنان، حلمي الذي يتراكم مذعوراً في الليل من شارع لشارع حتى دهسته صدفة مسرعة. إذن ساترك كل شيء، واتعلم كيف اكون فلاحاً، كما اخبرت كريم كشكول باحدى رسائلني عن نيتي في مزاوله مهنة الفلاحة، لما تبقى من عمري حتى وان بقيت مدى الدهر فلاحاً غشيماً.

قلت لكريم: ان الفلاح يدرك سر الطبيعة بلا علم ولا فلسفة، انما هو ينبش بحب خزين ذاكرة الارض حتى يصل الى فجر الخليقة، من خلال حفنة تراب، الفلاح يدرك حكمة الموت مثلما يدرك حكمة الحياة، ويوقن ان الموت تكرر للحياة، وان الحياة تكرر للموت. كما اخبرته ان يحرق (الميز)، ميز حياتي حالما تصله اشارة مني واستقر في مدينة العمارة.

لقد غزا (بهضام) الكويت ولم يدفن الناس موتاهم بعد، طفر من لساني غضب شتائم وهذر لعن ولو بصوت خفيض يرتجف، وحنون الرفش يسمع صامتاً ونحن نسيل في المشحوف غائسين بتيه أسطوري كأن لا وجود لأرض يابسة أبداً، وحنون يسمعي ألغن من ورطنا بحرب ثانية:

- هذا الأعوج ابن العوجه، ما شبع من دم حرب الثمن سنوات نطلع من بلوعة ونغطس أبلوعة جديدة....

أخيراً نطق حنون الرفش وانشق صمته، فقال دون ان يلتفت إليّ كأنه يكلم مخلوقات الهور عن بهضام:

- تنهيه من البول يصبح زارب.

حضارة غريزة القتل

بغداد مدينة أشباح كما تصفها الاذاعات، خاوية مقفرة وكأنها خلت من أهلها. هربت الكثير من العوائل بأخف الأحمال وزناً إلى مدن صغيرة غير بعيدة جداً عن بغداد، مدن بانسة لا تستحق القصف ولا تصلها الغازات السامة لو اشتعلت حرب كيمياوية مثلما يُشاع ويلمح لها هنا وهناك. ولم تهرب من مدينة الثورة سوى القليل من العوائل، منها عائلة الرفيق (موحان) الذي نقلهم إلى مدينة (سلمان باك) وبقي لوحده في بغداد، يقضي معظم الأوقات خارج البيت في مهمات حزبية، ويرجع للبيت فقط من أجل الاستحمام وتغيير ملابسه والنوم ثلاث أو اربع ساعات.

وفي ليلة الجمعة قبل اندلاع حرب الخليج الثانية بساعات قلانل، في الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق تماماً، أخرج الرفيق (موحان) من جيبه مفتاح باب البيت لينام قليلاً قبل الموعد المقرر لبدء هجوم قوات الحلفاء. ولم يصادف شخصاً وهو يقطع شوارع وساحات قطاع (٣٣)، ولم ينبج عليه كلب وما لمح قطة حتى تجاوز دكان كشكول، جميع البيوت خامدة هامة لا ضوء ولا حس ولا حركة، الشوارع مقفرة تصوصي.

أخرج الرفيق (موحان) المفتاح فسقط منه على الأرض، انحنى يتلمسه بكفه حتى عثر عليه، وقبل أن يدخله في القفل هجم عليه شبح كاسر، إنقضَ على رقبته بأسنان حادة وعضَ حنجرته. وقع منطرحاً على ظهره والشبح يطبق على بلعومه ينهشه بأنياب باشطة لا فكاك منها، الرفيق (موحان) يضرب رأس الشبح بيده اليسرى لأن يده اليمنى تحت ركبتي الشبح فلا يستطيع تناوش مسدسه. حاول برجليه ان يدفع هذا الوحش الضاري لكن حنجرته قد تمزقت داخل أشداق الشبح، حاول غرز أصابع كفه اليسرى بعيني الشبح لكن يد هذا امتدت ولوت أصابعه، صرخ بلا صوت وعيناه تنظان الى الخارج، بينما بصقت أسنان الشبح حنجرته فوق الارض بسرعة خاطفة وانقضت فوراً على بلعومه على الموضع نفسه، كأنها تريد ذبحه من الوريد إلى الوريد، وهو يرفس ويشخر صارخاً بأعلى صوته بلا صوت والهواء يهرب من منخريه ومن فمه. وبقيت جثته مكشوفة امام باب البيت وسط بركة من الدم حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم الاول للحرب. لا يعرف الجيران ماذا يفعلون بها والدنيا مقلوبة بانفجارات الصواريخ المنهالة على بغداد، كما ان جميع الطرق مسدودة وقضية دفنه بدت عويصة، الى ان جاءت سيارة بيك آب بيضاء مملوءة بمسلحين يشبهون الرفيق موحان. تفرق الناس بعيداً، وحمل هؤلاء الرفاق الجثة ومضوا الى جهة مجهولة. شيع الناس الجثة بنظرة اخيرة، وقد محت سطوة الموت من ذاكرتهم صيحات: سجين وملح. لم يلحق الرفيق (موحان) ليرى واقعة (أم المعارك) حينذاك.

يتعذب كريم كشكول وهو يحاول كتابة ورقتين أو ثلاث قبل بدء ساعة الصفر للحرب الجديدة، يتدثر بثلاث بطانيات قرب مقبرة (محمد سكران) في (بيت الميز) في منطقة الحسينية على مشارف مزارع الراشدية. فقد صار الوقود شحيحاً نادراً وعاد الناس إلى أيام الحطب. كريم يرتجف لا من البرد وحده بل من عفاريت المجهول، ويختض رعباً لو انتهت الحرب الثانية هذه ويبقى بهضام على كرسيه، يتربع فوق الدمار وأنقاض العراق فيتاجر بالحصار والشرف والكرامة. يفكر بإنكفاء الناس على الغرانز خلال أشهر قليلة من الحصار، وهو يرى تفشي وباء الشعور بالجوع لا الجوع نفسه، فمن كان يشبع بثلاثة أرغفة خبز قبل الحصار، اليوم لا يشبع بعشرة أرغفة.

استفحلت الأنانية وخرجت غريزة البقاء من قمم الجسد، بعد أن كانت خائسة في الظلام، تمدّ يدها خلسة إلى طعام الوجود. وتفاقت هواجس كريم وهو يفكر بصوت يرتعد:

- أخاف ان تتطور غريزة البقاء إلى غريزة للقتل، ونعيش في حضارة غريزة القتل.

فتذكر (خضر قد) وابتسم بملء وجهه حين تذكر سرّه الخارق المجنون الذي أطلعه عليه وأودعه عنده من دون كل البشر، في تلك الليلة المعبرة والجو المدبوغ. ويتساءل كريم:

- ماذا سيفعل (خضر قد) لو أسقط الحلفاء بهضام؟ ماذا سيفعل بسرّه لو قتله أحد أفراد حمايته أو واحد من المقربين إليه؟ (خضر قد) لم يكشف لي تفاصيل سرّه الأبلق، الذي أنكشف نصفه في الضوء وغاب النصف الاخر في الظلام. هل كان يعني بسرّه: أن يسقط بهضام بيديه هو فعلاً أم انه سيكون عاملاً مساعداً وخفياً في الخلاص منه؟ هل أعد خطة محكمة خالية من ثغرات كشفها، وهو يعرف أن عشرات المحاولات قد فشلت في النيل منه، ليقول لي وهو واثق أشد الثقة، أن لا أحد غيره مطلقاً سينقذ العراق والمنطقة والعالم من طاعون بهضام، أم

أنه مجرد حلم خارق جثم على قلبه فلا يفارقه أبداً؟ مسكين خضرقد يعيش ويحرص على حياته من أجل حلمه، ولكن هذا الحلم يعتاش عليه ويقاسمه أكله وشربه ويتغلغل في لحمه ودمه، ويسلبه بقية أحلامه فيجرده من حاضره ومستقبله. هل أصدق حلمه هذا واستكين بالخلص إليه، حيث لا أحد غير (خضرقد) يخلصنا من مهندس الخراب؟

مسكين (خضرقد) يلمح في رسائله أن أخبره عن مصير أمه وأبيه وسلامه التي لا أعرف عنها سوى أنها راقدة في مستشفى التويثة، كذلك يلمح لي أن أخبره عن مصير أخوته وأصدقائنا. لكنني أزوغ وأهرب من هذه التلميحات وأتغابي، فمن المستحيل أن أخبره بشيء عن مصير أي من أفراد عائلته ومصير سلامه، ولا أستطيع أن أخبره عن مأساة أصدقائنا. فما يعانيه في الغربة يكفيه ويزيد. وأنا أستغرب مذهولاً من إصراره على التسلل إلى مدينة العمارة في أيام كهذه واستقراره فيها وعزمه أن يكون فلاحاً لما تبقى من عمره، وأن أحرق (الميز) ميز حياته حال استلام إشارة منه.

رمى كريم الأوراق والقلم يائساً من أي أمل في الكتابة وهو يخاطب (الميز) الذي أمامه: لا أستطيع أن أعصب نفسي على الكتابة، قلبي كسيح.. أعرج.. بحاجة إلى عكايز ليسير فوق الورق، والكلمات تفرّ مذعورة.. فزعة.. يتراءى القلم لي وأنا امسك به وكأنه ذنب أمعظ والكلمات قطع غزلان.

قفز كريم كشكول خارج الغرفة إذ ارتجت الأرض بزلزال هائل ودوي رعد مخيف بطفرة واحدة، انصعق وهو يرى جلد الليل قد انسلخ، حيث اشتعلت الأرض والسماء بنيران وجمر يتلامض يفتأ العيون.

- ٢ -

نسيل بمشحوف (الزيطة) بين أزقة القصب والبردي وبين (التهلات) تلك الجزر العائمة فوق سطح الماء الساكن الجافل، ندخل في جو أسطوري يتعاقب فيه الظلام والضباب، جو مغلق من جميع الجهات يشقه (حنون الرفش) وأنا بصمت متورم، تكتنز تحتنا ملايين الحيوانات التي تتحفز لدورها في الوجود، كأننا ندخل في اليوم الأول للخلق، تانهين في أول ظلام على الأرض وأول ضباب تستقبله الدنيا. الماء والقصب والبردي وكل نبات وحيوان وطيور الهور إنوجدت الآن توأ لأول مرة، كل شيء مرتبك وجل لا يعرف ماذا يفعل بوجوده الجديد المخلوق توأ، لذلك هم خانسون مندهشون بنا لا يعرفون كيف يستقبلوننا ولا كيف يودعوننا. أنا وحنون نعوص في هذا الطقس البكر، وحدنا نسيل فوق الأرض المغمورة وكأن لا وجود لبشر غيرنا. نسيت من أنا وأين نحن حين غمرني شعور السائر في نومه، تسرب إلى لبّ وجودي، شعور بأني أنا الآخر جديد أيضاً فنسيت إن حرباً ثانية ستندلع بين لحظة وأخرى، نسيت أننا نتسلل داخلين إلى أخطر مكان في العالم. لم أعد أذكر أنني كنت في طهران في مخيم كرج، قذفتني إليه حرب لعينة دامت ثماني سنوات، كأنها مجرد كابوس مرّ عليّ في حياة سابقة وبعيدة، وبدت مغامرة هروبي إلى إيران عبر كوردستان مجرد حلم لذيد مضى عليه دهر، حلم يتراكم للوراء يغوص إلى قعر حياة قديمة:

أركض مذعوراً ويركض ورائي لاجئ قديم يصيح متنبئاً: حرب الكلاب انتهت. تفتتح بوابة المخيم تلقائياً فأخرج راكضاً وصديقي (لازم) يلوح لي من فوق صخرة سوداء في عرض مياه الخليج. مررت بشارع ناصر خسرو، هبت خلفي كوجه مروحي بعاصفة جوازات ووثائق سفر وتأشيرات دخول (فيزا) ممزوجة مع دخان مناقل الكباب و (التكة والمعلك) وأبخرة الشاي، و (فرشته) بجسدها الشذري تتناثر إلى فقاعات قبلا تتراحم علي وتنفجر هامسة تتأوه:

قربان تو. أوس بقدمي الحافية وأنا أركض كس عاهرة فتنتلق من ثقبه عين اخترقت محل لعب أطفال. أركض فوق قمم جبال كوردستان وأهبط نازلاً من جبل قنديل، تفتتح من خطواتي شفاه من الثلج تصهل: حرّ ووحيد، والحر لا يتبع الحر. أرى ربيبة العقق تتدحرج مثل كومة عاقول أسود فوق الثلج وأرى بيريتي لا زالت تحلق هائمة في الفضاء، تندلق من جوفها أحشاء الحرب. أركض في شوارع بغداد تطاردني الكلاب الزيتونية حتى أصل سكة حديد (أبو دشير)، تركض خلفي سلامه بزيها الهندي وشعرها المتطاير إلى عنان السماء، بيدها رسالة تحاول إيصالها نحو أصابع يدي الممدودة إليها لكن قطاراً أسود ينفث لهب جماجم مشتعلة، مرّ بجانبها وخطفتها سحلاً يد موشومة بنجمة ثمانية، سحبت سلامه من أحد أبواب القطار وسقطت الرسالة من يدها فوق أعشاب ورد لسان الثور والشفلح والحدقوق. أركض ملطخاً بدماء ترقش الأرض يلحقتني ضابط بلا رأس يركض ورائي بذيل طويل طويل من الجثث ينتهي بممرض يلبس صدرية بيضاء يصيح بأعلى صوته: إضرط... إضرط. أركض مسرعاً فأرى ثانوية المصطفى مفتوحة الباب على صالون حلقة يغص بزبان لهم أذان طويلة كأذان الماعز. أركض قرب الحديقة الكبيرة جنب مستشفى الجوار، توكر على أشجارها غربان سود تنعق: قد.. قد.. قد. وضافدع كبيرة تجلس على شكل حلقات تضج في نقيق يملأ الجو: قد.. قد.. قد. أدخل قطاع (٣٣) حتى أصل الى دكان كشكول مخلفاً ورائي عجاجة غبار غطى ترابها شوارب ميري واختلط مع نغمة ناصر نابت، وانفص محمود واقفاً حين لمحني أخطف مسرعاً، رأني واندلق من حضنه شلال دعابل وراح يتلفت هنا وهناك فلا يرى سوى كريم كشكول يداعب بأصابعه طائر سنونو. أركض تحت مطر مجنون، تتقرقع على صدغي رعود ويسطع وميض برق، يضيء صورة (بت المعيدي) التي تغط وتنط من محمل خشب يعوم، وأسمع صوت امرأة في لحظات الطلق والمخاض تندب: علي.. علي.. علي. فأدخل إلى صريفة طين وأرى طفلاً ولد تواء على زنده ثلاث شامات فوق سرير خشب أسود. أحمل الطفل الوليد بين ذراعي وهو يصرخ: قد.. قد.. قد. فانطلق به راكضاً أخترق الظلام والضباب صوب حياة أخرى.

* * *

ينزلق المشحوف على صفحات الماء وأتعجب كيف لا يصطدم (حنون الرفش) بأي شيء أمامه فالظلام والضباب يلف السماء والأرض، بالكاد أراه، أبطلق وأمد نظري لأتبينه وأميزه، فجأة وقف المشحوف (زيطه) ونهض حنون كمن يتشوف بأذنيه لا بعينيه، يدير رأسه من جهة إلى أخرى فلعب الخوف بقلبي لنلا يكون قد أضاع الدرب وأخطأ في تتبع خريطته الداخلية ولربما وقعنا في قبضة شمامي الخراء.

في هذه المغامرة انا بلا حقيبة تشهد معي صنوف الهلع والمتع في رحلتي، وبلا هوية وأوراق ثبوتية تشي بي من أكون، حافياً من كل شيء مثلما ولدت، ولكن لو سقطت بأيديهم سوف يعترف عليّ جسدي رغم أنفي، يسلمون جلدي وينبشون طبقاته بخبرة وحرفية عالية، حتى انهار وينطلق لساني يهذي بما لا يخطر على بالي.

رأيت حنون الرفش يجلس، يتناوش (المردى) مثل خيال أو طيف يبهر في متاهة سحرية تزيح كل أثر للواقع فتذكرت رؤيا أرض السواد وأنا أحرق بماء الهور، تلك الرؤيا عشتها بدقائنها وتفصيلها الدامغة حيث كنت جالساً في صومعة سريري وأنا أفكر بالرجوع إلى بلادي، سمعت نقاشاً يدور بين اثنين من اللاجئيين حول معنى أرض السواد.

دخلت في حقل أسود شاسع على مد البصر ولا نهاية له، ظننته من بعيد عشباً محروفاً في أرض تهيأ للزراعة، تجثم فوق رأسي غيوم دخانية حمراء، واطنة تتخللها ثقوب زمردية لسما نانية. الغيوم راكدة رابضة دون أي حركة ولا أثر لريح تدفعها على خلاف اعشاب الحقل السوداء المهفهفة، التي تتمايل مع هبات ريح طلسمية تبتث الرعب من خلال ما تخفيه بين طياتها. طفرت من لساني صيحة مرتبكة لا إرادية (آخ... شنو هاي). صيحة لا تنتمي لفمي الذي بقي مفتوحاً فاغراً، ولا تنتمي لعيني التي جحظت واتسعت من صدمة ما ترى: هذا ليس عشباً، انه شعر. انظر مشدوهاً وأنا أتفحص هذا الشعر من أسفل قدمي وحتى نهايات الأفاق على مد البصر. أقف وسط سواد في سواد، شعر بشري أسود يحيطني من كل جانب، يتموج ببطء مع هبوب تلك الريح الطلسمية.

جلست مقرصاً لا أصدق ما أرى، امتدت يدي اليمنى إلى بعض خصلات الشعر أمسدها، فجفلت مفزوعاً حين التفت خصلات الشعر حول أصابعي وبركت منكباً على ركبتي.

أحاطت خصلات الشعر أصابعي بشدة، تلتف عليها وتمسكها كأنها تنتظر هذه الأتامل وهذه اللمسة منذ أمد طويل. انصعقت وأنا أحاول انتزاع يدي من الخصلات إذ احتقتت أصابعي بدم محصور وتلونت حمراء صفراء زرقاء من قوة إحكام التفاف الشعر عليها. كم تمنيت لو أنني كنت أحمل مقص حلاقة أو شفرة أو أي آلة حادة أبتز فيها خصلات الشعر وأحرر يدي، فمن لي الآن وكفي مربوطة وسط حقل شعر يتمواج مع ريح تهب من كل الجهات، وفوقي غيوم حمراء واطنة بلا حس ولا نفس، راكدة ساكنة؟

لملمت شتات نفسي مع خليط هلعي ووساوسي وأفكاري، وقررت إن استميل الخوف إلى جانبي، استدرجه إن يقف معي لا ضدي كي أنقذ نفسي من هذا الكابوس الأسود. نويت أخيراً: أن اقتلع الشعر الذي يلتف على كفي، اقتلعه من منابته من جذوره وأخلص من هذه الورطة. ضمنت كفي بقوة وسحبت الشعر من الأرض بعنف، فسقطت على ظهري ورأيت كفي تحمل رأساً مذبوحاً يقطر بدم طازج حي.

تلعثمت وتبلبلت وأنا أزحف على مؤخرتي من شدة ارتياعي وهلعي. كان وجه هذا الرأس يحمل ملامح (أوميد) صديقي. زحفت على ركبتي إلى حفرة الرأس المقتلع، وضعت في مكانه وأهلت عليه التراب، فارتخت خصلات الشعر وتركت أصابعي مناسبة تهفّف مع موجات الريح الطلسمية، متحاشياً أن أمس أية خصلة أخرى لنلا يتكرر الكابوس.

نهضت من وسط حقل الشعر الأسود الممتد والشاسع، وأدركت حشود ما يخفي من الرؤوس المذبوحة.

شكلت هذه الرؤيا عندي معنى مغايراً وبعداً جديداً لتسمية العراق بأرض السواد. رغم ذلك لم أتردد في الرجوع لبلادي ولم تقمع إرادتي هذه الرؤيا عن المضي بسري إلى آخر مشوار.

* * *

توقف (حنون الرفش) مرة ثانية في ممر ضيق لا يستوعب سوى بوز المشحوف، توقف كمن يستريح من عناء (المردى) و (الغرافة)، أو ليطمئن على نياشين وعلامات دربه الوعر ومسار بوصلته الداخلية. خرج من رماد صمته وأجابني عن سؤالي بعد مضي أربع أو خمس ساعات عليه، حتى انني نسيت، ولم أتذكره إلا الآن، دون شعوري بالإهانة من صمته وإهمال السؤال، حين سألته استدار نحوي صامتاً ولم أتبين شكله وملامح وجهه من وقع وتأثير سؤالي عن وجود أقارب لي في قلعة صالح، هم أبناء عم أبي ذكرتهم له بالأسماء: بيت حمود وبيت دحام وبين حمدان، كلهم متجاورون في سلف واحد، كما ذكرت له بيت خالي (عويز) الذي يعيش في سلف آخر. اعتقدت إن سؤالي اغاضه لذلك تركني في حيرة وخرج من الإهمال، ربما تكلمت بوقت عصيب غير مناسب وفي مكان خطر، حيث يجب إن نذوب مع السكون دون سماع صوت الشهيق والزفير، وإن نموع في الظلام والضباب، نتلاشى بلا أثر يفضح وجودنا. لكن لماذا لم يوشر لي بغلق فمي بوضع سبابته فوق أنفه وفوق شفتيه؟ لماذا لم يحذرني منذ البدء بعدم الكلام؟

أجابني بعد مرور وقت طويل وبعدها نسيت سؤالي، موضحاً انه يعرفهم فرداً فرداً وهم بمثابة أهل، وأصر إن يوصلني إلى بيوتهم، ونصحتني إن ألبس دسداشة ويشماغ وأطلق شواربي.

الفقرة الأخيرة من النصيحة هي أسوأ شيء في مغامرتي هذي، فأنا أمقت الشوارب منذ حادثة (الفرخجي) وشواربه ٨ شباط الغليظة، التي تميل للاصفرار في سينما السندباد. لا أستطيع تخيل وجهي بشوارب، هل أقد شوارب عبد الكريم قاسم أم أجعلها شوارب بعثية للتمويه والاختباء خلفها، ولكن كيف أطيقها وأحتمل عبأها وضراوتها؟ الأفضل إطلاقها على سجيبتها حتى لو صارت مثل شوارب نيتشه.

نهض (حنون الرفش) يدير رأسه إلى جميع الجهات كأنه يبحث عن منارة مضيئة تهدي التائهين، لكننا عميان مهما بطلقنا وسبرنا حلقة الظلام وطبقات الضباب لا نبصر أكثر من مسافة مترين فقط. وكما في رحلة الهروب لإيران امتنعت عن التدخين الآن، بلا سبب قاهر، فمن المستحيل إن يرانا أحد من خلال كل هذه الجدران المنيعة من القصب والبردي والظلام والضباب. نسيت السجائر الآن ولا رغبة لي بالتدخين، لأنني مشدود ومبهور بما يخفيه هذا المكان المستغلق، وبما أتحفز لرؤيته برغم عدم قدرتي على رؤية أي شيء. كذلك يبهرني هذا السكون الفاحم، هل هو ذات السكون الذي يسبق العاصفة كما يقولون. سكون يسبق حربنا الثانية التي ستقضى بين لحظة وأخرى، أتخيل كيف سنشعر بالارتجاج واختصاص أرض

العراق بزلزال وهزات عنيفة تقترب شيئاً فشيئاً من صدري حتى ارتج بهزة قلبية، أصحو بها على خراب البلاد والعباد.

آخ.. آخ، لماذا هربت وتركت العراق ينوح علينا ويموت خلية تلو الخلية بأرضه وأشجاره وحيواناته ومياهه وبشره؟

هروبي خارج العراق خطأ قاتل، لماذا رفضت عرض (البيش مركه) البارزانيين في البقاء معهم في كردستان؟ لماذا لم الذ بالأهوار؟ الهروب خارج البلاد خطأ مدمر، تركنا العراق يئن وينزف، يتسرب من جسده مئات آلاف من الهاربين، أعداد لا تحصى من كريات الدم البيضاء فرت بلا رجعة، من سيدافع ضد جرائم طاعون البعث وبهضام؟ تركناه لوحده يتلوى حين رفسناه بخطواتنا الهاربة دون شفقة، مثلما تركت أمي على فراش الموت من تفاقم مرض الروماتيزم، تركتها للموت يعتني بها.

تركناه يتصارخ علينا بالرجوع وهو يحتضر ولا سبيل لإنقاذه إلا بمعجزة سماوية، وهذا مستبعد لأن الله قد أغلق أبوابه فلا يستقبل أي صرخة أو دمعة بعدما سطعت نجوم البعث الثمانية، سطعت في الطيز العراقي فعم رخاء الخراء.

لماذا لم نلجأ إلى جبال كردستان وأهوار الجنوب لماذا؟

لماذا كل هذا العدد الضخم من كريات الدم البيضاء تسربت من جسد العراق وتناثرت على قارات العالم تبحث عن اللجوء في جسد غريب تقضي العمر كله في التكيف معه؟

بعد فوات الأوان، ها أنا أرجع للعراق يفترسني الندم، أرجع كقطرة دم تتسلل إلى شريان البلد، فهل تنقذه هذه القطرة؟

بعد فوات الأوان أزحت عفونة الصمت المتكدر المترسب والمتخمر لفترة طويلة، فالسر يتعفن إذا لم يجد طريقة للكشف والذئوع، تماماً كالحب الذي يتحول إلى مرض إن لم يتحرر من سجن القلب.

وها أنا مع (حنون الرفش) أدخل إلى رحم بلادي حيث لا أريد لسري إن يتعفن وإن لا أبقى في مخيم كرج أتفسخ من الانتظار، في تلك المقبرة الأليفة لدفن الوقت النابح علينا، وقت ينبح ويعض، وكذلك ندفن فيه الأحلام التي تنغز خواصرنا كمهماز، وندفن عبر التجارب التي راحت تضرنا ولا تفيدنا ولا تنفع غيرنا، نحملها مثل دامل تنقيح كلما لفحتها سموم التكرار.

كشفت سري علناً وأمام الجميع بأخر جملة تفوهت بها في مخيم كرج، ولكنني قلتها بمزاح صاخب وبغفوية اللامعقول، جملة أقرب إلى النكتة والمفارقة اللاذعة، قلتها بلا تفكير وبطريقة ساخرة متهكمة بحيث يستحيل إن يصدقها أحد. قلتها وسط جمع من الأصدقاء وهم يودعونني بالقبلات والحسرات وكأنهم يشيعون ميتاً، فقال عماد:

- لحد الآن لا أعرف... لماذا ترجع الى لعراق؟

قهقهت مرحاً وقلت:

- لإسقاط بهضام.

لقد ينس الجميع من القضاء عليه والخلص منه، فأداروا ظهورهم عنه وتركوني وحدي أتملخ وأعض قلبي للظفر به للانقضاض عليه وإنقاذ البشرية. تركوني وحدي، أنا الذي لا يتجاسر على كسر غصن شجرة وقتل بعوضة.

المهزلة أم قرون: إن جهاز المخابرات والأمن والبعثيين يبثون إشاعات خرافية عن سطوة بهضام الأسطورية، بحيث إن كل من يشهر عليه السلاح ويحاول اغتياله ينهار وترتعش يده ويسقط منه السلاح بخزر عين واحدة من بهضام. لذلك باءت كل محاولات اغتياله بالفشل المخزي، كما يبثون دعايات عن وجود سحرة ومنجمين ومتنبئين مثل العراف الذي حذر يوليوس قيصر من ليلة قتله. هؤلاء يكتشفون القاتل المحتمل بمجرد إن ينوي الإقدام على عمله هذا. ففي إحدى المرات رسم أحد السحرة خريطة بهلوانية للقبض على مواطن يخطط لاغتيال بهضام:

- تذهبون الآن فوراً إلى مدينة (الشعلة)، تتجاوزونها إلى الطريق المؤدي إلى مقام (ابراهيم بن علي)، يصادفكم جدار طين متهدم وجذع نخلة مقطوع من الوسط، ينحدر منه طريق ترابي ضيق تحفه أشجار عرموط من الجانبين، يقاطعكم جدول ماء حديث الكري تتكدس على حافته أكوام طين ما تزال رطبة، تجدون معبراً حديدياً من بقايا سيارة حمل كبيرة فوق الجدول، قبل إن تعبروه ستقرأون على لافتة خشبية مغروزة بالأرض (بستان للبيع مساحته عشرة دوانم يحتوي على دار سكنية. المراجعة مع مكتب عقارات القدس مقابل جسر البعث في الشعلة). تعبرون وتنحرفون إلى اليسار في ممر ترابي، لن تفقوا عند الباب الأول ولا الباب الثاني، بل عند الباب الثالث الذي يعلوه رأس وعل بقرون ملتوية معلقاً على مشبك الباب. تقتحمون البستان ويسقط رأس الوعل وينبح عليكم كلب أسود شرس، تقتلون الكلب بكاتم الصوت وتركضون مباشرة إلى زريبة الحيوانات فتدخلون كوخ طين. هنا تجدون القاتل الذي ينوي اغتيال السيد الرئيس، تجدونه ينظف عاجلاً ولد توأ. وسيعترف هذا القاتل انه يدرّب طيراً من الجوارح على نقر السيد الرئيس فور ظهوره بمكان عام مكشوف، بعدما يطلي منقاره بالسيانيد.

المصيبة أم (ذويل)، إن الناس البسطاء يصدقون هذه الإشاعات والقصص الجنجوتية، يصدقونها ويعلمون ذلك: بهضام شايل خرزة، يتساقط الرصاص من فوق ملابسه مثل ذباب ميت عندما يرمونه بالبنادق والمسدسات. افتك سحرة العالم يتبارون ويظهرون براعتهم بين يديه، يغلفون جسده بهالة من السحر الأسود والأحمر والأزرق فلا يستطيع اختراقه حتى عزرائيل، إلا إذا تدخل الله شخصياً ويمد يديه، يخنقه حتى يخرج الزبد من حلقة المعوج، فقد يتراجع عزرائيل عن خطف روحه بأخر لحظة خوفاً ورعباً من عيون بهضام ومن سطوته وجبروته. وإلا ما معنى بقائه طول كل هذه السنين بينما لا يبقى أي خليفة أو ملك أو رئيس في العراق أكثر من أربع سنوات منذ الإمام علي بن أبي طالب والزعيم عبد الكريم قاسم حتى عبد الرحمن عارف. هو الوحيد من يخطؤه الموت دائماً وأبداً، يكتشف المؤامرات في آخر لحظة، يصفى ويقتل أقرب المخلصين له لأنه يشم رائحة الغدر والخيانة: من حركة عين أو نبش أنف أو من النظر إلى الساعة. فالسحرة من حوله يقرأون الممحي وما بين السطور

ويستنطقون العيون. يطاردون القتلة المستقبلين في جميع دول العالم، القتلة بالنوايا وممن يخططون لاغتياله باللاوعي وبالعقل الباطن. فيخطفونهم ويغلفونهم بطرد بريدي مستعجل إلى بغداد، أو يرسلونهم بتوابيت دبلوماسية.

هذا العصي على الموت العادي وعلى القتل وعلى المرض، هذا الذي يحيط نفسه بنسيج عناكب السحرة ويتحدى كل العالم أن يمس أظفراً واحداً منه، ألا يستحق القتل مادام لا يستطيع أحد غيري إن يقتله من دون سائر البشر.

طبعاً، لا تنظلي عليّ أفلام الإشاعات والقصاص هذي، لسبب واحد بسيط: لو انهم فعلاً يشخصون من ينوي قتله لكنت أنا أول المثرومين في (زلاطة) السحرة.

ثم هل إن قتل بهضام وحده ينقذ العراق بينما يشاركه آلاف المجرمين، الذين ينفذون جميع نزواته الدموية ويتسابقون لقتل كل من يرفع رأسه وينظر إلى عيونهم مباشرة. كيف بمقدوري التخلص من هؤلاء المجرمين أذرع الأخطبوط (بهضام)؟

إقطع رأس الأفعى وليحدث ما يحدث حتى لو انقلبت الدنيا، حتى لو قامت القيامة، فأسوأ كارثة هي أفضل من بقاء بهضام، لأنه صانع ومبدع لل.....

أهتز المشحوف (زيطه) وماج ماء الهور فانقطع مونولوجي وانطفأت أضواء المسرح داخل رأسي أثر دوي رعد متصل رج المكان. صاح (حنون الرفش) غير عابئ بخطر كشفنا وإطلاق الرصاص علينا ونحن لا نرى شيئاً فالظلام والضباب يطمنا ويسد علينا السماوات والأرض، صاح حنون:

- علگت خويه؟... قامت القيامة... هذا التريده يا صديم المنويوج؟

مجنونة القمر

فطنة العمة (ليلوه) وخبرتها في البشر كانت تطرد العيون الطامعة عنها وعن بيتها وحلالها، دباغة الدنيا أم المصائب كما تسميها. هي التي اكسبتها هذه الفطنة والخبرة فاخترلتها بثلاث وصايا لسلامه لكي يتحاشاها الجميع ويحسبون لها ألف حساب: إن تخفي ضعفها وهشاشتها، وتبدو للعين الفاحصة إنها صلبة (نجره) لا تتزعزع، وتدافع عن حقها لحد جريان الدم.

وإن تكون باشطة اللسان تفضح العيوب علناً أمام الكل حتى لو أهينت لو ضربت مرة ومرتين وثلاث، تبقى شائطة الأعصاب ترعد وتصرخ وتلم السلف على من أهانها وضربها، اللسان الحاد والسليط يبعد عنك المذلة والهزيمة والحيف. وأن لا تخافي أبداً من التهديد ولقي نفسك بعباءة الغموض، نصف يظهر منك في الضوء والنصف الآخر في الظلام.

بينما سلامه تعيش في الضفة الأخرى من الواقع، يحوم حولها وينهشها حب أمعط فلا تفقه شيئاً عملياً من وصايا عمتها رغم إن شخصيتها فعلاً مثل وصاياها. وفي هذه الأيام الصعبة

المشؤومة طمرت (ليلوه) كل أثر للحياة هنا في الكوخ وحظيرة الحيوانات، إذ كان يبدو من بعيد مهجوراً ومخيفاً و (حمور) كلب مدرب على إرعاب كل من يدنو ويقترّب من حدود مملكة (ليلوه)، لا يعض لكنه يؤذي المتطفل والحواف والحرامي أفدح من العض: حين يلمح أحدهم يعود متسللاً خلفه، يختل هنا مرة ويربض هناك مرة يثير هواجس رعب خفي من خلال تحريك الأحرّاش والخشخشة المريبة وإصدار أصوات هرير مسعورة، وهذا المتطفل يتلفت فلا يرى شيئاً، ثم يخطو (حمور) بهدوء حتى يصل ما بين قدمي (المتطفل) ويهجم على مؤخرته بنباح مباغت صاعق. لذلك تظمن سَلامه إذا كان حمور قريباً منها ومن القطيع. لكنها محبوسة هذه الأيام عن البرية بريحتها وغيومها وطيورها فتكدست رسائلها في صندوق صدرها، حيث لا تستطيع إرسالها إلى (خضر قد)، وعمتها تمنعها من تجاوز عتبة باب الكوخ، لهذا لجأت إلى صندوق الذاكرة تنبش فيه عن همسة حب مرتجفة من لسعة برد ومن خشية انفضاح أمرهما في البيتونة، كان قد باح بها (خضر قد) فألهبت أذنها في أول لقاء، وهو يرتدي قميصه السمائي لوحدته فوق جلده رغم شدة البرد، إذ قال بهمس راعش إن الملابس الثقيلة تعيقه عن الصعود بين شقوق الطابوق المكشّر إلى البيتونة.

أين أنت يا لب القمر، يا ساكن في قرص القمر، كم أراك متجسداً واضحاً حين يقترب مني القمر حتى أكاد أنوشك؟ لكنك الآن تفر مني، يتملص طيفك مني، طارت من عيوني ملامحك وتغوشت صورتك في ذهني فلا أستطيع لم شمل وجهك في حضن قلبي.

أين أنت يا أعظم مجنون في الدنيا، حي أم ميت؟

إذا كنت حياً، لماذا لا تبحث عني كل هذي السنين، من يسأل لا يتيه، اسأل.. اسأل بت عمك (جنه) المعلمة، هي تعرف أين أنا؟

ربما لا تعرفني حين تراني الآن بعدما لوححت وجهي الشمس وسموم رياح الصيف. كبرت عشرين سنة من قهر الفراق ووساوس روعي وقلق الخوف من عثور أهلي عليّ هنا.

تعال (خضر قد)، تعال بسرعة، أنا بانتظارك.

- ٣ -

اقترّب شبراً شبراً، ولحظة لحظة من ساعة الصفر، العالم برمته يحبس الأنفاس إلى خطواتي، ينتظر أضخم حدث في القرن العشرين. بدأ العد العكسي لأنفجار سري وأنا أتكيف مع الدشداشة الرمادية واليشماغ السومري مستعيناً بخزين تجاربي في المسرح. في البدء أعطوني دشداشة لونها جوزي فتطافر دمي مذعوراً، يتراكم من شريان لشريان في جسدي، يحاول الفرار عبر جميع منافذي. رفضت الدشداشة الجوزية متطيراً ودفعتها إليهم كأنها وباء قاتل، إذ مازلت مسكوناً بلعنة اللون الجوزي الذي قتل صديقي (صباح) وأحرق بيتنا وزجني في معتقلات الأمن العامة، لذلك تناوشت الدشداشة الرمادية دون تردد حتى وإن كانت طويلة أو قصيرة، عريضة أم ضيقة، لكل شيء حل إلا اللون الزيتوني واللون الجوزي.

كما تكيفت بسرعة مع مكاني الجديد في كوخ الناطور وسط أشجار متنوعة يحفها القصب والبردي، وتذكرت على الفور المثل الجائر الذي يسخر من عبث وطول الانتظار (ناطور خضرة). فهل ينطبق عليّ المثل الآن؟

طبعاً، تكيفت بهذه السرعة لخبرتي الميدانية والناسوتية في السجون والمعتقلات وفتح غريزة شهوة الحياة، التي ورثتها من أجدادي الرابضين في جسدي على شكل خلايا عبقرية تقاوم الفناء وتتحدى الانقراض. حيث وضعت نفسي أمام أخطر امتحان في الخلق: أما بقاء نوعي وسلالتي أو بقاء نوع وفصيلة شمامي الخراء أما إن تتوازن الطبيعة أو تختل بكوارث لا على البال ولا بالخاطر. وتكيفت بسرعة لأجل تنفيذ مشروع حياتي وتهينة نفسي لأكون فلاحاً هنا في هذه الأرض رغم أنني لم أفتح أي واحد من أقاربي.

لكنني لم أتكيف مع الشوارب، التي بدأت تتشكل وألمسها بأصابعي، فلدي تاريخ طويل من المقت والاحتقار للشوارب، لذلك انفجرت بصوت ملتهب أصيح وأنا داخل كوخ الناطور: ومن نكد الدنيا على الحر إن يرى عدواً له ما من صداقته بدّ.

أمسكت شعيرات من شواربي، نتفتها وبصقت عليها.

إن التغيير في ملابسي وشكلي جعلني مرتكباً متلبلاً وكأني شخص آخر غيري، ربما لأنه شكل مفروض عليّ، يعني هوية مزورة لغرض التمويه وخداع العيون التي قد تقرأ سري فأندثر شهيداً مجهولاً لا يعرف هويتي الحقيقية أحد. إن الشكل يعرقل الجوهر ويشوّهه إذا لم يكن الشكل ذاته هو الجوهر.

* * *

في بيت الناطور هذا تملصت من كرم أقربائي أبناء عم أبي لكي أبعدهم عن الأذى لو قبضوا عليّ، كما أردت الانفراد وحدي بعيداً عن الإشاعات والقييل والقال. أصفي ذهني وأحدد خطواتي بلا تهور وارتباك.

طلبت من أحد أبناء حمدان دفتراً وقلماً مع راديو صغير إن وجد، فلم اتخلص من عادة الكتابة حتى في أفتك الظروف وأخطرها، عندي حدس غامض بأهمية ما أكتب فأدخر أوراقني إلى شخص لا يوجد إلا في ذهني سيجيء.

شخص يبحث وينبش مثل المنقبين عن الآثار، ربما تنفعه هذه الوثائق حين يفكر بإعداد ملف ضخم عن الصراخ المدفون في أعماق النفس وفي أعماق الأرض، وربما سيرميها في أقرب مزبلة.

كتبت يوميات الحرب هذي، الحرب التي تزحزح كل شيء عن مكانه بزلزال في الأرض وزلزال في النفس. وها أنا أرتجف لا من البرد فقط بل من عفاريت المجهول، اختض وارتعد مع كل قصف ودوي، فالقنابل والصواريخ لا تنفجر في بغداد وباقي المدن وإنما هنا في داخل جسدي، أنا المقصوف والمحترق وها هو الدخان أحمر وأسود يتصاعد من خرائبي، لماذا

ورطنتي يا بطل البعث كولا، يا من (اسمك هز أمريكا) وأين الأشاوس، الذين هربوا حفاة عراة
وبنفس طويل واحد ركضاً من الكويت إلى بغداد والمدن الأخرى، باعوا بنادقهم بلفة فلافل؟
لماذا جذبت واستدرجت كل جيوش العالم لليبطشوا بي؟ لماذا كل هذا العداء الشخصي لي فلا
تبقي أثراً عزيزاً عليّ إلا ودمرته؟ ولكن أين ستقلت مني؟ هيهات هيهات إن تنجو يا مستر
(yes)، لن تقلت مني حتى لو قتلتنني وشبعت موتاً فسوف انبثق شبحاً لا مثيل له ولم تسمع
به البشرية، أزورك في مخبئك وأخرجك من وكر الجرذان، أجرك من بين عصابات حمايتك
وأنتزع حنجرتك التي لعلت بها سنين وسنين في شاشات التلفزيون والإذاعات والصحف،
سأنتزع حنجرتك وابصقها على وجوه شمامي الخراء أمزق وجهك كي تتمزق كل صورك التي
تغص بها المدن والشوارع مثل بلاعي الموس، ولا يكاد بيت يخلو منها مثل طوطم النعل.

أين اخفي أوراق اليوميات هذه التي يتصاعد منها الدخان، وأشم عطب الشواطئ المنبعث من
جسدي، رغم إن كل الأوراق هذه لا تغطي عورة واحدة من عورات الحرب.

آخ، تعبت من الكتابة، أركض وألهث فوق الورق طوال عمري لكنني سأدخل الآن إلى حلبة
الفعل العظيم حيث لا يزال دوي جبل قنديل يتبرعم في صدري، وبعد أيام تتفتح أزهاره
ويشممني العالم: أنت حر ووحيد، والحر لا يتبع الحر. لذلك أكتب باستعجال وعلى هيئة إشارات
وأنا أبحث عن يدني إلى منفذ إلى درب إلى وسيلة للوصول إلى بغداد.....

يامعود أنت مخبل عاقل... عرب وين بغداد وين... تعال هناك تعال اقترب بعد.. اقترب أكثر يا
(خضر قد) أريني أطلعني على خطتك بالتفاصيل الدقيقة والقبیحة.. لا تلف وتدور ولا تفر
بأذنيك.. قل لي كيف ستنفذ خطة الاغتيال؟ تعال، خليني أراك على سجيتك... أخ... ما هذا...
ماذا دهاك، أيباخ.. ماذا فعلت بك الحروب وخاصة هذه الايام؟ دعني ارى وجهك وقلبك وعقلك
-تلمست وجهي بذعر- ما هذا، ملامحك متصخرة، وجهك جلمود، هل تشعر بألم حين أقرصك؟
لا حياة تدب ببشرة وجهك، سحنتك منحوتة من الصخر، هل نحتت أزاميل الحروب وجهك؟ هل
تشعر بانطفاء عاطفي يستعصي وصفه منذ نشوب حرب (أم العيوره) هذي؟

ماذا أصابك يا خضر قد؟

استيقظ.. استيقظ، فز.. أصح وإلا تتحول إلى صخرة صماء لا تنضح من جوفها قطرة حب ولا
تستقبل وتتشرب قطرة حب... استيقظ اصح من شلل هذا الكابوس... استيقظ.. فز من هذا
الجيثوم.

وفعلاً رحلت أتحمس وألمس جسدي وخاصة وجهي فأيقنت اني متصخر مصاب بحالة الجمود،
ومقفل على شيء واحد فقط هو التخلص من رئيس شمامي الخراء. تصخرت فعلاً مثل جبل،
لقد صرت أنا جبل قنديل، وحيداً وحرّاً.

سمعت من يصيح باسمي من جوف الظلمة:

- خضر.. هنا.. هنا خضر قد.. أطلع خويه أطلع.

خرجت من الكوخ فرأيت (حنون الرفش) مع ثلاثة شباب من أقاربي، معهم فانوس ويحملون بنادق مع أكياس تبدو ثقيلة لا أعرف ما تحوي فخمنت انه فلم جديد من أفلام حياتي قد بدأ توأ، فهتمت منهم:

الليلة سيهجمون على بناية الأمن ومركز الشرطة ومقرات حزب البعث في قضاء قلعة صالح، بصحبة شباب من السلف مع بقية أسلاف المنطقة، ومنها ينطلقون إلى مركز مدينة العمارة.

وصلنا قبل الفجر فوجدنا إن هناك من سبقنا واحتل جميع الدوائر حيث الدخان كان أول من استقبلنا. فانطلقنا نتحرك من قضاء لقضاء ومن ناحية لناحية حتى مركز محافظة العمارة، فكننا دائماً مسبوقين بدخان يتلوى في الأفق.

كانت مهمتي التي بادرت اليها دون تكليف من احد هي تدمير ما تبقى من صور مهندس الخراب، التي أكتب بخط كبير وبلون أزرق على بقاياها: فطس الرئيس.

كما أصبغ وأطخ وأمحو شعارات الحزب ومقولات مشعل الحروب، لو لم يكن الوقت عصيباً ومناظر الدخان والنار والدم لانسدحت على ظهري من شدة الضحك فقد قرأت شعاراً جديداً فوق شعار الحزب المححو:

أمة عربية ناقصة... ذات رسالة راقصة.

حذرت حنون الرفش وأقربائي من وجود شمالي الخراء مع جموع الناس الثائرين، أنا أعرفهم وأشخصهم من بعيد فقد رأيت اصحاب تلك الوجوه المعوجة مندسين بين المنتفضين، لكن تحذيري ضاع مع بقية النصائح والتحذيرات بين أرجل الغضب والثأر من سنين الذل والحيث.

وتمر الأيام بسرعة خاطفة وأنا اسأل وأبحث عن طريق للوصول إلى بغداد خاصة وان مدن الوسط والجنوب قد فطس فيها الرئيس.

* *

المصيبة أم سبع رؤوس التي جعلت الناس ينفجرون غضباً وينتفضون هي بقاء بهضام حياً ورئيساً مع سبق الإصرار، بعد كل هذا الدمار والزلازل والفواجع، إن مجرد بقائه حياً ورئيساً هو كارثة أفزع من جميع كوارث الدنيا منذ الطوفان وحتى نشوب الحرب العالمية الرابعة. إن بقاءه يقول:

سوف أظل رئيساً رغم أنوفكم ورغم أنف السماوات والارض ورغم أنفك أنت بالذات يا(خضر قد). سوف أنتصر في كل الهزائم الباهرة، انتصرت في قادسياتي المجيدة ولم يهتز كرسيي، وانتصرت في (أم المعارك) الخالدة ولم يتزحزح كرسيي. وسوف أنتصر في كل حروبي العظيمة القادمة فلا أحد غيري يجلس على الكرسي. أنا خارج قبضة الموت، لا تنوشني صواريخ القدر، لأنني أنا الموت وأنا القدر فهل يموت الموت وهل يغتالون القدر؟ تعال

ياخضر قد إلى حضن الموت، تعال إلى لغم القدر، هل تأتي إلي أم أجيء إليك؟ سوف أعطف بقلبك لو أجبتي:

- قد -

* *

المفارقة الجائرة تتفرقع هنا في سرّي أنا، سرّي الذي دفنته في صدري العمر كله، سرّي الذي جعلته مثل رأس البصل من كثر ما غطيته بالقشور لأحميه من الفضح والكشف. ماذا لو كان معظم العراقيين يحملون سرّي ذاته، فهم حالما يضعون رؤوسهم فوق المخدة يفكرون ويحلمون بطريقة وبأخرى للخلاص من صانع الكوابيس (القائد الفذ)؟

إذا كان سرّي الدفين المفقول بألف قفل هكذا مشاعاً ومفضوحاً تلوكه الناس بين أسنان نواياهم، إذن هو مجرد (ضطره بسوك الصفاير). طبعاً، هذا عدا أسرار العسكريين والمتنفذين الذين يخططون لقتله واحتلال مكاته، وعا الشخصيات القريبة منه حتى زوجته وأبناؤه وكيف يحوكون كفته والفوز بالرناسة.

هل ان جميع من يسكن في العراق يحمل سرّي؟

لا.. لا، مستحيل أن يفلت مصيره إلى يد غيري، لأنني حاضن جميع أسرار الحشود المنطوية على نية قتله، تصب كل روافد الأسرار هذه هنا عندي في سرّي، ولأنني مصمم بكل جوارحي وها قد نضجت تفاحة حنجرته وهي تجتذب لعاب أسناني، وأسناني تجرني صوب بغداد.

* *

بقيت بعيداً عن الانصهار والذوبان مع أمواج الحشود الثائرة برغم حاجتي إليهم وحاجتهم إلي، أضمت قبضتي بقوة على مصيري الخاص والمتفرد وعلى استقلاليته وحرיתי لا أحشر نفسي مع أية فئة أو كتلة. كنت دائماً وحدي وسأبقى أبداً وحدي حتى لو ركضت مع الحشود. أتملص من دبق (حشر مع الناس عيد) وأقف بعيداً ومنزويماً أراقب نفسي، أقلب موقعي أين يجب أن أكون وأي الخيارات متاحة أمامي، وكيف أحدد فعل ذاتي المتحقق وهل يتجسد فعلاً معنى وجودي.

هكذا كنت أفكر وأنا جالس في أحد البيوت الفارغة ليس ببعيد عن مركز مدينة العمارة، ثم أتمد على ظهري فوق سجادة تشبه تلك التي تحبها أمي تحت نضدة الفراش. أدخن سجائر (لف) وذهنني يتقافز من موضوع لآخر دون تدخل مني، مرة أتسكع في الشوارع الصاخبة والضاجة ثم أنعطف إلى زقاق ذاتي ومحنة وجودي، الذي فرطت به بسبب شخص تافه اسمه (بهضام) ولم أنجز أي شيء لنفسي ولم أضع طابوقة واحدة في مشروع مستقبلي وحياتي، بل

صار حاضر الواقع ينقذ للوراء مئات السنين، ويتراكم المستقبل برمته أسرع من الضوء إلى الماضي المظلم السحيق حيث أكلة لحوم البشر.

ثم يخرج ذهني إلى غابة أهلي الذين أشم عطرهم في هذا البيت حيث تذكرني السجادة بنقوشها وخطوطها بأبي وأختي وسلامه وأصدقائي وقطاع (٣٣) ومدينة الثورة وبغداد. ويتسلل ذهني راجعاً إلى هنا والآن، أدخن سجائر لف فوق السجادة وأفكر بالطبيعة، فقد مررت بأماكن ومناطق كثيرة في أنحاء مدينة العمارة، ورأيت كيف ان الحياة منشغلة بترميم نفسها وتضميد جراحها غير مكترثة بالحرب، هذه الماكنة التي تخرب والحياة تعيد نسيج ما تمزق واحترق وتلف.

رأيت صفحات الهور بيضاء بورد (زهير البط) كأنه يعاند ويناكد قبج الحرب ويسخر من عبقرية (الغد) في صنع وابتكار الكوارث. رأيت طيوراً لا أعرف أسماءها تغسل ريشها من المطر الأسود الذي سخم كل شيء بعدما أحرق (الغد) آبار النفط في الكويت، رأيت الطيور تفيق من الصدمة وتنفض ريشها من الذهول وهي تصدح متسائلة عن بقي حياً ومن مات ومن هاجر قبل أوانه هرباً من حروب (الزعاطيط).

نحن البشر أبناء عقوق و صلف واستهتار، لم نحترم أمانا الطبيعة قط بل آديناها بفضاعة مشيئة واحتقرناها أقذع احتقار. والآن قد نفذ صبرها ولم تعد تحتل إمعاننا بالأذى، وسوف تصفنا أشد الصفعات، كل واحدة منها تدير رؤوسنا وتبقى تطن بها آذاننا، صفعات لا يمكن تخيلها والتنبؤ بها ولا تخطر على بال أحد، صفعات تفضح غباءنا و...

سمعت صوت حنون الرفش:

- يا الله.. يا الله.. نايم كاعدا؟ السلام عليكم...

صافحته وجلسنا فبادرني على الفور مستعجلاً وبدون مقدمات:

- البعثية هجموا علينا... أخذوا الحلة وقصفوا كربلاء والنجف.

**

طغنتني في ظهري هذه الأخبار وانفرت قلبي. استعدتُ بعض أنفاسي وبعضاً من شتات نفسي وقلت لحنون الرفش موضحاً، بأننا أمام خيارين: أما أن نبقى هنا نقاوم ونموت واحداً تلو الآخر، وأما نهرب ونحافظ على ماتبقى منا. طبعاً، أنا لا أهرب فقد شبتت وأتخمت من الهروب لكنني لا أفرط بروحي وأموت بأول رصاصة. انفجر حنون يسب ويشتم نفسه وأطفاله وأهله والعراق بإنفعال واحتقان وسخط لم أتوقعه:

- الأطفال جبن.. الأطفال ذل.

تركني وخرج ملتهباً يتصاعد منه دخان السباب والشتائم.

أنا لم أخف ولن أخشى من بطش أي جيش عدو مثلما أرتعب وأخاف من جيشنا خاصة ألوية الحرس الجمهوري ورفاق الجيش الشعبي، كل جيوش العالم قد ترحم وقد لاتستفيد من قتل

المدنيين إلا جيشنا العقائدي الراضع من ثدي البعث، الجيش الذي رأيتَه يقصف المدن الإيرانية بصواريخ أرض - أرض، إذ لا يزال إيقاع لطم النساء يجول في صدري، يشبهن نسوان مدينة العمارة والثورة، جالسات فوق ركام بيوتهن بين الجثث والدخان والحرائق، يلطمن على صدورهن بخفوت وألم لا يطاق، وبرنة حزن غائر عميق، يلطمن: بهضام اسمك هزّ أمريكا.

وحين غزا الكويت واستباح حتى البنات الصغيرات بشكل يخجل عن ذكره أكثر الكويتيين جرأة. فانكسر هذا الجيش العقائدي أخزى إنكسار في حرب (أم العيوره) وانهزموا ركضاً حفاة عراة يبيعون بنادقهم بـ (دشداشة مرقعة).

ورغم كل جبروت الخزي والجبن سوف يستبسل هذا الجيش الآن لقتل أهله وشعبه فأنا أعرف هذا الجيش مثلما أعرف قائدهم ورمزهم المفدى حين يقهقه مكشراً ويهزّ كتفيه، أمسك قلبي متطيراً لأن وراء القهقهة وهزّ الأكتاف مصيبة عمياء تتلمس الطريق إلينا. لذلك أتخيل هذا الجيش كيف سيستخدم سلاح هزيمته الشائنة هذه الأيام في إحراق مدن وقرى كردستان وسوف يتقدم إلى المدن الجنوبية ويدوس بسطاله جمار النخيل ويدوس قلبي. أعرف هذا الجيش كما أعرف السحنة العوجاء لقادتهم من الضباط شمامي الخراء وكيف سيتفنون بأساليب التنكيل والقمع للمنتفضين وكيف سيدفنونهم مثل سرّ متورم في خاصرة العراق.

* *

وفعلاً كما تخيلت وتوقعت وأكثر، إذ بدأ يقصف البيوت في مدينة العمارة بالمدفعية والصواريخ والراجمات والطائرات السمتية، رأيت أضخم هجرة بشرية تسيل متدفقة على شكل موجات موجات من الرجال والنساء والأطفال حتى العجائز والشيوخ تتبعهم كلاب وخراف وماعز وابقار وثيران وجواميس. بين خطوة وأخرى يلتفتون للوراء كأنهم نسوا شيئاً عزيزاً، لا... لا... ليست بيوتهم التي عافوها وهي تندب سنين العمر المنساح على الأرض ولا صدق ذكرياتهم المعششة في الزوايا ولا ميراث آبائهم وأجدادهم الفقراء، ليست أفرشتهم وملابسهم ولا أحب وأقرب الأشياء إلى روحهم والتي خبئوها بعيداً عن العيون وعت الزمن. لا.. لا.. شيء أعز وأهم، شيء له قيمة فوق كنوز الدنيا كلها، لكنهم لا يعرفون ما هو بالتحديد، شيء لا يوصف وليس له اسم، فهل نسوا أنفسهم وخرجت ملابسهم لوحدها فقط، ملابس خالية من الجسد والروح، ملابس لوحدها تهرب وتهاجر تلبسها أشباحهم المتلفتة نحوهم في كل خطوة؟

لم أحزر بالضبط لماذا يتلفتون هكذا بجزع وغموض لا يطاقان. هل يخافون ان تطاردهم وحوش الجيش؟

رأيتهم يتدفقون بسيل أخرس وأشعث صوب الحدود الإيرانية. جميعهم يعرفون ماذا سيحل بهم لو بقوا، كما ان المعركة غير متكافئة: فكيف يدافع عن نفسه طفل صغير أمام قطيع ضباع بعثية؟

كنتُ غشيماً بحيل القتال والأعيب الحروب لكنني أدركت ان كل سقف خطر وكل جدار خطر كما هو الحال في الهزات الأرضية، إذن لابد من اللجوء إلى البر. أي بر يا (خضر قد)، أي بر وأنت مكشوف تحت الطائرات السميتية الزيتونية؟

بقيت في مكاني فوق السجادة في ذلك البيت الفارغ وليحدث ما يحدث، فلتمطر عليّ قنابل وأشوى بالصواريخ، فلتنهل عليّ السقوف والجدران، بأي موت أرضاً وأقبل، أي قتل شنيع لا يهمني، ماعدا شيء واحد فقط يرعيني: أن أقع بين أيديهم.. ان يمسوني حياً وابصر سحتهم المكشورة وهي تحتفي بصيدي... وأرى شواربهم ترتعش وهم يتشممون دمي، وعيونهم تتوعدني بألف منية ومنية.

كنت غشيماً بحيث لم أتوقع أن يداهمونا بمثل هذه السرعة ولولا (حنون الرفش) وأقربائي أبناء حمدان الثلاثة، الذين لم ينسوني هنا وأنا أفكر بطريقة للوصول إلى بغداد بعدما صارت الآن خامسة المستحيلات، لا يستطيع دخولها والتسلل إليها حتى العصفور.

دخلوا يلهثون بوجوه صفراء ممتعة ومنمشة بحبات عرق مغيرة، كل واحد منهم يبدو وكأنه قد استفرغ أحشائه بأشكال مختلفة، كأن واحد منهم تقياً تواءاً طعام الموت ومازال يهوع ليقيء روحه وقلبه، وكل واحد منهم صاح بكلمة خاصة به:

- يله.. يله.. الدنيا صارت خرم إبرة..

- البعثية.. كوم يزيد وصلو للشوارع....

- جثث النسوان والرضع مشمرة بكل مكان...

- وين انروح.. وين انولي.. انضم ارواحنا بشيشه...

صعدنا فوق السطح والرصاص يلعلع ويتقرب، تهتز أسطح البيوت تحتنا من شدة الانفجارات هنا وهناك، ونحن نعبر مهرولين بظهور محنية من سطح لسطح. نترامض من شارع لشارع حتى دخلنا أكمة قصب، نتطلع حولنا إلى الجهات كلها. التقطنا أنفاسنا خانسين نفح من التعب والخوف. هذه الأكمة مخبأ أغبياء ومن ترعبل وفقد السيطرة على نفسه لأنها تشي بنفسها وتدل المطاردين إلينا، حتى الحيوانات بغريزتها لا تختبئ فيها.

ركضنا صوب محلة مجاورة ودخلنا شوارعها نلوذ بالحيطان وزوايا الأبواب فلمحتنا سيارة (بيك أب) بيضاء تحمل مدفع رشاش أحادي، كانت تنطلق بسرعة جنونية وحين استدارت نحونا ترنحت وانقلبت. ركضنا إلى شارع آخر مكشوفين غير عابئين برشقات الرصاص، لكننا توقفنا عند طوف طين نحتمي به، توقفنا لأننا بقينا ثلاثة فقط. سمعنا إطلاق رصاص كثيف وقريب جداً فهمس ابن حمدان الوحيد الذي بقي معنا بصوت مرتجف يطمئننا بأن أخويه ذهبوا للسيارة المقلوبة ليجهزوا على من فيها.

إنسل (حنون الرفش) داخل أحد الأبواب المفتوحة وتبعناه، سعدنا للسطح فرأينا السيارة البيضاء ملطخة بالدم وخمس جثث ببذلات زيتونية ويشامغ حمر، ولا أثر لأبني حمدان. مشينا فوق السطوح دون إحناء ظهورنا وبلا هرولة. واحسست بأننا قد عبرنا منطقة الخوف على أنفسنا، تساوت عندنا قيمة الحياة وقيمة الموت، فالذي يعيش في قلب الخطر يسقط منه العقل ويقوده شيء ما خارجه. أنا يلغني التشوش والدوار لا أشعر بدفق الحياة ولا بشراسة وحوش الموت، كأنني خارج نفسي وخارج الدنيا لا أرتعب من أي مصير، أركض.. أختل.. أنبطح.. أجلس.. أنزوي، أنفذ حرفياً ما تمليه علي شروط اللحظة. تسوقني عربة اللحظة بلا تفكير، أنقاد مخدراً سكران حتى الثمالة باللاشيء. أنا سجين اللحظة ولا أعرف متى أتحرق منها. حيرني أمر غريب ونحن نتقافز فوق السطوح ونعبر الشوارع ندخل بيوتاً، أين الناس.. أين أهالي المحلة هذه والمحلة تلك.. أين أصحاب البيوت، هل فروا جميعهم حتى المرضى والمعوقين والكهول المقعدين أم قتلوا جميعهم؟ لم أصادف طفلاً ولا شيخاً.. أين ذهبوا؟ حتماً ان البيوت لم تكن جميعها خالية، ربما جمدهم الرعب وخنسوا فلا يسمع حتى صوت تنفسهم.

رشقتنا صلية رصاص ونحن فوق سطح آخر بيت من تقاطع الأزقة، تطافرنا كل واحد إلى جهة. وجدت نفسي منبطحاً قرب درج أحد البيوت، رفعت رأسي جالساً ونزلت على مؤخرتي - لأول مرة أكتشف أنني كنت حافياً لكن يشماغي لم يسقط من رأسي - نزلت ببطء وهدوء درجة درجة، واجهني المطبخ خرباً ومبعثراً تتكدس الأواني والقدر والصحون وطاوتين سوداوين مع أدوات أخرى بعضاً فوق بعض تملأ أرض المطبخ وخارج الباب. دخلت غرفة سقط سقفها فوق محمل الفراش ودولاب زجاج متهشم مع محتوياته مندلقاً على الأرض، ودفتراً مدرسياً ينكفي على أوراقه من الوسط. رفعته ونفضته فرأيت كفاً بشرية مفتوحة كأنها تستجدي الرحمة.

أزحت ركاب الطابوق والجص والافرشة وزحزحت المحمل، كان هناك رجل تجاوز الأربعين بدشداشة بيضاء ملطخة بالدماء. سحبته قرب الدرج وتلمست رأسه وصدرة ورقبته، لا أعرف من أين كان ينزف لأن الدماء لطخته بالكامل حتى رأسه. وضعت أذني على قلبه فلم أسمع خفقة ولا نبضاً. أعتقد أنه مات قبل لحظات إذ ماتزال حرارة جسده كما لو أنه حي.

كم سأحترم نفسي لو أنني أدركته وانقذته من الموت؟

**

ها أنا وحيد من جديد لا أعرف أين أنا، ولا أي جهة أهرب إليها؟ تطافرنا وافترقنا، هل أصعد فوق السطح وأنادي على حنون الرفش وابن حمدان وأفضح مكاني فتنقض عليّ كلاب الصيد؟ تذكرت أن حنون كان يركض للأمام ونحن نجتاز الأزقة والبيوت، هذا يعني أننا كلما تقدمنا للأمام نبتعد عن الخطر. لا بد ان أخرج خاصة وأنا أعزل ووحيد، صيد سهل ورخيص.

أصدقائي كانوا مسلحين ماعداي فقد نسيت البندقية في ذلك البيت الفارغ فوق السجادة، لأنني لست معتاداً على حمل السلاح ولا رغبة لي بحمله. لذا عليّ التحرك بسرعة، أنا هنا صيد سهل ورخيص.

لاحظت ان دشداشتي الرمادية قد تلطخت بالدم وممزقة الأذيال وعند الكتفين. خلعتها وغطيت بها الرجل الميت، ورحت أنبش في كوم الملابس عن دشداشة كيفما تكون لأستر عريي، فهل أركض في الشوارع وفوق السطوح بلباسي الداخلي؟

لم أعر على أية دشداشة في جميع زوايا غرف البيت بعدما نبشت كوم الملابس إلا دشداشة جوزية واحدة وعلى مقاسي بالضبط. هل أخرج عارياً أم أبتلع موس القدر الجوزي وألبسها؟

لا وقت للخيارات والتفكير وليكن مايمكن، ألبسها يا(خضر قد) فهذا اللون أهون من اللون الزيتوني.

* *

كل شيء ميت والرصاص وحده الحي، ولم ينقطع عن الخطب النارية من سبطانة فم الرئيس النووي طوال (٢٣) سنة. قتل كل اللغات بلغة الرصاص، يتحاور البعث مع أصدقائه وأعدائه بلغة الرصاص.

سرت عدوى هذه اللغة إلى الناس وتربى الأطفال على لغة الرصاص خاصة في المدارس كل يوم خميس، وحتى لعبة كرة القدم البعيدة عن وحل السياسة لم تسلم من لغة الرصاص، إذ تحترق السماء وتمتلئ المستشفيات بالضحايا لأن الفريق العراقي فاز في المباريات.

وأنا قضيت عمري خائفاً هارياً يتشممني دائماً بوز مسدس. وهاهي الكلاب الزيتونية تنبح بلغة الرصاص، تتشمم رائحتي من مكان لمكان، تقتفي وتتبع أثر لغة عنودة، خالية من رائحة البارود لا تستلم للموت والإنقراض.

* *

خرجت أتختل جنب ستارة أسطح البيوت، ثم نزلت للشوارع اركض للأمام لعني أصادف حنون الرفش أو أحد ابناء حمدان، أعزل ووحيداً أجوب مدينة مهجورة يلعب فيها الرصاص وترتج بانفجارات القنابل والصواريخ.

لمحت مدرعة بلونها الزيتوني تتقدم باتجاهي. جفلت ومرقت بسرعة خاطفة إلى باب مفتوح. كان الدار خالياً أيضاً، صعدت إلى سطحه زحفاً أتتصت الى صوت المدرعة وأنظر من خلال ثقوب الطابوق إلى الشارع. لا أعتقد أنهم شاهدوني، أغمضت عيني وتنفست بعمق أترد هواء الخوف الفاسد من صدري. زحفت إلى الدرج ونزلت داخل الدار. لم أمر بيوم طوال عمري كله مثل هذا اليوم، إنه (٢٤) سنة لا ساعة، حتى ان الليل صار بعيداً ولن يأتي لكي

أهرب تحت عباءته ويهرب من بقي هنا محاصراً. رحت أنظر من خلال الشبابيك إلى الشارع من عدة زوايا، بدا مقفراً هامداً واصوات الرصاص تخبو وتناى مبتعدة. سمعت صوتاً رفيعاً متقطعاً يدبّ إلى أذني، مددت عنقي أصغي إلى مصدره، أنصت إليه وأقترب مغمضاً عيني حتى دنوت من أحد الشبابيك قرب باب الدار. فتحت الشباك ببطء كيلا يصدر نعيماً أو ماشابه، وفتحت عيني إلى مصدر الصوت. ركزت نظري إلى أعماق باب مفتوح أمامي في البيت الذي يواجهني فالصوت يصدر منه.

خطف أمام عيني طفل رضيع يزحف في عمق البيت واختفى بسرعة مثلما ظهر بسرعة، لكن الصوت الرفيع الواهن لم ينقطع. هل أتخيل هذا المنظر أم أن هلوسة نظر أصابت عيني؟

بقيت أراقب عمق مدخل البيت فخطف الطفل يزحف وصوت صراخه الواهن الرفيع المتقطع يملأ أذني. إنه حقيقة وليس وهماً ولا هلوسة، ولكن، أيعقل أن يترك أب وأم طفلهم الرضيع ويهربوا، مستحيل، هل مات جميع من في البيت وبقي هذا الرضيع لوحده. هذا الطفل لغز محير..

أيباخ... تف على كل العالم.. تف على كل البشرية... صوته رفيع وواهن ومتقطع هكذا لأنه يصرخ منذ الصباح وحتى الآن، يصرخ طوال (٢٤) سنة في هذا اليوم الدهر. ولم يسكته أحد، ولا شاله أحد لأنهم ميتون منذ الصباح، وهو يجوب البيت يزحف إليهم فرداً فرداً يحاول إيقاظهم.. يندهم واحداً تلو الآخر، الطفل الرضيع يحسبهم نائمين فيصرخ على إهمالهم له.. على اللامبالاة.. وعلى نومهم الطويل هذا.

لم يكف ولم ييأس لحد الآن من الندى فلا بد أن يستيقظوا مهما طال نومتهم.

اندفعت للخارج نحو الطفل دون تفكير وبلا احتراز غير عابئ بخطر بحيث لم أر شيئاً ولم اسمع شيئاً، وقبل أن أضع قدمي على عتبة باب البيت المقابل الذي يصرخ فيه الرضيع انسحبت بقوة إلى الخلف، وسقطت على الأرض وكان آخر ما رأيته من بين أرجل الشوارب والبدلات الزيتونية واليشامغ الحمر:

رفع أحدهم الطفل الرضيع من إحدى قدميه، خرج به للشارع، رفعه عالياً بحركة شخص محترف ولطشه بقوة وعنف على الحائط فتناثر الدم والمخ على إسمنت الحائط الرمادي القاتم، ملتصقاً ينزل ببطء للأسفل نحو الأرض.

آخر عنقود السلالة

استفاق (خضر قد) من إغماءته على ضجيج صاخب يندلع من جسده خاصة في منطقة الصدر حيث تكسرت خمسة أضلاع من قوة ركل البساطيل. كانت يده اليسرى قد تورمت أثر كسر عظم العضد وعظم الساعد، عندما انهالت عليه العصي والكييلات تفت عظامه، وهو لا يعرف أين يلوذ وكيف يتفادى سرعتها. وشجت رأسه ضربة (بوري) حديد، هي التي أسقطته مغمياً عليه إذ لا يقدر الآن على فتح عينيه بعدما تجمد الدم فوقها. ربما لا يستطيع أن يتذكر قطار

الرمد وهو بهذه الحال، عندما يشيله أخوه الكبير (مكي) ويركض به إلى سكة القطار لكي يفتح عينيه بصعوبة وهو يزيح طبقات القذى حالما يعوي القطار ويرجّ الأرض بجلجلته. كما تضج عليه رجلاه وظهره وكتفاه وإحدى كليتيه التي توقفت نهائياً عن العمل بفرسة بسطال خبيرة.

جسده برمته ينوح بالأم تتصاعد تدريجياً كلما يصحو وينتبه الى نفسه، فلم يبق منه سوى اللمسة الأخيرة ويموت، رصاصة الرحمة كما يقولون.

يسمع (خضر قد) من حوله صراخاً أجش ينفلت من بئر عميقة، ويسمع عياط من تسحق عظامه بمطرقة حديدية، ويسمع تصاعد أنين إلى ذروة السماء مع أنين نازل إلى أعماق العالم السفلي. ويسمع شخيراً حاداً متقطعاً كمن يركض.. يطارد أنفاسه المنسلة.. المتملصة من منخرية فيلحق ويمسك بأخر شهيق هارب، وهكذا يشخر.. يستمر بالعيش في الرمق الأخير دائماً.

لم يصدق (خضر قد) انه وسط مجزرة أحياء، كل واحد منهم يتلوى ويصك أسنانه على وجع يتفجر برؤوس كثيرة.

لم يصدق، لذلك أغمض عينيه اللتين لا يستطيع فتحهما أصلاً إنما أغمضهما ليسد أذنيه وينام حتى يتخلص من هذا الكابوس.

* *

في أول ساعات الصباح دخلت عليه الشوارب والبدرات الزيتونية واليشامغ الحمر، دخلوا بهجوم ضارٍ وأهازيج احتفالية تتغنى بالنصر المبين على شكل سباب وشتائم قطرية وقومية. يضربونهم بالعصي ويرفسونهم ليقفوا على أقدامهم، يخرجون إلى ساحة مدرسة ومن لم يستطع الوقوف يسحلونه للخارج.

نهض (خضر قد) واقفاً بكل ما تبقى لديه من روح وبالكاد فتح عينيه ليتفادى أية ضربة قد يعجز بعدها عن النهوض، حيث تظل هناك دائماً شعرة أمل بالنجاة من هذا الجيثوم. فرّ حين سمع رصاصات الرحمة لمن بقي نائماً دون حراك.

عدد المعتقلين في الساحة يتعدى المئتين، يترنحون وقوفاً وبعضهم متكوم فوق الأرض المصبوبة بالأسمنت.

دخل للساحة شخص بملايس مدنية وشوارب (٨ شباط) تتبعه حاشية مدججة بكل أنواع الأسلحة الخفيفة والشوارب الثقيلة، راح ينتقي بعضاً من المعتقلين وهو يربت على أكتافهم فتسوقهم حاشيته أمام صفوف المعتقلين حتى وصل ((خضر قد)، فقال:

- لا... هذا أصلع... ما تفيدنا كرعوتو.

أكمل عدد اللذين انتقاهم عشرة. رصّوهم بصف واحد، كتفاً لصق كتف وانسحبت الحاشية فاستدار إليها كمن يتراهن على شيء سيحدث، ثم توجه صوب أول معتقل في الصف، وبسرعة أبطال أفلام الكاوبوي، سحب مسدسه وأطلق رصاصة واحدة في صدغه، سقط تبعه الثاني والثالث والرابع والخامس، وبقية المعتقلين الخمسة يرتجفون مثل السعف من الوهن والخوار ومن المراهنة على البصيص المتبقي من حياتهم. أرجعوهم دفعاً وب (الجلاليق) إلى صفوف المعتقلين.

امتد زمن وقوفهم حتى منتصف النهار وخرّ البعض متكوماً على الأرض، منهم من استنزه الرفس ونهض ينود يميناً ويساراً لا يقوى على الثبات أبداً. ومنهم من ظل غائباً لا يهمله الرفس أو لسع الكيبيلات.

فجأة تدرج رأس مقطوع واستقر أمام (خضر قد) . كانت عينا هذا الرأس ترمشان وشفثاه تتحركان دون صوت. استقرت عينا الرأس المقطوع بعيني (خضر قد)، تتوسل به إن لا يدير وجهه عنه وأن يقرأ نظرتة الأخيرة، فالرأس أدرك انفصاله عن الجسد واكتشف فضاة غربته حتى كفت عيناه عن الرمش وانفجرت شفثاه ببطء لا يُرى ويلاحظ. استقرت عينا الرأس المذبوح على صورة (خضر قد) جامدة في بؤبؤها، محفوظة في أرشيف التراب إلى الأبد.

* *

توقفت أمام المدرسة التي صارت معتقلاً سيارتا حمل كبيرتان. نظموا المعتقلين في صف طابور طويل باتجاه باب المدرسة، أوثقوهم واحداً تلو الآخر بوضع اليدين إلى الخلف وتقييد المعصم بشريط بلاستيكي، ويخرجونهم صوب السيارتين حيث يقف شخصان ضخمان بملابس سوداء، بنطلون و (تي شيرت) نصف ردن، يتموج فوق زند أحدهما وشم أخضر لنجمة ثمانية وحبّة وشم خضراء في أنبئة أنفه، ويمتلئ وجه الآخر بنمش أحمر، كانا يرفعان المعتقل مثل كيس زبالة ويرمي داخل شاصي السيارة. وصل الدور إلى (خضر قد) الذي وشلت قواه وغامت الدنيا بعينيه، يغيب يغيب.. يبتعد يبتعد ويغوص وعند حافة الانهيار ينتبه ويصحو، وحين عكفوا يديه للوراء عضّ بأسنانه على صرخة هائلة كادت تفلت وتنطلق، فقد انبثقت عظامه المكسورة من لحم زنده ولحم ساعده، وشقت الجلد إلى الخارج. لفوا شريط البلاستيك على معصميه الوارمتين وسالت دمعتان فوق الدم المتجمد على وجنتيه. داهمه برد يكشط العظام لا يشبه البرد اللذيذ القارص فوق جبل قنديل وهو يرمي ببيريته عندما كانت تصوره منات الكاميرات السينمائية، وهو يتفايض عافية بدفق شلالات:

- أنت حر ووحيد، والحرّ لا يتبع الحر.

ألقوه مقدوفاً فوق أجساد المعتقلين داخل الشاصي فتفجرت الآلام مثل أطفال يتصارخون في مجزرة جسده، كلهم يتصارخون فإلى من يلتفت وهو بهذه الحال على وشك الانطفاء، ينوس بقطرة ضوء واحدة، تخفت وتشتعل من جديد بين كل شهيق وزفير.

تحركت السيارة ولا يعرف (خضر قد) إلى أي محطة من حياته ستقوده، ولا يستطيع التنبؤ إلى أين هم ذاهبون.

* *

لم تنفع توسلات (سلامه) بالخروج في قطيع الخراف والماعز للرعي بحماية الكلب (حمور)، الذي تكتشف فيه كل يوم ميزة تدهشها فيكبر في نظرها ويتحول تدريجياً من مجرد كلب إلى كائن عجيب لا يرتقي إليه بعض الذين تعرفهم من البشر. اكتشفت انه يعرف الحب ويدرك نوع الناس المبتلين بجنون الحب، ويحاول لعق جراح الحب بمختلف الحركات والأصوات، كما انه رفيف الحس، والحذر يشنف أذنيه ويلتقط ما يدور حوله من هسيس واصوات غامضة لكن عمته حرمتها هذه الأيام متعة التنزه والتجوال برعي القطيع واكتشاف المزيد من ذكاء (حمور) وفطنته.

وأعس ما في هذا الحرمان انقطاع مناجاتها اليومية إلى حبيبها (خضر قد)، فهي لا تدع نسمة ريح تمضي دون رسالة إلى وليفها الغائب البعيد، ولا غيمة مسافرة دون إن تبت إليها أبخرة لوعتها وشوقها لعلها تمطر فوق رأس (خضر قد) فيشم عطر الحب، الذي راح يتعاضم سنة بعد سنة، كما تحمّل الطيور وصية اللقاء لأنها على وشك الخبل من الوحشة من الغربية ومن ضراوة طول الأمل باللقاء واحتضان حبيبها إلى الأبد حتى آخر شهقة في الدنيا.

العمة (ليلوه) ركبت رأسها ولم يلبس قلبها لكل توسلات سلامه، فهذه الأيام مشؤومة ورائحة الدم في كل مكان. (ليلوه) لا تغفل عما يحدث الآن، وهي تسمع لعلعة الرصاص من بعيد، وتسمع أصوات الانفجارات وهروب الناس، فحسبت لكل طارئ ولكل عدو، تحصن نفسها من العالم الغادر منذ أمد بعيد، فهناك تحت أكوام (المطال) بين كوخها وحظيرة حيواناتها بئر سري لا يعلم به أحد حتى (سلامه)، التي لا تعرف من الدنيا وبلاياها شيئاً، ولا تدري ولا تحذر مما يجري ويدور حولها (بت غشيمة.. تربات مدينة) لكنها اليوم كسرت قلبها فقد توسلت بها حدّ البكاء. انفطرت صلابتها وتراخت قسوتها لذلك أوصتها قبل إن تخرج بالقطيع و(حمور):

أن لا تذهب بعيداً، وأن تعود بسرعة، وإذا سمعت أي حسحسة أو حركة مريبة ترجع ركضاً.

فرحت (سلامه) وحمور يتقافز أمامها. خرجت إلى البرية لتوزيع رسائلها إلى الريح والغيوم والطيور، كلها تندب (خضر قد) للقاء.

* *

اجتازت أربع سيارات مدينة (الكلاء)، اثنان نوع (بيك آب) تحمل مدفع رشاش أحادي ومسلحين يرتدون البدلات الزيتونية ويشامخ حمر، واحدة تسير في المقدمة والثانية في المؤخرة. وسيارتان كبيرتان للحمل نوع شاصي قلاب، تسيران في الوسط، عجلاتها تدوس أعشاباً لامعة الخضرة من كل جنس وفصيولة غمرت الأرض، تفوح بروائح أفعمت الهواء

وعطرت الجو، مختلطة متداخلة مع بعضها البعض في ملحمة شذى تسكر الآفاق. عشب يتماوج تحت شمس ناصعة الشعاع في سماء شذرية الزرقة.

توقف رتل السيارات الأربع أمام حفرة كبيرة وعميقة، يربض بجوارها بلدوزر ضخم وتل تراب رطب. استدارت سيارتا الحمل ترجع للوراء وصلت حافة الحفرة وأفرغت حمولتها، تقلبه في جوف الحفرة ببطء ميكانيكي، صاحبه اندلاق صرخات واهنة وارتطام مكتوم، امتصته الأرض.

حدث أمر اريك المسلحين الواقفين على حافة الحفرة، وأشار واحد منهم بسبابته إلى قطيع صغير من الخراف والماعز، ينبج عليه كلب يحثه ويستعجله للعدو السريع، وفلاحة تركض أمام القطيع.

انطلق اثنان من المسلحين إلى ذلك المكان ورجعا بسرعة، يسحلان الفلاحة وهي تتملص من أيديهم وتصرخ. بقي الكلب حائراً، مرة يعدو نحو الفلاحة ومرة يرجع للقطيع. استمر الكلب على هذه الحال يركض هنا وينسحب إلى هناك، لكنه حين رآهم يقيدون يديها وقدميها بخرق سوداء شقوها من عباؤها، حملها واحد من يديها واخر من قدميها ورموها داخل الحفرة عوى، عوى الكلب كأنه مضروب بعمود من حديد، واستدار متجهاً إلى القطيع، يعدو ويتلفت حتى غاب بين الأحرش.

رأت (سلامه) نفسها تسقط فوق رجل أصلع كث الشوارب مدمى، يرتدي دشداشة لونها جوزي ممزقة وملطخة بالدماء. استفاق وفز مقطوع النفس لا يقوى على الصراخ، توهمت انه فز من الموت، وهي مشدوهة، متلعثمة، فزعة، طاش عقلها فلم تفهم أي شيء: من هؤلاء المتكومين بعضهم فوق بعض، وكيف صاروا هكذا أنقاضاً بشرية، ولماذا هم هنا داخل الحفرة الكبيرة، وأنا لماذا معهم؟

* *

تسللت رائحة الأرض إلى منخري (خضر قد) مع خليط روائح تتدفق عليه موجات موجات: فرأى نفسه يجر تابوتاً في جو مسعور، تبعثره الريح الحمراء إلى جميع الجهات، وذرات رمل وغبار تسفع وجهه، ينخلع غطاء التابوت وتدفعه الريح المجنونة، فتطايرت من داخل التابوت آلاف الأوراق، تحلق في الفضاء، ركض وراءها ولم يلحق أية ورقة محلقة إلا واحدة ضربت وجهه فأمسكها، عاينها وقرأ ما كتب عليها بخط كبير ملتو: كنت مع ليس وحدي. ارتخت يده وتملصت الورقة بفعل دفعات الريح، تحلق مرفرفة مع بقية الأوراق. أمسكته (سلامه) بقوة من كفه ودخلا أزقة بيوت الشناشيل أيام كهمانة والأربعين حرامي، يلجان في زحمة سوق احتفالي، يعترضهما تاجر عبيد وجوار له ملامح الرفيق (موحان)، يهمس في أذن (خضر قد):

- تراوس... هذه الجارية وأعطيك هذا.

اخرج من سلة خوص رأس (أوميد) يكتم ضحكة محبوسة على وشك الانفجار. يهربان بين خليط الناس المتسوقين والحيوانات والطيور فتغلقت من قبضته كف (سلامه) وتضيع وسط

أخطبوط الزحام. يتعثر ويسقط من قمة جبل قنديل على بطنه منزلقاً فوق الجليد، يصادف أمه بثيابها السود تندف قطن الثلج بـ (مردى) المشحوف زيطه، لمحته منقذفاً يتزلق فطارت من عينيها أسراب غرائق تواكب انحداره السريع على بطنه. صادف جمهوراً طامساً بالثلج لحد الفخذين، يقفون عن يمينه ويساره يلوحون بأيديهم له، وجوههم تخطف أمام عينيه: لازم، محمود، ناصر نابت، أبوه شرطي المرور جابر، ميري، زيدون، كريم كشكول، مكى، فرشته، عماد، فرحان الشبح، مع وجوه كثيرة يعرفها مصحوبة بهمهمة أصوات تتداخل وتتحاشك، وجوه وأصوات تبرق وتختفي برمشة عين وهو على بطنه ينزلق نحو المجهول، فيسقط فوق أنقاض جسده شيءٍ لدن وتقليل، انقطع نفسه وهاجت عليه وحوش وجعه الغافية تزار وتزجر. فز واستفاق يصعد للأعلى متسلقاً بئر نفسه، صحا، رأى امرأة فلاحا تتكوم فوق جسده، لا يستطيع الحراك فيزيحها عنه، يشم من ملابسها خليط روائح العشب البري، ينود برأسه يمنة ويسرة فلمح وجه (حنون الرفش) وهو يبصق التراب مرة تلو المرة حتى انهالت كومة هائلة من التراب غطت وجهه وغاب مع بقية وجوه وأجساد المعتقلين من حوله ولم يلاحظ خروج فقاعات تفتق طبقات التراب.

أدار وجهه إلى وجه الفلاحا المرتجف ملطوشاً على كتفه الأيسر، تسيل دموعها التائهة فوق (الشامات) الثلاثة المترصفة فوق زنده.

سمع زعيق ططوة بعيد فرفع عينيه إلى زرقة السماء، هطلت دمعة ثقيلة من عينه اليسرى وسالت على صدغه وأذنه فلم ير طوال عمره جمال زرقة السماء كما يراها الآن، شعر بثقل هائل يضغط عليه، وتطافرت حبات تراب على وجهه، رأى سرب غربان تنمش صفحة السماء الزمردية. إنظمت عيناه واختفت السماء، يسمع نعيق الغربان يبتعد وينأى.. ينأى: قد.. قد.. قد..

* * *

أخرج كريم كشكول أحشاء (الميز) بعدما سحب المسامير وفكك الطبقتين الخشبيتين فتدفق شلال الأوراق والدفاتر فوق الأرض.

بدأ يعزل ويصنف كل دفتر وورقة في خانة موضوعها الخاص فوجد إن (خضر قد) أنجز أحد عشر كتاباً يمكن عداها جاهزة بعد تبييضها في دفتر خاص وتصحيحها، ما عدا رزمة أوراق بقيت خارج الأجناس والتصنيفات لا يعرف كريم ماذا يفعل بها.

كان آخر ما تسلمه كريم من (عبودي) دفترأ مدرسياً وقصاصات من علب سجانر فارغة مكتوبة بخط ناعم ودقيق مثل الدود، جلبها أحد أبناء حمدان من قلعة صالح عندما جاء لبغداد من أجل اكمال معاملة تسريحه من الجيش.

وهاهو كريم كشكول يعدّ الكتاب الأول دون إن يضيف حرفاً واحداً من عندياته، إنما اختار العناوين للمقاطع التي ثبتها كمفاصل لجسد الكتاب الذي سوف يعنونه بـ (قد). يقول كريم مخاطباً (خضر قد) الذي لا يعرف عن مصيره أي شيء حسب ما نقله ابن حمدان، الذي أفترق

عنه وعن حنون الرفش فوق سطح أحد البيوت في مدينة العمارة أثناء قمع الانتفاضة. لكنه يخاطب (خضر قد) باعتباره حاضراً في دفاتره وأوراقه وفي بقايا أشلاء (الميز):

- لا تغضب علي ولا تنفعل يا (خضر قد) لأنني تصرفت دون علمك: أولاً بعدم حرقى (الميز) فلم استلم إشارتك كما أخبرتني في رسالتك الأخيرة. وثانياً سأخذ على عاتقي ترتيب هذا الكتاب الأول من حيث التقديم والتأخير لبعض المقاطع، وسوف أ حذف سطوراً وأضيف سطوراً من بعض قصاصاتك المنسية. وسأجعل المقاطع ذات العناوين بلساني أنا، كريم كشكول المتواري خلف السطور، فإننا الشريك الخفي في نسيج حياتنا الغاصة بالمحن والقهر. جعلته هكذا لمصلحة الكتاب.

أرجوك سامحني على اقتحامي عالمك السري، وسامحني على عرقلة سجيتك وعفويتك المفرطة في الكتابة. وها أنا أبدأ بتبييض أول صفحة من كتابك الأول حيث أراك ومثلما أتخيلك وأنت تشد قيطان حذائك في ساحة الميدان، تسبح حولك الكاميرات اللا مرئية وينبض بين اضلاعك سر وجودك في اكثر من مكان بأن واحد، حيث تملك سبع ارواح وتزوج دائماً من قبضة ملك الموت.

أكتب واعد كتاباً ما كتبت، مفترضاً أنك مازلت في مكان ما تتبع احلامك المستحيلة، وتنزلق من ايدي النهايات، ومن ايدي الان.

